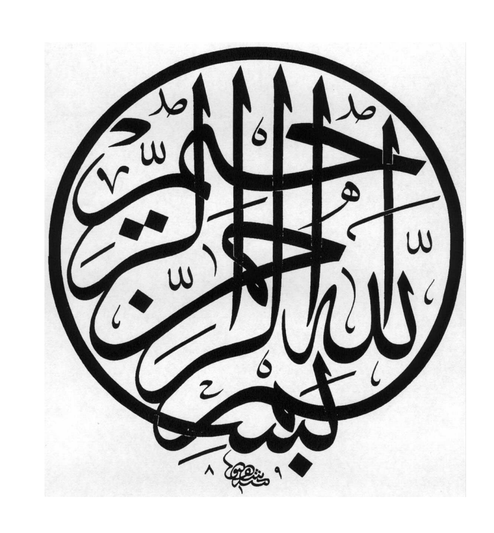
بديع الزمان النُورْسي

سيمياء الشكل والصميم

أ.د. عشراتي سليمان

جامعة وهران-الجزائر


بسم الله الرحمن الرحيم

فـــاتحــــة

عالم النورسي الفكري يدحر بلا محدوديته. فهو عميق كالبحر، شاسع كالمحيط، مترامي بلا ضفاف .

لم يترك القرآن بصمته الذهبية على روحه فحسب، بل لقد حمل تراثه برمته تلك البصمة، إذ جاءت آثار القرآن وخصائصه البنائية والمنهجية والأدائية ملموسة في النص النوري: تكرار تثبيتي، استدعاء توجيهي، استرسال تكميلي، تمثيل توضيحي، تخشيع، تذكير، تبصير، إدهاش، تحسيس بالطبيعة والكون، تركيز على التوحيد، جعْلُ الإنسان محور الوجود وغاية المخاطبات.

تبهرنا سيرة النورسي فنتطلع إلى تراثه الروحي، فنجده حقا قد استوعب العمر ورصد الأيام، ونعجب من هذه السيرة الحميمة التي تتطابق في التفاصيل والكليات مع القرآن، فلا يخامرنا أدنى ريب من أن الظاهرة الإنسانية التي تواجهنا، ظاهرة قدمها في القداسة راسخ..

تظل الدهشة تلازمنا والتساؤل يلح علينا لماذا حازت هذه الشخصية كل هذا الثقل الذي يجعلها أسطورة في عصر أعلن عن موت الأسطورة؟

هل تـأتّى لـه أن يحوز الخلود من كونه جمع في شخصيته طبيعتين لا تتداخلان عُرْفًا: القديسية والكارزمية ؟

الكارزمية وحدها لا تفي بشرط الكونية، فهي بعد كل شيء بطولة إدهاش تختزل ـ عادة ـ مسافة الحلم،لأنها تتقاطع مع الفاجعة على أقرب سبيل.. وكذلك القديسية وحدها بلا رؤية وأفق إنجازي، تظل حيثية صلاح وسكينة، لكنها لا تحوز قوامة الرمزية.

ترى بأي المعايير نكيل جغرافية هذا الصالح ؟

أو ليس من الحكمة والبيان أن نردد نحن هنا، ما ردده هو عن شيخه هناك:

أقول كما قال مولانا جامي :

يا رسول الله ما ضر لو دخلت الجنة مع الداخلين ككلب أصحاب الكهف في زمرة أصحابك الأولين. أينا أليق بالجنة أنا أم من حرس الكهف سنين، هو كلب أصحاب الرقيم، وأنا كلب أصحاب الأمين.

ومما لا ريب فيه أن رسائل النور - من خلال منهج الفقه الأكبر الذي انبنت عليه - قد أزالت عن سياق الرؤية والأفكار والأحكام صبغة التاريخية والمحلية، ذلك لأن النورسي كان يفاعل أوضاعا ومعاينات وضغوطا ملموسة، وكان يتصدى لمواجهات ميدانية اختراقاتها تنجم أمام عينه وتحت عناوين وشعارات معلومة وبأيدي وجوارح أشخاص وتنظيمات وقوى حية، معروفة، ومتحركة على أرض الميدان .

لكن فكر النورسي عزل عن فواعل الصراع تلك محايثاتها التشخيصية، إذ تعاطى معها في سياق فوق تاريخي، من خلال مواجهة الفعل ليس برد فعل آلي من جنسه، ولكن بتفعيل يستوعب الشروط الموضوعية التي كانت مصدر ميلاد ذلك الفعل ويتجاوزها إلى صعيد يتكفل بوضع بدائل لها تزيل عنها عدوانيتها ..

فالارتفاع عن المرحلية تتأتى للنورسي من خلال ذلك الترفع الذي جعله يقرأ المسرحية من خارج الركح، وليس طرفا فيها تغمره الأضواء تارة وتهمشه الأدوار تارة أخرى.

ومن غير شك أن السياسة خسرت في شخص النورسي فاعلا جبارا في المدافعة وفارسا لا يشق له غبار في الاستباق لو أنه تخطى استعداداته ونزل ساحتها..

ومن الثابت عندئذ أن النورسي كان يغدو رقما مربحا، لكنه بكل تأكيد لن يحقق من الرهانات إلا كل ظرفي وطائفي ومستهلك زائل.

ومن الوفاء للنورسي وكافة الصالحين والمصلحين ممن وهبوا أرواحهم في سبيل رفعة الأمة ونصب رايتها أن تحشد الجهود من أجل التقدم بالدعوة الإصلاحية إلى أصعدة أرقى وأكثر تفعيلا..

فمن غير الرشد أن نستنيم لترديد المواعظ وتبنِّي شعارات النصح والمُضِيِّ على هدهدة مشاعر الارتياح والرضى عن الذات .. إذ لا يكفي المرء أن يعلن عن محالفته لأهل الإيمان واصطناع شارتهم ليتبرر تخففه من التبعات إزاء الأمة والحضارة والتاريخ وإزاء جهد الجاهدين، ويتوهم أنه أدى ما عليه ..

فلقد أضحى واضحا أن جنوحا إلى الاحترافية بات يبرر لجموع ممن يتكاثرون على ساحة الدعوة أن يقفوا عند حد بث المواعظ المكرورة ، ثم لا شيء بعد ذلك.

إن إسهام هؤلاء لزهيد بالقياس إلى تجشمات تَكَبَّدَها الرموز ومنهم النورسي، بل سيكون الضرر بالغا إذا تبيَّنَ أن مقاصدهم ليست خالصة وأنهم يتأذون بكل دعوة أو بادرة تخرج عن نطاقهم وتزيح صبغة الاعتماد عن احترافيتهم .. إذ الثابت أن من كانت آفاقه مسدودة وأفكاره محدودة يضحى ديدنه الجنوح إلى الركود والانغلاق، فكل تحلحل يثيره ويهيجه لأنه يتشاءم من كل تطوير، لأن السكونية تصون امتيازاته الدنيوية التافهة.

إن هذا الفصيل الذي يحترف الدعوة من غير ما مصداقية - ولا أقول من غير صديقية ، فليت شعري أنى نحن منها ؟ - يمثلون زماتة تضر بالإسلام لغرضيتها ولانبنائها على الحاسابات الخاصة.

ألم يحن الوقت اليوم لرسم آفاق أخرى تتتابع فيها جهود الصالحين ؟ إذ لا يعقل أن يكون النورسي في طليعة من ينتبه إلى أهمية التجهيز بالرونيو وبالراديو وبالمسجل الميكروفوني، بل لقد وظف تلك العدة التوصيلية في سبيل الخدمة والدعوة، ثم نقف نحن اليوم، وفي عصر الانترنيت والبث القمري عند حدود إشهارية عتيقة..

فمن خدمة الإسلام أن تُصْرَفَ جهود الأمة في التجهُّز بما يعمل على تثبيت الإسلام في نفوس المسلمين وعلى توصيل الدعوة والعقيدة وتبليغها للعالمين، بكل لسان وتحت كافة الأشكال التبليغية الناجعة. وإن الجهة المرشحة للاضطلاع بهذه المهمة الفتحية هي تلك الجماعات واسعة النطاق والمنتظمة في سلك الخدمة، كما هو شأن النورانيين.

ولا مشاحة في أن خير سبيل للدعوة وأنفذه هو ما تحققه الأمة شعوبا وأقطارا من نجاحات في دفع التخلف وتعزيز المكانة وامتلاك القوة.

لقد كان لنا في النورسي أروع نموذج على الاستماتة ليس فقط في الدعوة، بل وفي قهر العوائق المفروضة على الذات والمقيدة للحركة والخانقة للحرية والمناهضة للمبدإ .. لقد أوجد شروط الخدمة من العدم، وجهز الفيالق من لا شيء، سوى أنه استلهم سيرة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ذاك الذي بنى الحضارة من حفنة رمل جعلها سدا بينه وبين الأعداء، ومضى تحت جنح الليل يشيع النور والسلام.

وإذا تساءلنا لِمَ لم يتواصل النورسي مع علماء عهده، ألم يكن من الأجدر له أن يمد يده إلى طبقة العلماء في حاضرة الخلافة ليشرع بما يكلفه له ذلك المدد من طاقة في العمل والسعي؟

والجواب البديهي هو أنهم كانوا إما منجرفين مع الأعداء، أو كانوا متفرجين، أما من كان على صلاح منهم فقد صُفِّيَ أو شُرِّدَ أو أُقبِرَ حيًّا كما حصل للنورسي، وعلى تلك الحال لم يكن بد للنورسي من أن يمضي وحيدا في سعيه رغم رسوفه في القيد .. ولولا همة جبروتية رعتها إرادة ربانية لكانت أحوال تركيا اليوم غير الأحوال .

على أنه لابد من ملاحظة أن تلك الظروف القاسية التي عاشها النورسي قد ساهمت في تهييئ ظروف استزراع موقّتة، من حيث استهدفت الدعوة النورية قاعدة المجتمع وأوساطه الشعبية الواسعة، حيث تتقوى القابلية ويتوفر الاستعداد.. فتجديد البذرة اقترن بتجديد التربة وهو ما جعل المُزارع - في نهاية المطاف - يغادر العالم قرير العين واثقا من فلاح جهوده.

ولو أن النورسي رجح كفة الواقع على كفة التأمل الروحي والتوحيدي في ما كتب وفي ما ترك لنا من آثار، لما كانت رسائل النور، ولكان المحصول تراثا تسجيليا لسجالات مرحلية لا تصلح إلا كمدونة توثيق تاريخي، بل حتى صلاحيتها التوثيقية تلك تظل نسبية، لما تتميز به - عادة - مثل تلك الكتابات من ذاتية ومن رؤية شخصية لا تستجيب لمعيار الموضوعية على كل حال..

فترجيح الجانب الدنيوي في الآثار إنما يوقعها - ببساطة - في الصبغة الإيديولوجية، فهي عندئذ انعكاس للواقع ورصد له من زاوية الموقع العقدي الذي تصدر عنه رؤية الفاعل.. الأمر الذي يجردها من شرط استمراريتها التجنيدية خارج صعيد الجغرافية والتاريخ الذي ظهرت فيه .

فالخطاب الإيديولوجي لا بقاء له، إذ مسيرة الزمن والمراحل المتعاقبة تحسمه، على عكس الخطاب التعبدي، خطاب الخدمة والسلوك .. فهو معطى روحي مفتوح على ثبات الفاعلية والتأثير، مستقطِب للقابليات باستمرار، ومحاور للإنسان في كل زمان ومكان.. إذ لابد لخطاب الخدمة الإصلاحية كي يحوز شرط الاستمرارية وحق الدوام، أن يتجاوز آلية الارتجال الانفعالي والتسديد بسهام الذات ونعرتها، إذ هما سبب تَعَقُّر أنْفِ الخطاب في وحل الظرفية. من هنا كان لابد لخطاب الخدمة من رجاحة قداسة، كي يخترق حدود المرحلية وكي يتجهز بخاصية المرموزية.

أجل إن الرسائل تفسير حشْدي إصلاحي، ومدونة جهاد تعبدي، وسِفْرُ تعبُّدٍ جهادي لا غبار عليه، من هنا حازت طبيعتَها الحية وامتلكت مرموزيتَها المتجاوبة مع كل الأجيال .. وقد ترى أفكار دعاة العصرنة في بعض مقررات النورسي تزمتا، لا

سيما في تلك المسائل العامة التي عالجها من منظور ترشيدي لا إسراف فيه، وخص بها مجالات الترفيه والتسلية والإبداع مثلا.

والجواب أنه ليس كحالنا التي انتهينا إليها في هذا المجال رد على حكمهم ذلك، إذ لم يثمر إنغماسنا وأخذنا بالقيم الليبيرالية واللائكية وبعبثيتها إلا تبديدا منكرا لقيمنا.

لقد مُسخنا على صعيد شامل، حتى أضحى كل عاقل يتساءل بخوف هل لهذا التردي من نهاية؟ وبتنا نتصور أحوالا للأجيال الصاعدة صادمة للنفس، طاعنة للكرامة الإنسانية، إذا استمرت عجلة التردي - لا سمح الله - على هذه الوتيرة المنحدرة.

ولو تساءلنا أخيرا فيم يختلف النورسي عن دعاة زمانه، بل وعن الدعاة في سائر الأزمنة حتى يحظى بهذا التميز؟

قلنا إنه ساواهم في الفناء، لكنه فاقهم في ما أحدث من فعل وحقق من إنجاز..

وإذا كان لبعض الطرق حشود تعد بالملايين، فلا عبرة ولا مجال أن نضاهي بينها وبين النورانية، لانفتاح النورانية على الناس جميعا.

فمنهاجها هو القرآن والسنة. إذ لا خوف لأحد من أن يتلون بلون يحجمه أو ينمطه أو يفرض عليه تبعات وضْعية إلا تبعات الإسلام كما قررها القرآن وبينتها السنة وسيرة السلف النيرين.

ثم إن النورانية ربطت خدمتها باستنهاض المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، إذ أنها عينت العدو : الغرب المستعمر والصهيونية الكائدة والمتغربين الخائرين.

وأناطت المسلم بمناهضة التخلف، وحَدَتْ به إلى أن يسعى قُدُمًا لأن يمتلك شروط القوة ويخوض غمار البناء والتحديث في إطار الشريعة الغراء. ثم هي جعلت من شريعة الإسلام رسالة مفتوحة على كافة مخلوقات الله.. فبذلك عززت روحها الإنساني وأعلنت خلوصيتها، واعتبرت كل مؤمن صادق الإيمان هو عضو فيها ولو لم يعلن عن فرديته.. النورسي ارتهن نفسه وتنازل عن حظوظه من الدنيا كلية، وسخر عبقريته في الدعوة التوحيدية المتماهية في وعي حضاري (لابد وأن يتحقق) وتخطى بمثاله الإقتدائي الأجيال، ليرسو عند عتبة الصديقين .. فعلى قدر عظمة المثال تكون المكانة.

رحم الله النورسي على ما أسدى وأهدى . آمين

وهران في 28 ربيع الأول
موافق 1-07-2000
عشراتي سليمان

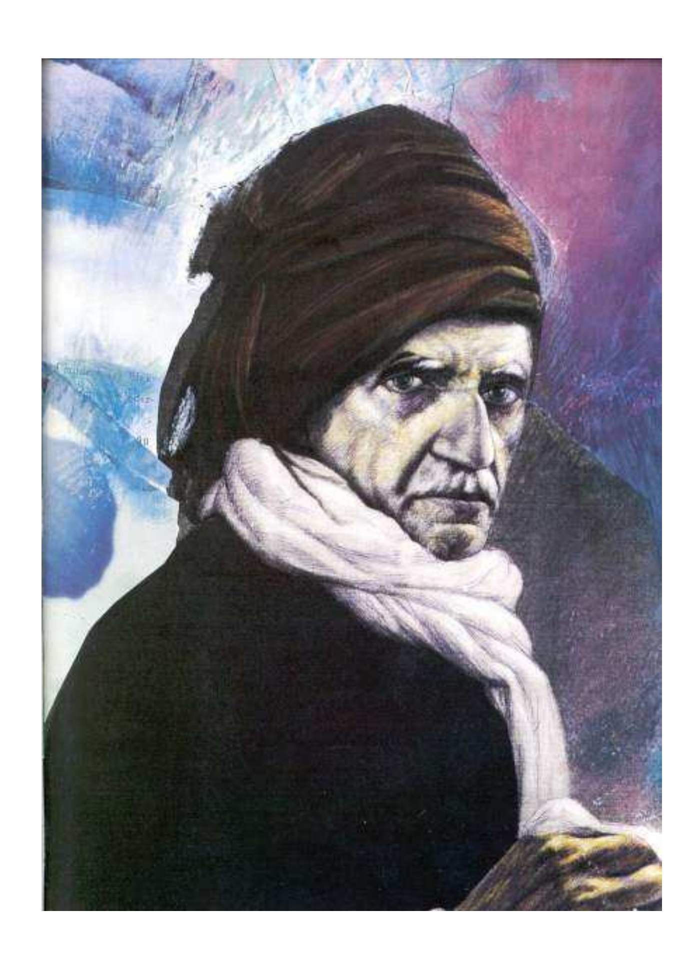
تمهيد

قراءة أولى

في الإكونوغرافيا[1]

1 الإيكونوغرافيا ICONOGRAPHIE: علم يختص بحقل الصور، وبكل ما يتعلق بها من حيث الوضع والألوان والأشكال والخطوط والمعاني التي تحملها أو توعز بها.

الصورة الأولى



يا رب، أنا غريب وحيد ضعيف غير قادر، عليل عاجز، شيخ لا خيار لي، فأنا أصيح الغوث الغوث . أرجو العفو، وأستمد القوة من بابك يا إلهي. (سيرة ذاتية 224)

إنني أعلن بملابسي المخالفة للناس: إستغنائي عن المقاصد الدنيوية واعتذاري عن عدم مراعاتي للعادات الجارية في البلاد، ومخالفة أحوالي وأطواري عن الناس.. وفطرية إنسانيتي، بموافقة الظاهر والباطن .. ومحبة ملتي. (سيرة ذاتية 71)

ملامح متجهمة، نظرة ثاقبة، أنف أقنى نسري، شاربان مشذبان لكنهما يغطيان مساحة من غير فضول، يأخذان مكانتهما تحت الأنف دون أن يؤشرا لشأن. الشاربان - عادة، لا سيما في الزمن الماضي، و لدى أهل المشرق خاصة - هما فهرست سيرة الإنسان. يُستقرأ منهما ماضي حياته وحاضره - المكانة والمستوى والمشرب - لكن الشارب عند النورسي يحتل حيزا رجوليا في سيمياء الوجه دونما فائض .

المحجران ليسا خابيين - رغم تقدم العمر الذي تعكسه السمة العامة للجسم - بل إن ألقهما يواري انقداحا باطنيا كتيما. العين سماء يسودها صحو، إنه صحو السكينة، ويظلها حاجب كث عرا طرفه بياض عمق من بروزه، كثافة شعر الحاجب في التراث من علامات الرئاسة والشأن .

الخدان يتابعان انطواءهما بفعل الزمن، كالثمرة حين يأذنها الموسم وهي في العرف (اللاوية). إنهما يحملان رسم تثنٍ يتناسب مع العمر، وينم عن ارتياض متوازن لا يدل عن تقشف أو ضناكة في العيش، وذلك ملمح ملموس على بركة جلية كان يحدثنا عنها النورسي .

ظاهر اليدين يفيض على حجم يكشف عن تمرس بالعمل، فهما ليسا يدي مثقف يحترف مسك القلم وليس شيئا آخر. والصلابة التي تبديها عظام الوجه تتعمق أكثر في حجم اليدين المبريتين .النظرة شقّية (شق)، العينان ترسلان سهما بعيدا، وتنفذان في المدى، الموقف يبرز حالا من الانغمار الباطني الذي يستغرقه . الوقفة في ظل شجرة - الشجرة بذاتها باهتة - عنوان الوحدة والعزلة والانقطاع . إنها خلوة الروح في صومعة الشيخوخة.

الطلعة لا تعرب عن شكاة من الواقع أو تأفف من تبعاته، بل إنها من عمق انغماسها في هذا الواقع بدت نابية عنه ولا تمت إليه بصلة، إنها طلعة مشدودة بخيط انخطاف ينأى بها عن المشهد الأرضي، وهي لذلك لا تكاد تتماس مع التفاصيل إلا بنصف وعي. نظرة انغلاق وإشاحة متجاوزة لما يواجهها، وغير تعبيرية أو بالأحرى تعبيريتها لا تشف عن شيء مما يعج وراء ستار الانخطاف المسدل على الوجه. فالتركيز يسدد هناك بعيدا عن مجال المواجهة. ولا غروة فالنورسي مستلب بعوالم لا يحصرها الشاهد العيني ولا اللحظة الراهنة.

الهيئة فضة، فضفاضة، داكنة كليالي دجمبر، لا تعير للخارجي اعتبارا، الهندام يصون الهيكل ويحميه من تقلبات الطقس.لا رسالة له، أو على الأصح رسالته لا

تصطنع المحسن البديعي. لا لياقة لها، لأنها حميمية. إنه سعيد الجديد - والجدة باطنية فقط، تتعاكس مع جدة ظاهرية رائقة ستكشف عنها هيئة سعيد القديم (علاقة التعاكس). نظرة وسطى تقاطعت فيها معاني ليس من السهل إدراكها: الاستياء بالابتئاس بالسهوم بالغياب بالتأمل بالتسامي بالتلقي بالإصغاء. الاغتمام الذي نلمسه على صفحة الوجه يستجمع كل الأبجدية التي نلحظها على تلك الوجوه التي برتها الشيخوخة ومعاناة وطأة العبادة ودفع المغويات. نظرة تنم من بعض زواياها عن اكتئاب أو احتدام أو..

نظرة حية، تلقف ما يدور في سمائها بيقظة سافرة. إنها تستقرئ الحركة العارضة أمامها بإمعان طارئ، فهي نظرة لن تلبث أن ترتد إلى حال أخرى أكثر استقرارا، وأكثر استسلاما. ترى كيف تكون ألوان شاشتها عندئذ ؟ وما سيكون مزاجها؟ وهل لها حقا صفاء وهدنة مع الكون ؟ وهل تشع منها بسمة وداعة؟

الصورة الثانية



كانت روحي تبحث عن نقطة استناد وركن شديد أمام البلايا والمصائب غير المحدودة التي اتخذت صورة أعداء ألداء، وكانت تبحث أيضا عن نقطة استمداد أمام رغباتها الكامنة غير المحدودة والتي تمتد إلى الأبد " (اللمعات 382).

النظرة اللوزية **سهمية،** تتحاشى المواجهة، مركوزة في المدى بكل استرسال، الأنف بارز قليلا، انعقاده يُلَوِّحُ بإحساس بالوصمة والمرارة والانهيار. تخوم الفم تحوم عليها امتعاضة ذاوية.

الذقن مفروم، وذاك ما يجعله ارتكاز وسامة بالنسبة للوجه المهموم. المَسْمَعان بارزان، الشاربان مقوسان يظلهما جفاف، والعمامة تميل قليلا نحو اليسار، دلالة على كبرياء متجذرة. ملامح الوجه تشف عن حال تربص واندحار منذرين، وسيما المطلع برُمَّتها تكشف عن حال من التراجع القسرية . نظرة فيها جفاء عارم، نظرة تتشرع لصد كيد نازل أو لابتلاع عوالم عدوانية، مناهضة، غير مرئية.

الصورة الثالثة



ارفعوا هاماتكم وقولوا لقد صدقت. وليكن هذا التصديق دينا في أعناقكم". (سيرة ذاتية 115)

الصفحة فيها أضواء سِلْمٍ وبراءة ورغبة عارمة في الحياة، لكن هناك غيوم ترحل، تنبع من الأعماق وتحاصر أسراب تلك النظرة الموسم، تلك المروج الربيعية، ذلك الصباح الصحو.

نظرة دائمة التجاوز والنفاذ والانشداد إلى أفق أبعد، الشفتان مزمومتان على طيف من سخرية يخالطه امتلاء باطني بمشاعر الصرامة والتحفظ والرفض. نظرة تسيطر على مجالها، واثقة من أنها تدرك حركة الأمواج من حولها وتسبر تياراتها العمقية المتلاطمة، وترقب الطوارئ وتترصد المستجدات.

ظل كبرياء لا شائبة من عدوان فيها، أشبه بمشاهد يتابع مسرحية رآها أكثر من مرة فهو على علم مسبق بحركات الممثل وسكناته. الشاشية (الشيشانية) تميل قليلا إلى اليمين، مؤشر لعنفوان مكبوت، بوادر تخدد ونضج تطرأ أسفل العينين، نضارة صحة في المقلتين. طلعة تكبح من جماح فتوتها وتفوقها في وضوح، وزي تجندي ميداني ينبئ عن الاستعداد الفطري لممارسة غليظ المهام ورقيقها.

الصورة الرابعة



" كنت أحس بأني أسعد إنسان في العالم". (سيرة ذاتية 150)

الشَّـدَّة الرأسية تميل إلى اليسار، شارة الخيلاء. نظر ناعس مشدود إلى الأمام، بزة براقة، ووقفة جاهزة ومحسوبة تتجاوب مع الفتوة المتألقة وبهجة ربيع العمر. خطوط الشفتين تدل على أن الصمت سجية أصيلة لديه .

الإشاحة وتجنب المواجهة تنمان عن منزع استعلائي، تجاوزي، غير اندماجي، ظهوري، وذاك منزع سيتجسد بكيفية أو بأخرى على الصعيد الفكري والعملي في حياة النورسي. قشابة الزي ورُوَاءُ الطلعة تدلان على شغف بالحياة متدفق.

استجماع لمحصلة الشواهد والخطوط[2]

الكبرياء حال متأصلة، والصمت مظهري لا غير، فالأعماق تموج بالمخاطبات، والزهد ليس من سجية النفس بل هو كسب ارتياضي تأصل بقوة الاستعداد، الكونية وازع وجودي، فالنظرة أبدا متجاوزة إلى الأبعد والأعلى والأعمق.. النفس كسيرة جبلة، لكنه انكسار الإيمان وملامسة الفيوض.. والتحدي نار تستعر في الأعماق، وتتحقق ألطافا وخدمة ربانية كفلت المقامية والخلود..

2 لاشك أن استخلاصنا هذا مختزل، وتقصدنا أن يكون على هذا الوجه الموجز، على أمل أن نعيد الكرة، فنخصص مبحثا مستقلا أوسع لقراءة سيرة النورسي من خلال قراءة ظلال الصور وتجليات الإيكونوغرافيا، إذا ما تيسر لنا ذلك إن شاء الله.

مدخـــل إلى تخوم الشخصية

النورسي.. ووازع إعادة المفهمة والتقويم

لازم النورسي مفاعلة القرآن بفناء قلبي صريح، يترصد من خلال أنـواره الطريـق المؤدي إلى النجاة ويستلهم المرتكزات المقوية على الصمود في وجه الزعازع، فلذلك لبث يداخل القرآن وفي ذهنه هموم عصره ومفاتن زمانـه، فالخطـاب يستهدف فواعل الهـدم النـشطة علـى الـساحة ويـستهدف المـصير الـذي لا ينبغـي إلا أن يكـون بهيجـا. فالدرس القرآني لم يعد خطـاب الإرجـاء وبث التعزيـة إلـى مـا بعد الفنـاء، بل لقد أخذ طـابع المنهـاج التثـويري العـام، فـشعاراته مـن ثمـة رفعـت لـتعلن عـن مراهنتهـا لـيس المرحلية ولكن الأبدية إطلاقا..

كما لم يكف النورسي عن إعادة تقويم الظـواهر والسلوكات فـي إطـار إرسـاء روح الخدمـة علـى أسـس جديـدة تتجـاوز عتبـة الـشكوى والـتظلم ونعـي الطـالع. وفـي هـذا الإطار لم تعد الوقائع العرفية ترسو علـى قيمهـا المألوفـة والمحسومة، بـل لقد أضـحت لها قيم جديدة وأضحى الضمير يتعاطى معهـا فـي ظـل تلك القيم ويلابسها بموجبهـا.. فالعمل أو الوظيفة ـ مثلا ـ بات لذة، وتحول عن مفهومه القديم كونه واجبا أو شرفا أو ما إلى ذلك .. فالنفس تقبل على تأدية المأموريات لأنها تتشرب فيهـا ومـن خلالهـا لـذة ومتعة، وبالتالي سعادة وجودية.

بهذه الروح لبث النورسي يرسي قواعد التغيير على صعيد شمولي .. إذ كـان علـى إدراك كبير بأن ظواهر الحياة ومعطياتها لا تتجدد ولا تأخذ مسارها التحولي البنـاء إلا مـن خـلال إعـادة مَفْهَـمَة وتقييم تلـك الظـواهر والمعطيـات، وإضـفاء عليهـا المفهـوم والدلالة التي تجعل العقول وبالتالي المواجد تتجدد وتنـصرف تلقائيـا وبـصورة طبيعيـة ضمن السياق التجديدي لتلك الدلالة..

فالغاية القصوى كانت تأصيلية، من هنا كان على منظومة المعـاني أن تنـصهر مـن جديد فـي فرن القرآن النـوراني، لتكتسب قابليـة التجدد والحيـاة فـي زمـن طغـت عليـه الحركة الفاعلة والمنفعلة، مما أكثر ضحاياه.

القوامة الرجولية والرؤية التجريدية

يمكننا التأكيد على صعيد آخر، أن هناك ترابطا عضويا في شخصية النورسي بين منازعه الفكرية والروحية وبين خصائص تلك الشخصية، وفي هذا النطاق يمكننا أن نصل ملمح القوامة الرجولية البارز في نفسيته بالنزعة التجريدية التي تميز فكره والتي أخذت طابعا روحيا قويا.

ومن الملاحظ أن طاقة التدبر والاستجلاء التي تميزه أخذت أحيانا صبغة تحليل رياضي، وتلك حال لا تعكس فقط طبيعة الاقتدار الفكري والاستبصاري التي يصدر عنها ولكن أيضا طبيعة القوامة الرجولية التي تتميز بها شخصيته، إذ أن نزعة التمرس بالتحليل نزعة تنم عن قابلية جوهرية في شخصيته، هي قابلية القوة والمكابرة والتحدي ومواجهة الصعاب. فالتحليل - بما هو تفتيت وإخضاع وإفناء وسيطرة ذهنية وعقلية - هو المعادل الموضوعي لروح الغلبة والظهور التي تسكن جوانح النورسي.

ومن جهة أخرى يمكننا القول إن قوة التمثل العقلي كانت وراء حدية مواقفه، فهو يرى في القرآن ما قد لا يرى غيره فيه، يرى فيه أكوانا وانبثاقات وقوانين لا تفتأ تغمره وتجتاح نفسه هو بالذات، فلا يزداد بها إلا إيمانا وتطاولا على ما سواها من فذلكات التجريب البشري التي لا تتطابق مع النموذج الإلهي المسطور في الكتاب أو الشاخص في الظواهر والآثار، وكل ذلك كان يقوي فيه الشعور بالاكتفاء.

النعرة القرآنية وبطولة الوجدان

سيرته في مطلع شبابه الأول بين القبائل كانت سيرة عملية تلتزم شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك لأن وازع البطولة فيه كان يأخذ صورة مادية سندها الفتوة والعنفوان، وكانت مظاهرها السلاح الذي يلازم حزامه - ربما ذاك شأن عرفي في تلك البيئة - لكن توظيف تلك الأسباب كان يومها أخلاقيا، شرعيا، أما حين تخطى مرحلة الشباب فقد صعّد من سلاح الروح، وتصلبت واشتدت الجراءة المعنوية، إذ أصبحت تشتحن في كل آن من بطاريات القرآن

هناك نعرة فطرية روحية تتملكه إزاء ما يعرض للمقومات من الانتهاك. فهو قادر على أن يتلقى الطعنة بكل صبر متى ما كان ذلك يصون العقيدة ويحمي منظومة القيم التي تشكل لوجدانه مناط القداسة الروحية والحرمة الفكرية.

فهذه النعرة لا تتجانس بتاتا مع ما يبديه كثير من الناس من عواطف دينية لا تتجاوز الحد الانطباعي البارد، بل إن نعرته كانت حميمة، عضوية، مبدئية، وما ذلك إلا لأن كرامته الشخصية باتت من كرامة العقيدة والقرآن. من هنا لم يعد الفصل بين الحدين ممكنا، ومن هنا أيضا كان انخراطه الروحي ذلك الذي طفق يحياه بالقرآن وللقرآن طيلة تلك العقود.

" إنه من الضروري أن يحتد ويغضب كل من له مزاج عصبي مثلي، لأن الذي يحمل فكرا رفيعا - أي الحرية الشرعية .. وأوشك أن يراها تتحقق فعلا، إذا به يرى نفسه على خطر وهلاك من حرمان رؤيته - بانقلاب عظيم - كيف لا يحتد ولا يغضب؟ " [3]

لم يكن اعتناقه لروحية القرآن مجرد إيديولوجية عرضت في سوق الجملة، ولم تكن إكسيرا سيكولوجيا ارتد إليه بعد نكوص وجودي فاجع، من هنا لا يمكن أن نعدّ حساسيته الحية المتهيجة إزاء ما يمس القرآن من تعديات أو تجاوزات مجرد حال احتدادية عارضة، بل هي إعراب حميم لما يتلاطم فضاء النفس من حمية إيمانية صافية

لقد ظل النورسي رحمه الله على خط من الإيمان والثبات الفكري والمعنوي لم يخطئه طيلة حياته.

فأفكار شخصية سعيد القديم - في جملتها - كانت من الاستنارة والأصالة بحيث وجدناها تظل تقريبا هي هي في فكر سعيد الجديد.

نفسيته نفسية جمع وتوليف،لا تشتيت وتفريق والرسائل تجسيد إنجازي لذلك

الرسائل كانت الإنجاز الروحي والفكري والمعرفي الباهر الذي فك به النورسي عن نفسه الحصار والعزلة، ومد جسور التواصل مع المجتمع ، بل ومع الأمة قاطبة حتى في تعاقب أجيالها. فقد حقق من خلال الرسائل ذاته، لا على أساس نرجسي أو تعويض قصوري أو مطمحي زائل،إذ الرسائل إنجاز من عمل العقل الباطن أو الروح الاستبصارية الجياشة، بدليل أن النورسي لبث يؤكد أنه كان يكرر قراءة الرسائل قراءة مستكشف، أو كمن كان أجنبيا عنها..

لقد أنجز النورسي رسائله القرآنية بتوفيق رباني ثابت، ذلك لأنه عندما قرر أن ينجو بنفسه المؤمنة وأن يقصيها عن القطيع، كانت دوافعه في ذلك هي روحه المفعمة بالإيمان وجبلته المشتحنة بالأنفة والتأبي عن التدجين والرضى بالدنية..

3 سيرة ذاتية70.

وواضح أن النورسي لم يكن يتوقع أن عقود الحبس ستتمخض عن تشييد ذلك الصرح الروحي القرآني الذي هو رسائل النور، إذ لم يكن مهيأ لذلك الإنجاز على أكثر من صعيد، فهو من الناحية الفكرية كان صاحب عقلية خطابية جدالية، فهو خطيب مرشد، ميداني، عملي، ولم يكن ذا نزعة نظرية طاغية نجدها تجنح - عادة - بأهل النظر إلى طلب العزلة والسكينة وإدمان التأمل.. إنها صفات لم تتعمق في حياة النورسي قبل مرحلة العزلة.. وهو من الناحية النفسية لم يكن شخصية انعزالية تحضن بيض فكرها في دفء الخلوة والسكينة والانقطاع كما هو شأن أغلب المفكرين.

" إن أكثر أحداث حياتي قد جرت خارجة عن طوق اقتداري وشعوري وتدبيري، إذ أعطيت سيرا معينا ووجهت وجهة غريبة لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم" [4].

لقد كان شخصية اجتماعية راسخة لا تجد أكسوجينها إلا من خلال تفعيل أواصر الجدال والمحاورة. ولم يكن النورسي - آنئذ - محتبس الروح في مزاج نفسي ديدنه الانغلاق التأملي السلبي، بل كان شخصا استقطابيا، مبادرا.

وحين تغيرت الأوضاع بعد الحرب وأخذت تستتب على واقع رجعي، انعزل النورسي ولاذ بالوحدة، ولم يكن في وسعه إلا أن ينعزل، لكن شراسته الثورية كانت تفزع الخصوم، فلم يترددوا في فرض العزلة عليه وجعلها حبسا مؤبدا، وكان النورسي مرشحا أن يعيش العقم التام، إذ جردوه من أهم شرط حياتي تستجيب له طبيعته، شرط الاحتكاك والتواصل الفكري مع الآخرين، ولم يكن يخطر بخلده أن الحبس سيهيئ له مجالا بنائيا ربانيا لا يُسامَى.. فمن طبيعة المنتكسين في أحلامهم أن يعكفوا على التعزية الروحية، وهو ما يجعل النص القرآني مجال سلواهم، لكن النورسي لم يكن في حاجة إلى أن يرتد إلى القرآن بخلده أو بوجدانه يتسلى به ويتسلح، إذ القرآن منذ وعى نفسه ظل غذاءه ورداءه ومتعته التي لا تشغله عنها متعة أخرى، فأنّى له أن يحقق في حبسه انجازا ذا معنى، لاسيما وأنه بلا ساعد ولا واعد.

فالكتابة التي هي العون الحميمي، التلقائي، للمثقف في اغترابات واعتقالاته ووحشته، كانت فاعلية تكاد تكون معطلة عند النورسي، فخطه السيء، والبطيء، لم يكن ليغري النورسي بالإبحار في تجربة المصابرة والتعزي ونشدان السلوى بمساكنة الحرف، ثم ما عسى نفس فطمها إيمانها عن اللغو وعن استعراض تفاصيل الذات أن

---

4 المكتوبات 484

تقول أو تكتب؟ كما أن انشداد الروح إلى التأمل الصامت والتحرى المكنون والتدبر الشاخص الذي كان بعض ما يطبع نفسيته كأثر للمنزع التصوفي الذي شب عليه، لم يفلح في استجرافه إلى مجال الذهنية البحتة والتجريد القح والتبتل الروحي الذي يدمن الإصغاء إلى سنفونية الصمت وما يعج فيها من أصوات مسكرة.. من هنا عاش التمزق، ومن هنا كانت الانبثاقة النورانية التي سيكون لها انعكاس تفجير القنبلة النووية من غير ما إنذار..

أجل، لقد تزاوجت لديه البواعث المحركة لتجاوز حال الاعتقال: النفس الثورية الجامحة جبلة وبفعل القهر، والنزوع التدبري المستثار بوطأة الحبس، والحلم الوجودي والحضاري الذبيح .وهكذا تهيأت الظروف لميلاد الحدث النوراني العظيم.. إذ أنجز الاستغراق الزمني الطويل الذي كانت ظروف الحبس تغذيه بالمحرضات النفسية والمزاجية ذلك الإطار الروحي والفكري العتيد، وانتسجت اللوحة العجيبة، خيطا، خيطا، بل فتلة فتلة ولونا لونا، بكل صبر وبكامل التؤدة والأناة.. لقد فجر النورسي قنبلته النووية بعد أن هيأ لها من الشروط والاستعدادات ما هيأ، ولقد رفع شعار السلام السلام، فمصنع القرآن النووي مهيأ للأغراض السلمية ولخدمة الإنسانية لا غير.

وربما اعتقد قائل أن انسحاب النورسي كان أمرا مقضيا بالنظر إلى ثوريته الفطرية، فهو بطبيعته ينبو عن مساكنة المألوف والمعهود والنسقي، لذا سار على ذلك الطريق الذي ظل يسير عليه منذ كان.. حتى في طفولته، إذ شذ عن الأقران..

إن هذا الاعتراض مردود، تفنده صيرورة الوقائع نفسها، فالنورسي ظل يحمل راية الإئتلاف والاستقطاب حتى حين كان يبحث عن من ينازلهم علميا زمن شبيبته، فالحدث الفكري التناظري كان يتضمن في ذاته دعوة صريحة إلى الاجتماع والائتلاف، لكنه اجتماع وائتلاف يقوم على أسس رؤيوية مغايرة كليا لتلك الكيفيات المعرفية البالية التي تقوض بها صرح المدنية الإسلامية، والتي كان الوهن والخمول والإعتيادية المقيتة من صفاتها، إذ كانت تزين للناس أن يواصلوا الاصطلاء على رماد الاستسلام، غاية استبسالهم الظفر بغلبة تأويلية في مجلس فقهي، استعراضي، ساذج..

فمقارعة النورسي لم تكن سلوكا نفوريا إزاء الآخرين، بل كانت استصفاء حصيفا للإرادات المهيأة للجهاد، وذاك ما سيتجسد -أروع ما يكون التجسيد- على صعيد الرسائل، إذ من خلالها حضن النورسي الناس جميعا وضمهم إليه، حتى الآثمين،

ومسح على رؤوسهم، تاركا لهم فسحة التوبة والاندماج في جماعية كبرى، لا قيّم على بابها إلا القيّم الشرعي، القرآني، والسماحة الربانية التي لا تضاهى.

قســاوة الإعــتراك

ومما لا شك فيه أيضا أنه نال من الاعتراك الشيء الذي لم ينله إلا قليل من الرجال، من حيث جسامة المعاناة وفداحة المكابدات وعلقم المرارات التي تجرعها، ومع ذلك ظل موفور العزة قوي النفس، يتمادى كبرياؤه الإيماني وأصالته الثباتية مع المراحل إلى آخر العمر، بل إلى الساعة التي وافاه فيها الأجل المحتوم.

فلقد كانت واقعة وفاته ذاتها من بعض وجوهها ترمز لحمية روحية ونفسية تعارض أن تسقط، وتتأبى عن الوقوع. لقد دفعته حمية الحياة، وحمية التصدي، وحمية الاحتمال المتأصلة فيه والكامنة في روحه إلى أن يرحل وأن يقطع - وحشرجة الموت تكتم أنفاسه - مئات الأميال، في رحلة لا وجهة لها، لقد حملت تلك الواقعة الاستثنائية عديدا من الدلائل، من بينها إرادة المقاومة، والاستمرار، ومواجهة الموت واقفا، وملاقاة الله على درب السعي والحركة.

لكن الاعتراك الذي عاناه النورسي وتجشم ويلاته هو اعتراك الرجولة والقوامة والشمم. وقد وسعه أن يصمد لكل ذلك البلاء كونه من جهة يحمل من الإيمان ما لا تستطيع معه أية قوة أن تنال منه، ولأنه من جهة أخرى عارك المصير الامتحاني وهو مبرأ من كل شائبة نقص أو قصور تخنع بها النفس حين المواجهة أو لدى اشتداد الوطأة وتلاحق الأذى عليها، كما سنرى في حينه.

ومن جهة أخرى علينا أن ندرك أن النورسي حين اختار أن يكون ذلك الطريق الإبتلائي وجهته، لم يكن يصدر في ذلك عن اعتباطية واستسهال للأمور ومجازفة حمقاء بالمصير، ذلك لأنه كان عليه أن يأخذ إحدى الوجهتين، إما وجهة الانقياد لظروف الحياة والتسليم لمجرياتها وركوب العربة التي تنحشر فيها الجموع، وإما أن يعتصم بقلعته وأن يعصم طبيعته التي جبلت على التفرد والتميز و الريادة والسؤدد.

من الواضح أن الاختيار الأول هو الأيسر والأدنى إلى النفس متى كان الإنسان عاديا وغير مسكون بطاقة قدرية انبثاقية، إذ أنه النهج الطبيعي الذي ينخرط فيه كل إنسان حيث تتفتح روحه على إيقاع هذه الحياة وتتكيف بالتطبع والتدرج مع شروطها وضوابطها وتعيش تجربتها العادية ما بين إحداثيتي الحياة والموت بتوفيق يتفاوت بتفاوت الناس وحظوظهم وكفاءاتهم...

لكن النورسي لم يختر الطريق الاعتيادي، كما أنه لم يجازف باتباع ذلك السبيل - الذي اختاره - عن هوى ومغامرة.. لقد كان ذا نفس متميزة، حملت كما أسلفنا همة لم يكن يسعها أن تهادن الواقع المحنط الذي كان يحيط بها من كل جانب، لذا كان حتما أن يسير على طريق الثورة، وأن يختار المواجهة الحاسمة، وأن يشن حربا إصلاحية شاءها أن تكون كونية، عدته اللوجيستيكية قاهرة أبدا في كل حرب دخلتها ضد الشيطان : القرآن العظيم.

ولم يتهيأ النورسي لخوض المعركة الحاسمة إلا بعد أن استكمل اليقين وعبأ مقدراته الروحية والنفسية ووجهها نحو الميدان وواجه بها الأعداء الماثلين والغائبين، لقد خاض منازلة لا مجال حيويا لها مفضلا، لأنها شاملة، إذ اختارت استراتيجية المستقبل، وراهنت على الإنسان المسلم الذي ستُشَرِّع خدمته للشريعة أبواب التمدن والسعادة في وجه العالمين، وعلى كل صقع في هذا الكون.

فالامتحان الذي بلاه النورسي بتفوق كان امتحانا مزدوجا، وقد جعله تفوقه الرائع الذي تحقق له على مدى قصير يحتل صدارة لا يحوزها إلا الأولياء.

بل إننا نجد أن حياة النورسي وهي تنداح به على مدارها القدري المرسوم قد انشطرت شطرين إذا أمكن القول، شطر الفتوة والشباب وهو مليء بالحيوية والتدفق والإسعادات، وشطر الرجولة والعجز وهو مفعم بالكآبة والإحباط والطعنات.

حقا لقد سلخ شطرا وافيا من حياته متقلبا بين المنافي والمعتقلات والحجر والمعاناة الصحية والمحاكمات. الأمر الذي لم يتح له أن يسعد بشيء من لذاذات الحياة، أدناها وأبسطها أن يكتنفه جو الأسرة ويحيطه دفء الحميمية.. لكنه سلخ شطرا كاملا من حياته محروما من الهناءة والقرار، الشطر الأجنح إلى السكينة وإلى الدفء وإلى احتضان العش الأهلي والقرابة الرحمية. فحظه من هذا الجانب يعد فاجعا حقا، ومن كان هذا حظه من الحياة، فلا جرم سيغادرها وفي أعماقه جوع لا يملؤه أي ضرب من أنواع التجمل مهما جهدت النفس في التعزي والتأسي.

لكن النورسي- كما نجزم - قد غادر هذه الوجود الدنيوي على أشد ما يكون سعادة وحبورا، لأنه ظل على يقين، ومنذ أن دشن مشروع الرسائل، بأن حياته قد كسبت حق الخلود.

" إذا مت، تزداد خدمة النور للقرآن والإيمان، وتتوضح وتتبين بإخلاص أتم، بلا حساد ولا اتهامات، فضلا عن النجاة من آلام التكلف الثقيلة المقيتة، والخلاص من

أثقال العجب وأضرار التصنع بدلا من ذوق جزئي موقت لا أتحراه -في هذا الزمان- ولذة ناشئة من رؤية فتوحات النور بنظر الدنيا" [5].

عراك النورسي تأتّى من حيث ضم جوانحه على روح أبيّة، إذ أن روحه تشبعت بمرصود أخلاقي وتمرسي قرآني تناغم مع الاستعدادات التي هيأها الله له، فكان لها من ذلك التناغم النفسي - النوراني، تلك الكفاحية التي ظل دائما ديدنها أن تواجه الظواهر وأن تجابه الأحوال.

إن الجبهة الأخرى التي ناضل عليها النورسي كانت جبهة النفس الأمارة، فكان عناؤه في إلجامها كبيرا، إذ كان شيطان الهوى لا يفتأ ينجم بقرنه فيكدر المهمة ويبلبل الإرادة، لكن النورسي المتسلح بسلاح القرآن كان لا يعتم أن يهزم الأهواء في ساحة النفس ويردها على أعقابها كسيرة . أسعفه على تحقيق ذلك النجاح قطعُه البتاتَّ للرجاءات الدنيوية واعتصام بالإيمان بالله خالص لا يقايض، وحب للإنسانية صميم غير مدخول.

---

5 الملاحق 294

2- النُوْرْسي مجدّد القرن

كان النورسي تجديديا على مستوى نظرته للزمن والمدنية والسياسة، فهو كان على وعي بأن المنازلة الحقيقية هي التي تراهن على القابل، لأن استرداد المكاسب المهدورة من المجد والمدنية لا يتحقق بالمناحة على ما فات أو بالبكاء على ما ينزل بنا من مآس، بل يتحقق إذا ما عقدنا العزم على إنجاز الرهان الانبعاثي وباشرنا العمل في إطار من الإيمان بالله والتوكل على أنفسنا وذكائنا وقدرتنا على استغلال إمكانيات العصر وما تتوفر عليه أوطاننا من طاقات لا تقدر.

كما أنه تجديدي في المنهج الترشيدي وفي المادة العلمية والمعرفية التي ينشرها والمرتكزة أصلا على القرآن العظيم، المصدر الرباني الذي ينبغي أن يضبط رؤيتنا البنائية، وهذا بتجاوز تلك المقاربات النمطية التي واظب على اعتمادها الأجداد .

لقد استهلكت تلك المقاربات مقدراتها التفتيقية وأضحى واجبا علينا تجديدها وإلا وقعنا في المحظور وألحقنا الإساءة الفادحة بالقرآن العظيم المتجدد مع الزمان والمكان.

ومما لا ريب فيه أن سبب التمسك بمنهج الأجداد التعليمي هو استحكام روح التقليد التي اكتسبت في خلدنا الجمعي قيمة قدسية وعربون مبرة ووفاء نحو تراث الأسلاف.. فالتقليد العقيم قد ترسخ عندنا بمبررات واهية تستجمعها عاطفة سطحية تريد أن تتخفف من احباطاتها الحضارية بادعاء السير على هدي السلف.. جهلا منا بأن السير على هدي السلف لا يقتضي أن نتقزم بعقولنا ومداركنا وطموحاتنا حيال ما أنجزوه لنا بعقولهم ومداركهم ومطامحهم. فالزعم بأننا بتكريس التقليد السلبي نسير على هدي الأسلاف هو افتئات عليهم وخيانة لهم وكذب صراح على الذات.. إذ شتان ما بين الهمة والهمة، وبين الحمية والحمية.

لقد جدد النورسي حين دعا إلى إعادة قراءة التراث ولكن ليس بعين أصحابه، وإنما بعين تمحيصية قرآنية .. إنها دعوة إلى الرسالة الشاملة التي رأيناه يمارسها حيال وعيه بالحضارة والتاريخ..

فالنورسي في هذا المضمار يريد ليس فقط تسديد التراث من خلال تقويمه على مسطرة القرآن، ولكنه يريد أن يصل إلى ما هو أعمق من ذلك، إلى التمرس وإعلاء نظرتنا لذلك المرصود العتيد الذي يعد جزءا منا، وبالتالي فإعلاؤنا له هو إعلاء لذاتيتنا، من خلال مراجعة وترشيد المعايير التي تشبث بها ضمير المسلم حينا، في

كنف اجتهاد ثبت حقا أنه كان في كثير من منجزاته اجتهادا دفاعيا، حاجيا، اضطراريا، تصونيا، أكثر منه اجتهادا تعميريا وتوسعيا وإنجازيا وكسبيا..

فالنورسي دعا إلى وجوب تطويع رؤية المسلم وجعلها رؤية مدنية تربط روح المسلم وعقله بالثابت من المقومات، ضمن صيرورة الأخذ بالمستجد من المكاسب الدنيوية وصقله بصقالة الثوابت، إي بالمعيار القرآني.

ومن جهة أخرى جدد النورسي في زحزحة الفكر الطرقي من حال الاستنامة والفناء في الغيب ودفعه إلى الإثابة والعودة إلى حال الوعي والواقعية والانخراط في الحياة المدنية .. فعن طريق ملازمة حلقات الذكر لا ينبغي أن تستنيم الجموع المسلمة لنشوة السكر الروحي لتخلي موقعها على المسرح الكوني، بل عن طريق لا إله إلا الله، يجب أن تتواصل الأرض بالسماء وتنفسح الآفاق في وجه الأمة المسلمة لكي تقود وتهدي العالمين إلى الأفضل وإلى التي هي أحسن.

كما جدد النورسي في مضمار السياسة، إذ أشهر قواعد سياسية قرآنية معارضة تماما للقواعد الميكيافيلية، فالميكيافيلية نفاق وتمحك ونفعية على حساب حقوق البشر، والنورية صدق ووضوح وسماحة وإنسانية، والمكيافيلية كذب ودجل مرتبط بمشروع حزبي أو طائفي مرحلي والنورية إخلاص ومداومة وتعميم للخير وكف للشر واعتراض عن الباطل. والمكيافيلية بهتان والنورية برهان..

إن تجديد النورسي في مضمار السياسة جعله يستفظع السياسة الشيطانية ويخلص نهائيا للسياسة الأحمدية فمثلما كانت الدعوة المحمدية توحيدا يحمل قابلياته التنظيمية والتأطيرية في ذاته، جاءت (رسائل النور) تعاليم توحيدية قرآنية تنعكس على الأرواح والسلوكات انعكاسا بنّاء يجعل الفرد إنسانا فاضلا وعلى قابلية تجهيزية تمكنه من أن يبني مدنية الحق على قواعد الحق.

3- النُّوْرْسي تجنيدي

أجندته تقوم على توقيت الشريعة، فالشريعة ضبطت للمسلم تعبئة روحية قوامها خمس صلوات في اليوم، موعزة بذلك للمسلم أن يظل على روح تجنيدية لا تفتر، لأنه يعيش مواجهة استنفارية مع شروط اجتماعية وحضارية تقتضي من الأفراد والجماعات تجندا تاما من أجل بناء الكيان المستحكم وإرساء القاعدة الحضارية المكينة.. فلا فائض من وقت لدى المسلم الحق - في هذا الزمن بالخصوص - قابل للهدر والاستهلاك في غير البناء والتعمير..

من هناك همش النورسي عملا وقولا أوجه الملهيات مهما تقنعت بالصبغة الثقافية. فمشاغل مثل الرياضة كلهو - وليس كطاقة بناء - والقراءة المزجية للوقت أو التي تتحول إلى إدمان غير ذي مردودية فكرية وروحية ملموسة، وما شابهها من أوجه الترفيه المجاني الأخرى ينبذها النورسي ويعتبرها ضربا من اللغو ..

بل يرى أن إثمها أكبر من نفعها لما فيها من أسباب تفويت العبادة وتشويش الروح وتطبيع العلاقة مع السفه واللغو العقيم وتعويد النفس على الانسياق في النزاغة..

" إعلم أن هذه المدنية السفيهة المصيّرة للأرض كبلدة واحدة يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم وما لا يعني، بالجرائد صباحا ومساء، غلظ بسببها وتكاثف بملاهيها حجاب الغفلة، بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة، وكذلك فتحت لروح البشر منافذ غير محدودة ونظارة إلى الدنيا يتعذر سدها إلا لمن خصه الله بلطفه"[6].

فقراءة الجريدة – مثلا - شرط مدني إخباري لكنه يقتضي من الإنسان وقتا يقتطعه من يومه لكي يطلع عن فحواها. ومن الطبيعي أن هذا الوقت لا يسمح به واقع التجنيد الذي يتبعه المسلم في حياته والذي من أسسه تقديم الأهم على المهم.

ثم إن وسائط الإخبار باتت مشوبة بما تتضمنه من مواد تتناول حوادث السقوط الأخلاقي والتحلل والجرائم والخيانات، ولما كان أمر تغطيتها للحوادث إشهاري بطبيعته، فإن ذلك يجعل المجتمع يتكيف حتما مع تلك الإختلالات الأخلاقية، الأمر الذي يكرس التطبيع لها حين تغدو حوادث تمثل أمامنا يوميا على أدهش ما تكون غرابة وإيغالا في الوحشية والفساد، إلى درجة أننا نجد أنفسنا تقبل على قراءتها بنوع من الفضول بل والترقب على نحو ما تشدنا الأفلام السينمائية..

---

6 المثنوي العربي النوري 226

فروح تسديد الجهد وترشيد النفقة في المعطى التوقيتي لا يسمح للمسلم بأن يصرف أي شطر من زمنيته في ما لا يعد فرضا وواجبا.. فما فضل من وقت في العمل والتحصيل والتطوير، ينبغي أن يصرف في العبادة المحضة كالصلاة والصيام - وكل عمل في الإسلام عبادة - إذ العبادة هي أفضل وسيلة لتجديد الوعي ورسكلة الروح وترقية المدارك، من هنا يستغني المسلم عن تعاطي النشاط الترفيهي المادي المتماس مع الدنس والتحلل واللا تقوى..

بل إن جل تلك الأنماط والأنشطة الترفيهية كما صاغتها مدنية الغرب، لم تكن في طبيعتها إلا فُسَحًا تجميمية تحرك منازع النفس وتثير كدورتها الشهوية في مجتمع بات يعاني من الإشباع المنحرف، واقتضاه ذلك بأن يتفنن في ألوان التشهية، لذا صعد من شططه التحللي في شتى المجالات، ومنها ميدان الرياضة والنشاط الترفيهي، إذ أن تلك الأنشطة قد أنيطت - غاية وطبيعة - بإثارة الأهواء والنزوات..

لقد رأينا كيف أن النورسي بادر إلى الدعوة إلى تحصين وسائل الإعلام - ومنها الراديو - ضد جنوحها الإفسادي الذي لمسه لها، حينما رآها ماضية في طريق تهييج العواطف وإشاعة الغواية.

بل لقد وجدناه يدعو إلى ضبط سياسة ثقافية مرشدة تقوم على إلزام الكتاب والأدباء بمسؤولية ما يكتبون: " يا أصحاب الصحف، على الأدباء أن يلتزموا بالآداب، وعليهم أن يتأدبوا بالآداب اللائقة بالإسلام، فينبغي أن تكون أقوالهم صادرة من صدور لا تحيد لجهة، ومن عموم الناس، فيشترك معهم عموم الأمة".

بل لقد دعا إلى رسم مسطرة يناط بها نشاط الطبع والنشر الموجه إلى المجتمع.

" يجب تنظيم برنامج المطبوعات بما في وجدانكم من شعور ديني ونية خالصة "[7].

ثم يبين الزلل الذي وقع المسؤولون فيه عندما أقاموا سياستهم الثقافية انطلاقا من قياس مدمر، إذ قاسوا الريف على المدينة، وقاسوا المدينة على ما يروج في الغرب: " لقد أوقعتم الرأي العام والأفكار السائدة في مستنقع آسن بقياسكم الريف باستانبول، وبقياس استانبول بأوروبا"[8].

لقد كانت الأخلاق تتردى بتردي وسائل الترفيه ووسائط التوصيل في وحل السفه والمجونية.

7 سيرة ذاتية 100

8 سيرة ذاتية 101

بل لقد غدت تلك الوسائط تمارس فعلا تأثيريا استبداليا خطيرا بنفاذها إلى مواجد المتلقين لا سيما الناشئة والنساء والقطاعات الواسعة من الجمهور فتستهويهم وتستلبهم وتضحى عندهم بمثابة العبادة التي لا تفوَّت والواجب الذي لا يترك .. لقد تحولت المقابلات الرياضية الأسبوعية مثلا، إلى مناسبة جمهورية مشهودة تمارس الفعل التهييجي على روادها. ونفس الأمر يقال عن المسلسلات.. وليت هذه المسلسلات تطعمت بمستوى من التذكير الروحي، الإيقاظي، وتوجهت في إطار حدثي لا يكرس الغفلة عن الدين.

لقد أهاب النورسي بالإنسان أن لا يقع في تبعة اللهو المجاني، وأن يصون نفسه عن أذى اللغو وغيره من المشاغل الاسترواحية الخادعة والتي تنطوي على كل ما يقتل في الروح قبسها ويُطفئ فيها حيويتها ويُخْمِدُ جذوتَها.. إن المشاغل الترفيهية إذا ما استدامها الإنسان فستتحول إلى إدمان يورث السفه والحمق والبلادة ويقزم الرؤية ويحصرها في زاوية استيلاب محددة، إذ تغدو اللعبة هي مدار حياة الإنسان ومشاعره، تنسيه نفسه وواجباته وتقطع أواصره مع آفاق أوسع وأوطار أرحب خُلِقَ الإنسان ليلمسها ويعرفها ويكرس إرادته فيها، لا أن يتعلق بنطاق من اللهو العقيم.

لقد قدر النورسي مخاطر اللهو ونظر إليها في صورتها التي كانت تمارس بها في الأزمنة القديمة، وكذلك قدر مخاطرها المستشرية على نحو ما نشهده اليوم، إذ شملت الجرائد الماجنة والرياضات الفاضحة والفنون السمعية البصرية المستغوية. وها هو يبين الفروق الحاسمة بين الانشغال بالملاهي المدجنة للإنسان والاشتغال ببدائل روحية تحيي النفس وتذكي العقل والبصيرة:

" اسع أيها الإنسان أن لا تشتغل بلهو لا معنى له وبلعب لا طائل من ورائه، كالانشغال بالحاكي والحَمَام والببغاء، بل اسع في طلب لهو من ألطف اللهو وأزكاه، وتسلى بتسلية هي من ألذ أنواع التسلية.. فاجعل الجبال كالحاكي لأذكارك كما هي لسيدنا داود عليه السلام، وشنف سمعك بنغمات ذكر وتسبيح الأشجار والنباتات التي تخرج أصواتا رقيقة عذبة بمجرد مس النسيم لها وكأنها أوتار آلات صوتية.

فبهذا الذكر العلوي تُظهر الجبال لك ألوفا من الألسنة الذاكرة والمسبحة وتبرز أمامك في ماهية عجيبة من أعاجيب المخلوقات. وعندئذ تتزيا معظم الطيور - كأنها هدهد سليمان - بلباس الصديق الحميم والأنيس الودود، فتصبح خداما مطيعين لك، فتسليك أيما تسلية وتلهيك لهوا بريئا لا شائبة فيه، فضلا عن أن هذا الذكر السامي يسوقك إلى انبساط قابليات ومواهب كانت مغمورة في ماهيتك، فتحول بينك وبين

السقوط من ماهية الإنسان السامية ومقامه الرفيع، فلا تجذبك بعد أضراب اللهو التي لا مغزى لها إلى حضيض الهاوية "[9].

فإذا كان المنهج التعليمي النوري قد بنى فلسفته التعليمية على تثمير رشيد للزمن والقصد في استغلال سيولة الوقت، وهذا بالتركيز على المصادر التعليمية الأم، الكتاب والسنة، ربحا للوقت، وتحصينا للروح بإسمنت السماء الذي لا يبلى، فكيف يتسامح هذا المنهج مع الرؤية اللاهية التي تهدر الجهد وتعرض النفس والروح للامتهان والابتذال ومواجهة عناء الآثام، وهي ببرنامجها الرباني في غنى عن الدخول في الابتلاءات بمحض إرادتها..

ولا عجب أن نجد النورسي نفسه - وانسياقا مع رؤيته التجنيدية هذه - يتخلى عن مشاغل فكرية وروحية كان يزاولها في بعض مراحل حياته، مثل حساب الأبجد والجفر. فقد كفّ النورسي عن ممارسة هذا الجهد، لما رأى فيه من تعطيل وإعاقة للعقل والروح حيال أولويات استنباطية أخرى أكثر لصوقا بالواقع وأكثر ارتباطا بشؤون المسلمين الدنيوية والأخروية..[10]

فإضراب النورسي عن تعاطي هذا اللون المعرفي الذي كان يعد علما عتيدا في منظومة علومنا الإسلامية، إنما يندرج ضمن رؤية التحصيف المعرفي التي رتب بها النورسي برنامجه الروحي والمعرفي في تلك المرحلة الحاسمة من حياة تجدده، والتي شملت الكف عن قراءة الجريدة وعن ارتياد الأماكن العمومية وعن ملاحقة أصداء الحوادث التي لا تدخل ضمن بؤرة الهم الإسلامي في نضاله ضد التخلف والميوعة..

وهكذا وجدنا النورسي في مواطن متعددة من رسائله يكرر التحذير من مغبة الانسياق وراء الملهيات الإعلامية والعمومية التي كان يرى خطورتها تشتد على النفوس بحيث لا تلبث أن تتحول عندهم إلى ما يشبه (الكيف) يسلب ويورط في آفة الإدمان.

لقد قدر النورسي حاجة الإنسان إلى الاستجمام، لكنه ضبط تلك الحاجة بمقدار تنشيطي لا يقعد بالنفس عن واجباتها ومسؤولياتها:

" فكما أن الإنسان محتاج للاستماع إلى الحقائق فهو محتاج أيضا إلى شيء من اللهو والترفيه، ولكن يجب أن تكون حصة هذا الترفيه المفرح الخمس مما ينقله الأثير، وبخلافه تقع منافاة لسر حكمة الأثير ، حيث يؤدي إلى دفع الإنسان إلى

---

9 الكلمات288.

10 انظر اللمعات 57

أحضان الكسل وحب الراحة والخمول والسفه، ويسوقه إلى عدم إتمامه وظائف ضرورية له وتركها ناقصة غير كاملة، وعندها ينقلب ما كان نعمة عظمى إلى نقمة عظمى بما يثبط من شوق الإنسان نحو العمل الضروري له"[11].

11 الملاحق 350

4- الثكنة والجند..
وواقع الإرتهان الحضاري

مما لا شك فيه أن النورسي قد علق كبير الآمال على قطاع العسكرية في إسناد الأمة والانعطاف بها نحو السبيل السوي والنهضة الحضارية التي تعطلت أسبابها بفعل ليل الانحطاط المديد..

ولا بدع أن يولي النورسي كل ذلك الوثوق للمؤسسة العسكرية في بلاده خلال تلك المرحلة العاجة بالمخاضات والمفعمة بالاحتمالات، فقد كان النورسي ذا طبع عسكري تجندي ثابت ..

بل أكاد أقول إن عرف العزوبة الذي كانت العسكرية العثمانية تتبعه في نظامها العسكري الانكشاري[12] في بعض الولايات على الأقل، قد يكون له تأثيره الكبير أو القليل في تكريس تلك الروح المتخففة من التبعات التي نجدها تلازم قطاعا من الشباب وتمتد بهم إلى وقت متأخر من العمر، وأحيانا تلازمهم إلى نهاية العمر، فلا يتأهلون بالزوجة ولا يؤسسون الأسرة..

وقد عاش النورسي أعزب كما عرفنا، وأكثر من ذلك عاش متجندا، من خلال حركة تنقلاته التي لم تعرف الاستقرار إلا حين أودع الأسر والإقامة الإجبارية..

فروح النورسي روح عسكرية بجبلتها، وهو ما تكشف عنه محبته الشديدة للنظام والانضباط وأخذه بمبدإ الصرامة في الحياة وبالدقة الكبيرة في استغلال الوقت .. بل لقد ظلت جبلته العسكرية تعرب عن نفسها من خلال التجسيدات المجازية والاستعارية التي كانت تتقمصها نصوصه وتعابيره وخطبه.. فأدبية النورسي كانت تستمد مادتها - كما سنرى لاحقا - من وجدان يعتد بالنظام، ومن مشاعر متفتحة على الانضباط، ومن عاطفة ترى في الجندية خير إطار تأهيبي يتيح للإرادات المتعددة أن تتظافر وتنصهر في إرادة واحدة قوية وخارقة..

لقد أحب النورسي القوة، ورأى مجال تحققها يتم على صعيد الجماعة المنظمة، وكانت الجندية هي الصعيد الذي كان يجد فيه مبتغاه النفسي ماثلا: القوة والنظام والدقة وتحدي الصعاب وقهر الضعف..

---

12 كما كان عليه الحال في الجزائر يوم أن كانت إيالة عثمانية، فقد كانت جنديتها الانكشارية تتبع بصرامة نظام العزوبة.

عاش النورسي جنديا من غير أن ينخرط في المؤسسة العسكرية بمعناها الوضعي والرسمي، فقد نزعت به حميته البطولية إلى أن يتخذ صفه حين كان يدرس في بعض أكوار الجهات الشرقية، مرفقا للتدريب الحربي والتمرس بالقتالية، إذ حول طلابه إلى جنود وفدائيين مسلحين ومتأهبين لخوض غمار المعركة ضد العدو الملي، فلما اجتاح العدوان بلاده، كانت فرقته الطلابية في طليعة المتصدين، وكان الضحايا منهم يتكاثرون، وقد رجحت بسالتهم الفذة الكفة حينا، وأعاقت حركة العدو حينا آخر، وحمت الانسحاب حينا ثالثا، لتجد ما تبقى من عناصرها في النهاية، وعلى رأسهم النورسي، يواجهون بصدورهم الموت ويقعون في قبضة العدو نازفين..

لم يكن النورسي ليأتي هذا كله لو أنه كان مجرد مثقف نزاع إلى السكينة، جانح إلى العافية المادية ولو على حساب الذمة والأنفة كما هو السائد في أوساط من المثقفين. لقد حارب النورسي لأنه كان يحمل روحية جبلت على الحمية ورد الضيم وصون الشرف..

وعاش النورسي مراحل ما بعد الحرب مرابطا في ساحة السياسة، شاهرا سيفه، يقوِّمُ المواقف ويرسي رؤيته النظامية ويستجيش الصفوف، ويستبين مواقع النبو في الفكر والعمل والتخطيط، وحين وثق من ثبوت الخيانة، استكمل طريقه على خطاه التجندية التي لم يتخل عنها يوما..

لقد كانت عقود حبسه المرحلة التي تحول فيها، ليس فقط إلى جندي مرابط يقضي وقته على مستشرف من الأرض يراقب ويتشوف حركة العدو ويستنبط من الوسائل ما يحميه من الوقوع في قبضتها .

كلا، لقد تحول إلى قائد عام للأمة يصاول عليها في ميدان اعتراكي حقيقي، ويخوض معها نضالا مريرا، غير متكافئ القوى، حامي الوطيس. لقد مكنت النورسي روحه التجندية من أن يصمد في وجه القهر الأعمى وأن يخترق السدود المقامة بينه وبين الأمة، وأن يفتح سجل الاكتتاب القدسي للأطهار، وأن يجند الفيالق المجاهدة، وأن يصقلها بتعاليم لم يكن القصد منها قط، فك الحصار والظفر بإمكانية الخروج من الطوق والانسحاب بسلامة الجسد..

كلا لقد كان من غايات ذلك التجنيد الجماهيري الباهر ايجاد الشروط الكافية والمكينة لدحض قوى البغي بصورة نهائية، وعلى مدى لا أهمية لحجم تضحياته ما دام النصر سيكون حليفه. لقد شق الطريق لبناء المدنية القرآنية التي ستنضبط في كنفها عقارب زمنية الهدى كما شاء لها رب العالمين أن تكون.

قيَّمَ النورسي المسيرة، وسجل العبرة، وأدرك أن قطاع العسكرية الذي راهن عليه قد أفلح في تأدية واجبه الدفاعي عن حمى الوطن وصون شرف الأمة، واعتبر النورسي ذلك تصديقا لتقديراته الإيجابية السابقة عن الجند العثماني، لكن النورسي سجل - من جهة ثانية - وبمرارة وتفجع، المآل المؤسف الذي آلت إليه المؤسسة العسكرية حين انساقت لأهواء الاستيلابيين والمتغربين، أولئك المدسوسين الذين لا شرف لهم ولا شأن في سجل التاريخ، إلا التردي والانبخاس والاسترخاس، إذ انقلبوا على أعقابهم وتحولوا بالجندية إلى أداة طيعة مدجنة يركبها الممسوخون من ربائب الاستعمار ويمررون بها ومن خلالها قيم التحلل والتفسخ والتهتك، مستنسخينها عن الغرب العدو، ناسخين بها مدنية القرآن الوهاجة، تلك التي ما كان لمدنية أخرى أن تنافسها لولا نكوص عن الحق وابتعاد عن التعاليم..

لكن لماذا كان النورسي يولي كل ذلك الشأن للجندية ؟

من غير شك أن الجندية كانت تمثل أمامه القوة المؤهلة للانبعاث، فقوامها شباب الأمة، وروحيتها الفتوة والنظام والنهوض، إذ الأمة كانت مثقلة بسبات الدهور المظلمة، وكانت نفسية النورسي تمور بمُثُل الانبعاث، فقد تناغمت أصداء لصيحات انبعثت هنا وهناك توقظ الأمة، لكن السدور كان مطبقا .

ثم إن النورسي رأى من جهة أخرى حماسة الاستقلاليين تحدث تجديدا كانت شعاراته توافق أحلام الانبعاث لديه، الأمر الذي جعله يطمئن في الانبعاثة. لكن الخيبة والصدمة الكبرى جاءته من حيث وثق .

فالعسكرية التي انتزعت الاستقلال هي ذاتها التي راحت تدوس قيم الاستقلال وتتنكر للحريات وتكفر بالمثل التي كانت تدين بها الأمة..

لقد انقلبت السجايا في ظرف قصير، وكانت الردة وكان الارتكاس.. وكل ذلك لأن الأداة التي كانت مهيأة - بالفعل - للتغير البناء، قد أديرت لتحدث التغيير الهدمي، وهو ما سبب كل ذلك الدمار الذي عصف بمعالم الحضارة جملة وتفصيلا في البلاد، وزج بها في غياهب الكفر والردة لولا لطف من الله وجهد الأصفياء وفي طليعتهم الولي الصالح النورسي.

ترى هل الجهاز العسكري العثماني انقلب فجأة لمجرد أن رد العدوان الخارجي إلى عدو للمثل والحضارة والدين؟

ليس من المقبول ولا من المعقول أن يقع التغيير الجذري في قطاع منظم كقطاع الجندية لو لم تكن جهة التنفذ والتوجيه مهيأة لذلك مسبقا ومبرمجة لتنفيذ التحول ..

لقد ظلت الجندية على مر العصور والأطوار هي واسطة التغييرات الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية، فالأمَم والشعوب محكومة أبدا بعسكريتها.. وكل انعطاف أيجابي أو سلبي يطرأ على مسيرتها إنما تقف وراءه مباشرة أو غير مباشرة القوى العسكرية، القوى البكماء كما تُعْرَفُ.

ذلك لأنها هي القطاع الوحيد الذي يتوفر على خصوصية التنظيم العضوي والانضباط الآلي، فالوحدات في انتشارها عبر مراكزها وبمختلف تركيباتها إنما تخضع لأمر واحد، وتنفذه بغاية الانصياع حتى لكأنها يد واحدة تضطلع بالتنفيذ والاستجابة.. على عكس حال قطاعات المجتمع وشرائحه المدنية، فهي وإن تجانست في وظايفها وفي أوضاعها ومقاصدها، فإنها لا تتوفر على شرط الحركة الآلية التي يكفلها النظام العام الرابط بين المجاميع..

ولما كانت أمتنا مستهدفة جراء حملها لعقيدة من أخص خصائصها أنها عقيدة تكفل الحياة لمن أخذ بها شريعة حتى ولو كان ذلك الأخذ شكليا، لأصالة جوهرها ونفاذه في الأعماق وسوقه للإرادة في اتجاه السلامة .

فقد ظلت العقيدة الإسلامية مرمى لغارة المدنيات الأرضية وخاصة منها الكتابية المحرفة والتي نظرت إلى الملية الإسلامية - على مر العصور- نظرة الحقد والحسد والخوف...

وكديدن الأعداء معنا دائما فقد عملت الدوائر الصهيونية على أن تدس لنا في أهم قطاعاتنا حيوية وأشدها فاعلية بيادقها وخميرة كيدها، إذ سربت في العسكرية العثمانية عناصر الشر التي يتسنى للعدو أن يضرب بها ومن خلالها كل مطمح نهوضي للأمة وأن يجهز عليه في الحال..

ولما كان كيد العدو شيطانيا وكبيرا، فقد نفذ مخططه ضمن سياسة وضع البدائل، إذ أن العدو هو من الفطانة والدهاء، بحيث لا يأتي مقاصده عيانا وعلى القارعة، ولكنه يتوسل إليها بالمهارة التنفيذية بحيث يمررها ويضحك بها على الأذقان ولا تتفطن لها الأمة المستهدفة إلا بعد أن يكون المخطط قد أتى على ما أتى من المقومات..

لقد ركب العدو المتربص بالعثمانية موجة الحماس، واستطاع أن يجرف معه الضمائر الصادقة والعقول المحتسبة، والعبرة هنا بما وقع للنورسي في شأو تلك الانعطافة التي كانت تباشيرها وضاءة، فالعدو لا يضع أوراقه على بساط المعارضة المعلنة، ولا يبدي مواجهة لحماسة وحبور الأمة، ولكنه يندس ويشرع في تنفيذ

برنامجه الكيدي، مرحلة مرحلة، لذلك سنجده في أول الأشواط يرفع ويعلي من شعارات الأمة على أروع ما يكون الرفع والإعلاء..

ثم ما أن تأنس له القلوب وتطمئن له الصدور، حتى يشرع في الحيد عن الجادة، لكن بتسويغات موصولة كلها بالمبادئ، فهو يشرع في تحليل الحرام ضمن ما يصطنع من أجواء تجعل الأمر ضرورة ظرفية وعابرة، ثم يسترسل في تمضية أوراقه، وفي كل مرة وحين يسوغ لها توجهه المنحرف بما يحول دون حدوث الصدمة ورد الفعل السلبي، حتى إذا ما أحكم القبضة على العنق، وامتلك القطاعات التي استلبتها دعايته وألجمتها أياديه السوداء، جاهر بحقيقته، وكشف عنها، وزين مُثلها، وأحلها محل مُثل أصيلة كانت الأمة قد انطلقت أصلا لتبعثها وتستردها، لكن اللعبة الماهرة للعدو قد لبَّست عليها بالكيد والتضليل والقسر والإكراه، فجعلتها تنسلخ بإرادة أو بغير إرادة عن روحيتها لتعتقد مثلا اجتهادية أخرى وعقيدة وضعية بديلة ..

إن هذه الحال التنويمية قد ظل الاستعمار الغربي يسلكها ويتابع تنفيذها ضدنا في سائر الأقطار والبلاد التي احتلها واستولى عليها مباشرة أو غير مباشرة..

فسياساته مع بلداننا الإسلامية كانت سياسة التفرقة، تيسيرا لشرط الغلبة والامتلاك..ثم تنوعت أساليب تَحَكُّمِهِ فينا، إما عن طريق الحماية أو بالاحتلال المباشر.. وفي كلتا الحالين كانت أدواته المتنفذة هي قوى الاستيلاب والردة والخيانة..

لقد تحدث النورسي عما يتحلى به "السفياني" [13] من ذكاء خارق ومن قدرة على تعبئة الفطنة والعقل النفعي والبصيرة المحكومة بالمقاصد الفئوية ..

بل لقد قرر النورسي أن الظهور العقلي والدهائي الذي يتميز به السفياني أمر ثابت، لكنه ظهور مصروف في طريق التخبيط الشيطاني .. طريق الانحراف، تعززه نوازع الشر الكامنة في الإنسان والمتأهبة للتألق في مضامير الفساد والتهتك والدناءة ما أن تنطلق تلك النوازع من عقال الفضيلة. وأي فضيلة هناك؟

ذلك لأن الغرب الرقيب عن أوضاعنا لا يمَكِّنُ من يمكنهم من أبناء الأمة إلا على حساب ووفق معايير، ومن أبرز معاييره أن يكون المختار في الجوقة شيطان الروح والعقل والطبيعة. متهيئا للفساد، مضربا عن التوبة، أعمى أصم أبكم لا تنفذ إليه التذكرة ولا يمس قلبه وعظ ولا تطال عاطفته نسمة تحسيس.. إذ لابد أن يكون من النوع الذي تتناغم مكونات نفسيته ومزاجه وضميره مع ما تترسخ به طبيعة البغي والاستبداد..

---

13 وردت أحاديث كثيرة بحق دجال المسلمين الموصوف بالسفياني، أوردها المترجم في ص387 من الكلمات.

والحق أن هذا الرهط يتميز بقابلية عجيبة للحياة والصمود والاحتمال، وبقدرة على البقاء والتكيف مع كل المناخات، ثم إن الغرب حين يستزرعهم، فإنما يستزرعهم ضمن نطاق سجالات حرب الاستخبار والجوسسة، إذ أن الجهد قد بذل في الكشف عنهم وفي تمييزهم عبر النسيج الجماهيري العام..

وتتصاقب الجهود شأن الفيروسات وهي تهاجم الخلية الحية، تكثف الهجمات عليها من كل جانب إلى أن تنهار فيسترسل الفعل الهجومي إلى غيرها، كل ذلك ضمن جو من الإنعاش تتحكم فيه الأجهزة الصناعية المبثوثة خارج جسم المصاب أو المحيطة به والموصولة معه بشتى الوسائط.. ويسند للبيادق - عادة - من الأدوار ما يكون تأثيره توجيهيا وغير مباشر، حتى إذا ما اكتملت شروط الإنضاج التي يتطلبها المخطط، دفع بهم في الموقع الاجهازي، وما أكثر ما صفقت الجماهير لدمى خبيثة ولخيانات مقيتة ولسفيانيين مكرة..

5- الديمقراطية

استوعب النورسي معنى السياسة من خلال مستويين إدراكيين أثرا في نفسه وصاغا مواقفه ورؤيته السياسية التي جسدتها رسائله.

فمن جهة كان تمرسه الكفاحي واندماجه في الحياة القومية والملية قبل الحرب الأولى وأثناءها وبُعَيْدَها، تجربة كافية لتبصيره بحقيقة السياسة كما رآها تمارس على أيدي دوائر الحكم والسلطة، خاصة بعد أن جنحت الأهواء بتلك الدوائر فراحت تطابق بين أحوالها وأحوال مستجلبة من الغرب.

ومن جهة ثانية كان انغماسه الروحي والقلبي في قدسية القرآن باعثا حاسما له لكي يستنبط رؤية استنقاذية حياتية يسوس بها أحوال الأمة ويقودها على طريق الانبعاث..

من هنا كانت معارضته الجذرية للسياسة بنمطها الوضعي المؤسساتي والكواليسي.

لم يكن النورسي آحادي النظرة، ولا كان استبداديا توجيهيا بالمعنى الشمولي (التوتاليتاري) ولكنه كان جماعيا من درجة الامتياز (ديمقراطيا بجدارة) يؤمن بالرأي والرأي الآخر، ويقول بالمخالفة، تلك المخالفة المنوطة بشرط الانسجام في الأسس وفي المقاصد البنائية، وليست مخالفة الشقاق والنفاق.

فلا أجدر بمن شاء أن يكون خادما للأمة ومنافحا عن حقها الديمقراطي، أن يكون متوافقا معها في الروحية والوجدان والأصالة..

إذ أن عليه أن يشاركها في إيمانها وروحيتها أولا حتى يتيسر بعد ذلك للأمة سبيل اتباعه والوثوق فيه على المطالب الدنيوية، لا أن يتعالى عليها ويعمل على جرجرتها إلى أرضية الكفر والإلحاد التي يقف عليها.

لقد آمن النورسي بالاختلاف متى كان ذلك الاختلاف مؤطرا بالإيمان.

ولقد وجدناه يشرح نص الحديث الشريف: (اختلاف أمتي رحمة). بما يتلاءم تمام الملاءمة مع روح الديمقراطية البناءة .

يقول: " إن الاختلاف الوارد في الحديث هو الاختلاف الإيجابي البناء المثبت، ومعناه أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا. أما الاختلاف

السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلا في نظر الحديث،حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء"[14].

فالسبيل التداولي والتكاملي الذي تهدف إليه الديمقراطية الجماعية من حيث تقديم الأصوب وتقويم المعوج ضمن رؤية تشاور وتنافس على الخير، سبيل لا يتناقض في جوهر ما دعا إليه النورسي في رسائله، لأن روح الجماعة من صلب الدين الإسلامي ومن وصاياه..

لقد توفر للأمة من خلال تعاليم القرآن الشوروية ووصايا الرسول التوجيهية القاعدة التي يمكن للأمة أن تقيم عليها نظام حكم تعددي، ليس بالضرورة على الغرار الغربي وإنما له خصوصياته المرتبطة بمحليته وأصالته ..

بل لقد كان النورسي يرى في سن الدساتير المنقولة عن الغرب وما يشوبها من روح علمانية تتجاوز الدين، وفي مساعي تنظيم المجتمع على النمط المدني الغربي، إنما هو رجعية وعودة بالأمة إلى عهود البداوة والجهل، لما يرى في ذلك من إهدار لمثل ومكاسب توارثتها الأمة عن عهود حضارتها، رغم انحطاطها المرحلي..

" إن الذين يشنون هجومهم على الدين، يريدون أن يرجعوا بالبشرية إلى عهود البداوة والجهل بقانون أساس ودستور جار لديهم مستترين باسم المدنية، والذي يفني سعادة البشرية وراحتها وعدالتها وسلامتها "[15].

لقد كان يتبين القصد التفكيكي الذي يرمي إليه أولئك الاستنساخيون، وهو تحقيق المطامح الشخصية والأطماع الفيئوية وإشباع النزوات . " فهم يريدون - كما يضيف - أن ينفذوا هذا القانون في بلادنا المنكوبة، فيزرعون بذور الشقاق والاختلاف وبلبلة الأفكار بالتحزب وصولا إلى مآرب شخصية وإشباعا للحرص والعناد " [16].

---

14 المكتوبات 423
15 الملاحق 373
16 الملاحق373

هل فكر النورسي ديموقراطي ؟

هو شوروي بلا منازع، جمهوري بالجبلة والمنطق، إذ ما فتئ يؤكد للأتباع أن الانجازات النوعية البناءة والمغيّرة من حال الأمة إلى الأحسن لا يأتيها إلا الجمع ولا تتحقق إلا للجماعة، فالعصى الواحدة لا تصمد أمام الضغوط، فيما العصي المجتمعة تتأبى عن الانكسار ولا يجدي معها بذل الجهد إلا مضاعفا .

لقد كان يرى في سيرة الصحابة مثال الشورى، وكان يرى في حكم الخلفاء الراشدين حكما ديمقراطيا بناءً لم تنهدر معه الحقوق الفردية ولا الجماعية.

ومما لا شك فيه أن طبيعة القوامة التي تُميز شخصية النورسي والتي كانت تنعكس في وضع التعالي ونكران الذات الذي تحلى به، قد جعله ينفر من الاستبداد ومن الحكم الفردي الذي فتح عينيه عليه في كنف الخلافة العثمانية التي كانت عوامل كثيرة تعيقها عن الانبعاث.

لقد كان يرى أن العصر الراهن يقتضي تجديد الآليات التي تتحكم في المجتمعات الإسلامية وتطويرها، لتتجاوز طابعها الفردي، فتضحى مؤساسات وهيئات ومجالس شورى.

يشمل هذا التحول المجال السياسي، من خلال ضرورة تماهي الرموز الفردية في هيئات تمثيلية جماعية، سواء في الحقل السياسي أو الشرعي، إذ الفتوى في عصر تعقدت أوضاعه وتشابكت مصالحه وشملتها حركة تطورية متصاعدة، لم تعد تستساغ من مجتهد فرد، بل الأصوب للأمة أن يتمرس بالفتوى لها مجلس أو هيئة تتظافر فيها أنظار وأفكار الجماعة، لتنقدح شرارة الحق والسداد على ذلك النحو. أما أن تظل منوطة بشخص المفتي الرسمي، فذاك أمر لا يستجيب لمظاهر التطور ولا لطبيعة النوازل والاشكالات الشرعية المستجدة نفسها.

حتى الأموات يشتركون في أمر الشورى
من خلال تواصلهم مع الأحياء بواسطة نصوصهم وتراثهم

والشورى في نظر النورسي دينامية استشارية عمودية وأفقية على سواء، يشارك فيها ليس الأحياء وحدهم، ولكن حتى الأموات، وهذا من خلال مراجعة أفكارهم ومدوناتهم وتسديداتهم، إذ التراث وأصحابه يُستحضَرون في الفتوى وفي التقويم والتشريع والتخطيط، وبالتالي في الاجتهاد، إذ لا يصح ولا يتماسك رأي شرعي أو مدني يتقرر للمجتمع إلا إذا استوعبته نظرة أحاطت بموضوعها إحاطة لا تغفل جانبا

مـن جوانـب الإنـارة والتحـصيف، وبـذلك يغـدو حـضور التـراث وأهلـه واقعـا ثابتـا وملموسا في الحدث الاجتهادي، وهو ما يجعل دائرة الشورى تتسع للماضـي، وهيئتهـا تضم رجال السلف.

حقوق الأقلية مكفولة ضمن منظور السهر على المصلحة العامة

مـن الطبيعـي أن تـدار سياسـة المجتمـع المسلم فـي ضـوء مراعـاة مـصلحة الغالبيـة القصوى، إذ بالغالبية تناط المصلحة العامـة. كمـا أن مراعـاة مصلحة الغالبيـة لا يكـون قط على حساب مصالح الأقليـات، بغض النظـر عمـا تنتحلـه هـذه الأقليـات مـن مـذاهب وأفكـار ومعتقدات، مـا التزمـت بالقاعدة التساكنية التـي سنها الإسلام واطـردت معهـا الأعراف الاجتماعية، وهي أن حريتك تنهي حيث تبدأ حرية الآخرين .

ولما كانت حرية الآخرين رهينة بصيانة العرف واحترام المتوارث والمرعـي مـن القيم العامة، فلا جرم كانت المصلحة العامـة تـرجح خُلُقَ وسلوك الأغلبيـة، إذ لا يعقل أن تمس الأقليـة أو تـستهتر بقاعدة مرعيـة مـن قبـل الأغلبيـة، فالحـال عندئذ هـو خـرق للعـرف، ودوس للأخـلاق العامـة. مقابـل هـذا يكـون مـن غيـر العـدل أن تنتهك الغالبيـة حقوق الأقليـة أو تُعْنِتَهـا أو تجحف بهـا وبمصالحها، إذ لا تـضارب بـين مـصالح الـدنيا وإن تعددت النزعات الإنسانية ما ظل مبدأ الاحترام المتبادل مصونا بينها.

آفات الفكر الديمقراطي الاستنساخي في المجتمعات المسلمة

الواقع أننا نرى اليوم فكرنـا الـديمقراطي - المستنسخ عن المجتمعـات الغربيـة مـن دونمـا تـرو وبـضحالة تجعـل كثيـرا مـن مـواده مجـرد حيثيـات شـكلية يعوزهـا البعـد الاجتماعي والنفسي في حياتنـا المشرقية - إننـا نـراه ينـادي بشعارات إهداريـة غايتهـا الجليـة هـي الانتـصار لأخلاقيـات الأقليـة أو الطليعيـة علـى حـساب العـرف والآداب والمواضعات التي تسير عليها الأغلبية، ومبررهم في ذلك شعور غروري بالاستنارة

إذ الاسـتنارة بـزعمهم إنمـا هـي شـأن الأقليـة المثقفـة بثقافـة الآخـر والمتمرسـة بأخلاقياتـه وبـسيكولوجيته الاجتماعيـة والمدنيـة، فلـذا توجـب علـى المجتمـع أن يـسلم الزمام لهذه الأقلية تفعل به أفاعيلها.

وواضـح فـي مثـل هـذا الطـرح إرادة الوقـوع المسبق فـي منحـدر الاتبـاع المجـاني، والفناء في شخصية الآخر، والإقرار بعظمتـه، وبالتـالي بنموذجيتـه، وهـو مـا يتـضمن

بداهة احتقار الذات ونبذها.. وتلك هي الفصامية الخطيرة التي تعيشها نخبنا المتغربة كما سنرى.

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد، انسياق الأقليات العرقية بتأثير التهييج الغربي الماكر، وبمبررات داخلية موضوعية أحيانا تتمثل في العنت الواقع عليهم من قبل الأنظمة، عنت قد لا يستهدفهم كأقلية ولكنه يطالهم ضمن المجموع ولكن بصور أشد، لانعدام الواقيات السياسية والقانونية والعصبية القادرة على التخفيف من الضغط عليهم. الأمر الذي يهيئ الاستجابة الإيجابية لتلك الأقليات إلى ما تدعو إليه التيارات المتطرفة واللادينية، ممن ترى أن الطريق إلى انتصارها على الأغلبية إنما يكون بضرب القيم والمقومات التي تلحم هذه الأغلبية، وهو ما يجعل من العقيدة والملة المستهدف الرئيسي لضرباتهم، إذ باختراق سور العقيدة يتيسر تتحقق الأهداف التفكيكية.

وواضح أن الصراع كما تبرمجه القوى الحاقدة لا يستهدف الأغلبية بوصفها قومية أو عرقا، ولكنه يستهدفها بوصفها حضارة تمتلك في سجل مدنيتها وفي كروموزوماتها الروحية قابلية القوة والانبعاث والغلبة، الأمر الذي يتعارض مع سؤدد وطغيان تلك القوى المتربصة التي تجد نفسها في التحليل الآخر تعادي - على حد سواء - العرق وتعادي العقيدة التي يتسلح بها ذلك العرق.

الديمقراطية الغربية باب لتوطيد خلق الدناسة

ولما كان الفكر الغربي قد مضى في تكريس ديمقراطيته المتلائمة على نحو أو آخر مع أوضاعه ومعتقداته وتاريخه وحضارته، فقد باتت الديمقراطية الغربية ظهيرة لأصحاب البدع والتقليعات ..

فالمجتمعات الغربية مجتمعات استهلاك لا تفتأ سهولة الحياة والعيش فيها تفرز أخلاطا من السلوك والأفكار والمعتقدات تتجاوز غالبا المعقول والمعهود والمرعي من القيم، بحكم روح البطر والتفحش التي تسود الطبقات هناك والتي تتقبل الترف والترفيه كجزء من معاشها، دفعا لآلية الحياة العصرية وما يطغى عليها من مكننة وتجهيز أدخل الرتابة والكمد على واقع الإنسان الأوروبي وجعله يتطلع إلى التجديد دائماً.

ولما كان خرق الأعراف هو أيسر السبل إلى التجديد، فلا غرابة أن نرى الفرديات والمجاميع البشرية هنا وهناك من أهل الغرب يسلكون سبيل الاختلاف والاختلاف الصادم..

إنها استجابات مدنية موصولة بمعطيات وشروط حضارية تعزز نزوع الغرابة والغواية والتمرد، وذلك ما جعل الضمير الغربي يهادن، بل ويساكن تلك المظاهر الشذوذية في الفكر والسلوك والمعتقد، وذلك أيضا ما جعل القاعدة الديمقراطية الغربية تنتهي دائما - وتحت ضغط الأقليات الفكرية والعقدية بما تملك من وسائل تأثير - بالاعتراف بالظاهرة الشاذة والمنحرفة والمتجاوزة للأعراف في المجتمع..

لقد ظل النورسي يتفجع وهو يرى فلول الاستيلاب تستجلب حتى التشريعات وتستنسخ المدونات المدنية من دول الغرب. ذلك لأن النورسي - على خلاف المستلبين - كان يعلم مصدر تلك التشريعات الغربية، وكيف أنهم استقوها منا وكيفوها مع واقعهم وأوضاعهم، وبتنا نحن نرى فيها كمالا بحكم أننا نراها عند الغرب..

ضمن أجواء هذه التبعية الاستيلابية غدا ديدن الديمقراطيين المحليين، والذين اختاروا بدونية مخزية أن يكونوا أذيالا لأسيادهم الغربيين، أن ينتصروا للمظاهر الهدمية ولأنواع الانحراف والشذوذ تحت شعار الحرية وحقوق الإنسان، دون أن يعوا أن انتهاك العرف الذي تتبناه الأقليات الشاذة في فكرها وسلوكها هو عين انتهاك حقوق الإنسان، لأنه يرمي بصورة معلنة إلى إلغاء قيم الأكثرية ومقدساتها.

من هنا يجعل النورسي الدينامية الاجتماعية دينامية ملتزمة بالعقيدة، إذ العقيدة تكفل لكل الفيئات استتباب مسطرة العدل والنظام والانسجام.

وينبغي أن نسجل في هذا الصدد أن فكر النورسي إزاء تحليله للأوضاع والظواهر الاجتماعية والمدنية العامة لا تشرطه منازع الأنانية، سواء بمعناها الضيق الفردي أو بمعناها العرقي القومي، فحديثه عن نفسه حديث عن الإنسان، كما أن حديثه عن الملة هو حديث عن الإنسانية.

من هنا يبرز الفارق بينه وبين الفكر الديمقراطي المحلي المستلب، أو بينه وبين الفكر الديمقراطي الغربي الجانح عن الإيمان بالله والمنكر لمبدإ المعبودية لله.

الفكر الديمقراطي فكر يشيع الفاحشة والفكر القرآني يقمعها ويحجر عليها حدا للعدوى

تنطلق مسطرة هذا الفكر - كما رأينا - في كثير من الأحيان من الدائرة الضيقة بدعوى المطالبة بالحق في الاختلاف والانتصار للأقلية والمستحقرين. من هنا وجدنا هذا الفكر ينتصر للاختراق على حساب الاستواء .

على أننا لو التفتنا إلى القرآن العظيم لوجدناه يقيم - حيال مظاهر الاختراق العرفي والأخلاقي - سدا منيعا لا يمكنها معه - بحال من الأحوال -أن تتحول عن طبيعتها الخللية لتضحى وضعا سويا يقارفه الإنسان من غير ما حرج ولا رادع..

فشيوع الفاحشة في البيئة المسلمة أمر زري، شنيع، لا تهادنه روح الإسلام. بل إن الإسلام لتأخذه حمية رد الفاحشة وتنقية أجواء المجتمع المسلم من دنسها حتى وهي على حال مجردة لا تتعدى نطاق الهمس والظن والتخرسات الملثمة..

فمثلما حرص المجتمع المسلم على التزام وضع الطهارة الجسدية، بتطهر المسلم خمس مرات في اليوم، حرص كذلك على طهارة الفكر والعقل والتصورات، وأكد حيال الفاحشة مبدأ الحجر والحجب والعزل.. فالمبتلي بالفاحشة هو إنسان مهزوم في معركة النفس، قد عجز عن أن يدفع عنه العار الذي ألحقه به الشيطان، فلا أقل من أن يواري على الناس عواره ..

من هنا كانت الوقاية التي يتصدى بها الإسلام للأمراض الأخلاقية .. فالمبتلي تستوجب عليه سلامة المجتمع أن يَستتر أو يُستَر، حتى لا تتوطن النفوس - جراء التعود بما يلابس الفطرة من نزوع للشر - على الفساد، ويضحى الفساد مشاعا، وهو ما يعيشه الغرب اليوم..

من هنا وجدنا النورسي القرآني العقيدة يقول بمنطق الحجر على مرضى العدوى، ولا يهادن الوباء، ولا يومن بأن ترك الوباء يستشري من شأنه أن يزرع المناعة في المجتمع كما يدعي الاباحيون .

إن ترك العلة تسفر عن نفسها في قارعة الطريق، معناه قبولها والاعتراف بها، وبالتالي دعوة الناس الأصحاء إلى الابتلاء بها .

ولو سلمنا بأن ترك الوباء يشيع من شأنه أن يتيح للأجسام أن تتلقح وتكتسب مناعتها، ألا يكون ذلك على حساب ضحايا بلا إحصاء ؟ إذ ليس كل جسم يمتلك قوة المقاومة، وهو ما يعني أن المراهنة – منذ المنطلق – ليست منصفة مع ذوي القابليات الجسمية الضعيفة، فأين هو الإنصاف الذي تتحدث عنه الديمقراطية إزاء من يسقطون

؟ ثم أليس في عملية تكيف الجسم مع جرثوم معين إرهاص حتمي لميلاد جراثيم بديلة أخطر وأفتك من سابقها، وهو ما تؤكده البيانات الصحية في علوم الجرثمة والحياة ؟ فعالم الأخلاق يتشابه تماما مع عالم الأعضاء، وحساسية الإصابة في هذا هي ذاتها في ذاك، بل أرهف وأكثر استشراء في المجال السلوكي منها في المجال العضوي.

من هنا شدد النورسي، ومن منظور قرآني، على ضرورة سد الباب في وجه الاختراقات القيمية، حتى ولو نودي إلى ذلك باسم التجديد وباسم الارتقاء وباسم التمدن والديمقراطية وتقمص أخلاقيات الآخرين.

6- النُوْرْسي .. ونسيج نفسيته

ثمة معابر عدة توصلنا إلى معرفة طبيعة النورسي النفيسة ومكوناتها ..

ومن غير شك أن أوثق السبل المحققة لتلك الغاية، هي تتبع سيرته كما سجلتها محطات حياته، أي من خلال سجل تقلباته عبر أشواط الحياة كما رصدها هو أو من كتب سيرته، أو كما تداولها الناس وعرفوها منه أو عنه.

ثم إن هناك سبيلا آخر نراه يجلي بصورة أساسية وإضافية تلك الجبلة الحياتية المتميزة. ويتمثل هذا السبيل في تصريحات النورسي وكتاباته ومأثور أقواله وتراثه - وليس بالضرورة تلك التي وردت في سياقات خبرية مباشِرة، سردت لنا وقائع حياته. فكثير من خفايا النفس - كما نعلم - تكمن وراء ظلال الخطاب التلقائي أو ذلك الذي لا يجعل من رواية السيرة المباشرة ارتكازه الأدائي الأول.

إذ أن تتبع تلك الإفضاءات الوجدانية، يفيد أيما إفادة في تقويم الشخصية وسبر طبيعتها وسماتها وأصالة أو زيف ما تتحلى به من ظاهر الصفات وجلي الأحوال.

إنها كيفية يستغلها علم النفس التحليلي كثيرا وفق مناهج ومقاربات لا نراها تفيدنا في ما قصدنا إليه، إذ أن مرامي علم النفس تهتم عادة بالإستثناءات الشاذة والحالات المتأزمة، فعلم النفس التحليلي حتى حين يتصدى للكشف عن العبقرية، فإن طبيعته العُقْدِية تظل تجنح به إلى تحسس النقائص، لينيط بها النبوغ وليقول إن العبقرية عوضت عن النقص كذا، أو أنها تفعيل إعلائي باعثه وليد العقدة كذا أو الكبت كذا. (فهو حقل معرفي يتعامل من منظور العقدة، لا سيما الفرويدي ومن اتبعه من تلاميذه).

لسنا في مقام نفي أو إثبات موضوعية هذه الإجرائية المعرفية الغربية أو اليهودية على الأصح.

والمؤكد أنه لو ساغ لنا أن نسبر شخصية النورسي - فيما سنعرض له بالقول عن شخصيته - باستخدام مسابر العقدة وشرائط النقص والقصور والإعلاء كما تقول بها الفرويدية، فإننا سنجد الناتج يعصف بهذه القاعدة الفرويدية التي تعتقد أن كل نبوغ إن هو إلا تحويل وتنفيس وتسام، خلفيتُه عقدة المكبوت المتبلورة أساسا عن الغريزة.

لذا لا نتردد في القول أن الإيحاء النصي والإيعاز اللفظي يغدو مجالا مهما لاقترابنا هذا.

من هنا لا ضير أن نسارع إلى القول أيضا أن مدونـة الرسـائل، من حيث هـي كم خطابي متكامل ومسترسل عبر مراحل واكبت حياة النورسـي فـي منعطفاتهـا، تغدو مـادة التنقيـب والحفـر والاستكشاف المهمـة التـي تفيـد الـدارس أيمـا إفـادة فـي معرفـة مكونات هذه النفس الجبارة بالإيمان وهذه الروح الطافحة باليقين..

والواضـح أن حيـاة النورسـي لا تحمـل مطـاوي يلفهـا الغمـوض أو الغيـاب، بـل لقد كانـت حياتـه أطـوارا مـسجلة ومثبتـة ومكشوفة الأفـق.. وهـو مـا يجعـل مـن كـل تمحـل استكشافي ضربا من الفذلكة المجانية، لكننا مع ذلك سنحاول أن نستقرئ خطوطـا مـن نفسية النورسـي ومـن فذاذتـه، لا سيما وقد ألفينـاه هـو ذاتـه يتحـدث عـن طبقـات الـنفس وزوايا الأنا وما إلى ذلك من محددات تتجوهر حولها شخصية الإنسان.

لكن قبل هذا علينا أن نبين أن هناك أصداء دلالية مفتاحيـة وجدنا خطـاب النورسـي يتوفر عليها، وهي لافتـة للنظر، لـيس مـن حيـث كميتهـا وكثـرة التـواترات التـي سيقت فيها تلك المؤشرات الدلالية، ولكن من حيث نوعيـة الاسـتعمال والمواقـف التـي وظفـت فيها. الأمر الذي يجعلنـا نـرى فيهـا لوينـات أصـيلة تعبـر عـن نفسية صـاحبها، وتعكـس خصوصية شخصيته وجبلته الأبية الفريدة.

كيف يمكننا القول إن النورسي عاش أبيا ومات أبيا ؟

للإجابة عن ذلك، نقول إن سائر مواقفه، وأطوار حياته، تثبت ذلك.

كما أن كل ما كتبه، كان يعكس تلك الصفة.

لكـن هـل يمكننـا مـن ناحيـة ثانيـة أن نعكـس الحكـم ونقـرر أن تأبّيـه ذاك إنمـا كـان انهزامية، وعدم تكيف، وقصورا سافرا عن مجاراة الحياة؟

إنه افتراض يحتاج إلى شيء من الإنارة حتى تتبين حقيقته من بطلانـه. وللوصـول إلى ذلك لابد لنا أن نخوض في الإجابة عن السؤال التالي :

هل حقا كانت سجايا التأبي والعنفوان أصيلة في شخصية النورسـي أم كانـت مجـرد سلوك ماهر قد موَّه به على تخليه عن مواصلة السير في ذلك الطريق الذي سار عبـره تحت تسمية سعيد القديم ؟

نعتقد أن الطريقـة الموضـوعية والبديهيـة للإجابـة علـى هـذا التـساول تقتـضي منـا بالضرورة أن نستقرئ فـي إيجـاز الأحـوال التـي عاشـها النورسـي فـي مـسيرة حياتـه ؟ ونترصد مواقع التعقد التي قد تكون تخللتها وتركت تاثيراتها على نفسيته.

نعلم إنه عاش في كنف أم وأب وبين أعضاء أسرة متكاملة متجانسة، فيها الذكور والإيناث، حيث نشأ الجميع في جو عائلي متماسك تماسك الأسرة التقليدية المحافظة، ضمن رباط روحي رحيم لا يلوح فيه أي سبب من أسباب الاختلال أو التأزيم .

لقد حدثنا النورسي عن الجو الذي كانت تخصه به تلك الأسرة حتى يوم أن غادرها ولم يعد مرتبطا بها ارتباط العضوية، فكشف لنا بأن أخبار إصلاحه الاجتماعي حين كانت تنتهي إلى الأبوين كانت تحرك فيهما شعورين مختلفين في الظاهر، إذ كانت الأم تبكي شفقة على ابنها، فيما كان الأب ينتعش ويعرب عن إعجابه بما صار إليه أبنه ..

وواضح أن ردة الفعل هذه من أبويه لا تشذ في شيء عن رد فعل أي أبوين في وضعهما ذلك، لكن أهمية موقفهما هذا تكشف لنا طبيعة الروابط السوية والقائمة على علاقة لا تخرج عن مستواها الإنساني الحميم، الأمر الذي يؤكد أن طفولة النورسي كانت طفولة صحية، سليمة من النقص، مبرأة من الخلل الذي يترك عادة أثره السيء والموجه لشخصية الأبناء في قابل أعمارهم..

هكذا إذن تفيدنا هذه اللفتة البسيطة لمعرفة الإطار السيكولوجي العام لطفولة النورسي، إذ كان إطارا على أكمل مستوى من الاستواء..

كانت فترة تعليمه فترة متحركة، غير راكدة، فهو بحكم ذكائه الجلي ما برح أن راح يتنقل عبر المراكز وسرعان ما استوعب المحاصيل، وفرغ مما كان الناس يرابطون من أجل تحصيله شطرا من الأعوام والسنين.

لقد وجد نفسه وهو لا يزال في عمر اليفاعة، سقفا في المعرفة ليس هناك من بين علماء بيئته من كان أهلا لإلباسه العمامة، عمامة العلم والمشيخة .

وهذا يعني أن الدرب كان إلى هنا مفروشا بالورود . أسرة هنيئة، فهي - على فقرها - منعمة بنظام حياة قار ضوابطه الدينية تجعل منه نسيجا منسجما ومليئا بالسماحة والدفء. وكلها شروط تصون النفس من الهزات وتكفل لها السلامة والنضوج الهنيء.

فحتى مرحلة التحصيل التي تترك عادة آثارا على النفسية والوجدان عبرها هو على عجلة، إذ سرعان ما تحول فيها الطفل شيخا يوجه النقد والتصويب إلى كثير ممن دخل كتاتيبهم متلقيا، متتلمذا.

وربما كانت هناك حادثة واحدة لفتتنا إليها سيرته، وتتمثل في واقعة صدامه مرة مع بعض من غاروا منه من الصبيان. وما عدا هذه الحادثة، فليس هناك مكدر يذكر

في تلك المرحلة، بل لا يمكننا أن نعتبر تلك الحادثة مكدرا حقيقيا، إذا ما استحضرنا ملابستها وما انطوت عليه من منازع التجاوز الانتصاري غير المشوب، إذ سارع الطفل إلى خصومه يطلب إليهم النزال فرادى، وهو ما يعكس روحا انتصارية ظاهرة وملموسة لم يكن يسع المحيط المتساكن معها - منذ الصغر والنعومة - إلا أن يتحاشاها ويتفادى تحديها وألا يواجهها إلا على نحو قطيعي زُمَري جبان. ثم هل تخلو سيرة طفل ما في هذا الوجود - لاسيما إذا كان نابغا - من حوادث صدام مبعثها الغيرة ؟

على أنه لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن مرحلة التلمذة والتحصيل ميزت في شخصيته فرادة وبطولة، من خلال فوز تحصيلي وتعال على الأتراب، واستجابة قائمة على التحدي والأنفة.. وكلها مواصفات لابد أن تستمر معه إذا كانت صفات أصيلة في النفس، إذ لا يخفى أن ملامح الفردية تتحدد من على مقعد الابتدائية.

ترى هل نسابق النتائج، ونقرر أنها كانت مرحلة استوعبت في فهرسها خصائص روح النورسي ومنحاه الوجودي، وأن جوهره النفسي وطبيعته المزاجية ومقومات شخصيته قد استجمعتها هذه المرحلة الغضة من حياته، إذ تكشفت فرديته عن شخصية دائبة في تنفيذ برنامجها، غائبة عن غير ما يتصل بإطار ذلك البرنامج، متجاوزة للتواضعات والأعراف التي تؤطر المسار الاعتيادي للناس؟

فألمعيته لم تكن تتسع لإقامة روابط روحية مع المشائخ الذين كان ينزل عندهم للتعلم، إذ غلبة عقله كانت سرعان ما تدرك حقيقة أحجامهم فلا تجد لديهم ما يبرر التواصل معهم والارتباط بهم والخضوع لسلطتهم. وكل ذلك يترجم روحا لا تحجمها التقاليد، وبالتالي لا تطويها مستقبلا القوانين السلطانية الوضعية، لأن لها قوانينها الذاتية المنضبطة والصقيلة والتي لا تتضارب بالضرورة مع القوانين الخارجية والعامة، وإن كانت لا تتمازج معها ولا تندرج ضمنها جبلة وطبيعة.

وإذا ما واصلنا متابعة باقي أشواط حياته، فسنجد الشاب النورسي في طور الفتوة ينساق إلى حياة الرحلة والكشف وطلب المغامرة البطولية والتحدي، وازعه في ذلك لم يكن ظروفا اضطرارية قاهرة تدفعه إلى ركوب ما كان يركب بحكم الضرورة والحتمية، إنما كان اختيارا إراديا يسعى إليه بنفسه وينفذه بملء إرادته.

وربما ترجمت تلك الإشهاريته الاستفزازية التي علقها على بابه حين انتهى إلى استنبول، والتي دعا فيها إليه المنازلين ممن يريدون اختبار طاقاتهم العلمية معه، عن منتهى الوثوق والإحساس بالامتلاء والاعتداد والاعتزاز. وذلك تجل آخر عن منزع السجالية الذي يسكنه .

فهو شخصية مفاعلة على القرب والبعد، لأنها تنطوي على برنامج عاج بالحقائق الكثيرة التي كان يشاء أن يجعلها تظهر وتحتل مكانها على صعيد واقعه المدني والملي آنذاك..

ونسارع هنا إلى تقرير الحقيقة البديهية التالية، وهي أن النورسي الشاب لو عاش حياة مكبلة بالعوائق، مكتنفة بعوامل القصور والحرمان والضغط، ما كنا سنجد في سيرته الاعتدادية تلك غرابة، إذ أن الكبت ينعكس أحوالا ومزاجات نقيضة لماضيها.

لكن اللافت هو أن النورسي قد مضى في سيرته الحياتية على خط أفقي واحد، فلم تتغير فيه صفاته النزوعية الأولى التي شاهدناها تتحدد لشخصيته في أول العمر، ولم تتبدل لا سلبا ولا إيجابا. فالشائع أن كثيرا من السجايا الطفولية تتحول إلى نقائضها في تالي أشواط العمر، فالنفسيات الحركية مثلا تتحول إلى نفسيات متماسكة راكنة، والنفسيات الهادئة قد تضحى نشطة وثابة وهكذا..

فالنورسي لم يعش ماضيه الطفولي مخنوقا، مقيدا، مضطهدا، حتى يقبل إلى استانبول على ذلك النحو المتفجر الاعتدادي السافر، مشهرا سيف الخيلاء بروح تنفيسية تعوض ما لحقها من عنت في صباها، وإنما جاءها شابا متدفق الحيوية والبراءة، ينقاد لطبع طلق عاش به دائما وتواصل من خلاله مع الآخرين .

لقد وصل إلى استانبول محتفظا بكامل سجاياه الفطرية لم يكد يتغير من طبيعة تنشئته قطمير.

ترى لِمَ نزل النورسي استانبول مساجلا ومتحديا للعلماء والمثقفين ؟ أأستجد فيه عامل نفسي أو باعث روحي نتيجة الصدمة مع الحاضرة وحياة المدينة ؟

لقد رأيناه عاش في إقليمه الجنوبي متحديا للمشايخ منذ كان تلميذا، وألفيناه قد رسخ مكانة المشيخة لنفسه وهو بعد طفلا، وكان طبيعيا أن تظل حمية الاستزادة العلمية متقدة في أعماقه، وكان مناسبا أن تكون الرحلة طريقا لإشباع ذلك الاستعداد النفسي والقريحي لديه .. وكان اعتياديا - وفق ما كان متبعا في المجتمعات الإسلامية أن يستمر الفتى النابغة في طلب المناظرة العلمية حيثما حل أو ارتحل سبيلا لتقويم المستوى وتطويرا للمحصول .

فحاله في نشدان المناظرة لم تكن تشذ على العرف الذي ظلت البيئة المسلمة ترعاه من خلال ظاهرة التناظر العلمي التي كانت تقع بين العلماء وتشكل باب تعارفهم وتفاوت طبقاتهم ..

لقد تصرف النورسي - يوم دعا الأقران في استنبول إلى ملاقاته - على شاكلة ما ظل يأتيه العلماء المسلمون في كل عصر ومصر، من خلال عقدهم مناظرات العلم والفقه وإقامتهم مجالس الجدل والكلام، تلك الممارسة العلمية المتبعة قديما والتي كانت تشبع الرغبة في الظهور العلمي وتستجيب لمقتضيات أخرى اجتماعية ودينية حيوية. إذ أن ذلك التباري العلمي والتناظر الفقهي كان من فضائل اجتماع وثقافة الماضي .

بل لقد كان من فروض ومستلزمات تلك الثقافة السلفية شبه العصامية في ذلك الواقع الاجتماعي والمدني المتقهقر والآخذ تقريبا بروح الهيكلة الذاتية.

ففي ذلك الاجتماع الريفي المعزول والذي كان لا يتوفر على المؤسسات المتأهلة لوضع نظام ترتيبي بين ذوي الكفاءات والعقول المتنورة، كان حتما أن تمر تلك التصفيات العلمية - إذا صح التعبير - بظاهرة المناظرة والتناظر، إذ لا يحق للجماعة أن تقتدي في مسائل دينها، وبالتالي دنياها، بغير الأعلم والأفقه .

لقد كانت المناظرة نهجا اجتماعيا ومدنيا تتمايز فيه القدرات - بكل سماحة - فرزا للأظهر والأقدر والأكثر أهلية على أن يكون فيصلا في الفتوى وبالتالي في الاجتهاد.

من هنا جاء النورسي إلى استانبول وحمل معه أعراف بيئته العلمية، ومارسها على ذلك النحو الذي كانت المدينة المتحضرة قد أغفلته.

ترى هل غفل النورسي في موقفه الفتحي ذاك عن كون استانبول مدينة جامعة وحاضرة لنظام متحجر ومثابة لمرافق عمومية نخرة، وأن طبيعة المدينة بتلك الخصائص الراسخة طبيعة معقدة، فهي من ثمة مدينة لا تحتمل الصراحة والوضوح، ولا تهش لبسمة البراءة لأنها اعتادت التكشرة المقنعة والافترارة الصفراء.. لما يغلب عليها من ألوان النفاق .

فهي لذلك لا تحتمل المواجهات الصادقة لأنها اعتادت أن تضرب من الظهر، ولا أن تجلس إلى مائدة الحوار فهي لا تعتد إلا بالرأي الواحد، إذ لا تعرف المناظرات، وهي لا تكشف عن ذات نفسها ، فرجالاتها لا يعربون عن أنفسهم بالتلقائية وبالإدلال البرئ عن ذات الصدر، وهم لا يحوزون الإكبار بالمدى المعرفي والعقلي الذي يميزهم عن الناس، ولكن يتم إشهارهم من بين القرابة والصنائع ويجري ترسيمهم وفق أصول وحسابات قارة تقررها أيادي السلطان.

ترى هل نقول إن تشكيلا من الوعي الإضافي يكون قد وقع للنورسي نتيجة ما يكون قد عرفه من انصدام بما رأى عليه أوضاع الخاصة من رجال السياسة وأهل

العلم والأكابر الذين كانت الخلافة تعتمد عليهم أو على الأصح كانوا يعتمدون في توطيد مكانتهم وتعزيز مراكزهم عليها ؟

لا غرابة أن يستجمع النورسي حيرة أخرى إلى حيرته الأولى التي جاء بها إلى استانبول وطمح إلى إحداث التغيير في أحشاء مدنيتها انطلاقا من إصلاح الفكر وتسديد الرؤية.

بل لا عجب أن يعود النورسي أدراجه إلى بيئته الريفية، هو الصميم المعدن، السليم الطوية، وقد كان مهيأ لأن ينغمس في البهرج وأن ينخرط في الجوقة وينوع أداء الألحان في مجالس الأسياد وبين الأشهاد ؟ لقد كان مادة تتأبى عن التحلل في غيرها، وذلك هو عنوان الجواهر الأصيلة. لقد أثبت النورسي إلى هنا أنه كان فعلا شخصية مبرمجة من قبل قدرها، فهي مشغولة عما يستهوي الناس من حولها، إذ هي أبدا دائبة على الحركة تنشد أوضاعا وهوايات أخرى تستقطبها وتشدها..

إلى هنا أيضا نتبين النورسي شخصا شامخا لم يستهوه بهرج مما كان يبهر الناس، ولم تشده واجهة من واجهات الحياة في تلك البيئة وضمن ذلك الكيان. كان يجوب الآفاق، طالبا للإثارة بنفسه رغم خروجه عن نطاق البيئة المحلية وما يوفره المكان الحميم من أسباب الإسناد والتقوية للأفراد ..

بعد هذه المرحلة، مضت بالشاب رحلة العمر تسترسل صعدا، فقطع طريقه من غير أن تواجهه طوائل تبدد جموحه الفكري الواثق.

اشتغل مدرسا سيدا في إقليمه، ثم انخرط قائدا يشرف من تلقاء نفسه على وحدات قتالية خاصة من إنشائه هو، قوامها طلاب ومريدون مقربون .. وفي الأسر سنلقاه يجسد ذروة التحدي حين أهان خال القيصر وأضطره للانحناء بدل أن ينحني له هو العسكري السجين.

فقد اقتيد من موضع تنفيذ الإعدام إلى الحاكم القيصري الروسي، حيث لم يسع هذا الأخير إلا أن يعرب له عن إعجابه لما رأى فيه من صدق والتزام بعقيدته، الأمر الذي ساهم في تخفيف وطأة الحبس عليه، فلم يعش معترك الجماعية في المعتقل، بل اتخذ من مسجد القصبة مخدعا ومتنسكا. ثم كانت المغامرة الكبرى، إذ كان عليه أن يعيش صورة أخرى أعجب من كل ما فات، وهي مغامرة الإفلات من المعتقل وقطع آلاف الأميال وصولا إلى الوطن وانخراطا في الجهاد من جديد.

هكذا نرى أن تجربة العمر كانت تجربة متصاعدة من حيث طبيعة المشاق التي تجشمتها والعناءات التي تكبدتها.. لكنها تجربة ظلت في كل حلقاتها ثابتة الروح،

مطردة على خط نفسي ونزوعي قويم، تتجسد فيه شمائل العزة والشمم التي عاش بها منذ الصبا.. الأمر الذي يبين أن شخصية النورسي لم تكتسب خصائصها من تمرس اجتماعي طارئ ونافذ التأثير إلى أعماق النفس بحيث غيَّرَ من طبيعتها وأحالها تلك الشخصية الكاريزمية الراسخة.

وهي كذلك لم تمتلك تلك الخصوصيات المتوهجة نتيجة نزوع تعويضي إيجابي تستوي به على حال نفسية وعاطفية بديلة ونقيضة لما ظل يسكن النفس ويحكم أفعالها من أحوال كبت وخجل وانغلاق.

ولا تولدت تلك الخصائص عن اعتراك نضالي نمى فيها نزعة القتال وروح التحدي والاستبسال..

بل لقد كانت شخصية مجهزة بسجايا التحدي والحركة والسجال خِلْقةً وقدَرًا..

حقا إنها جميعا مراحل وأشواط - وإن ناء فيها كاهل النورسي بالمعاناة والمكابدة - إلا أنها لم تلحق بشخصيته الأذى النفسي، إذ لم تنخدش فيها كرامة النورسي أدنى خدش،(لقد ظل على عذرية روحية ونفسية مصونة ليس لها بتاتا ما يدعوها إلى أن تبحث عن التجدد) .

فنفسيته ظلت طيلة تلك التقلبات والأطوار المفعمة بالآلام والجراحات تحوز كامل عافيتها وتَصَوُّنَهَا، فالسجن لم يعرف فيه النورسي من الأذى إلا ما كان عليه أن يعرفه كرجل مجاهد وقع في قبضة عدو.

بل لقد عاش تجربة السجن بتلك الوقفة الشجاعة التي رأيناها له مع الحاكم الروسي القيصري، والتي ما كان لأحد غيره أن يأتيها، لأنه لا أحد سواه كانت له تلك الشخصية الاستثنائية التي تعارض العرف عندما يكون هذا العرف محنيا للهام.. لقد كان معه أبطال ،لكنهم لم يكونوا أفذاذا يسترخسون النفس لمجرد إحساس بالتعدي على الكرامة.

لقد كانت تلك الصفة الانتحارية من أبرز خصائصه، انتحارية في معنى الافتداء، افتداء الكرامة، وقد استجمعت سيرته حتى في صباه حوادث صغيرة ولكنها تعكس بجلاء هذه الافتدائية التي لا تساوم قيد أنملة على عزتها وكرامتها..

تعمقت هذه الافتدائية في الأطوار اللاحقة، بحيث كانت تظهر في صورة أمر بالمعروف طورا وطورا في صورة مواجهة مع العدو الأجنبي، وظهرت على أصرح ما يكون الظهور في منازلة السفياني..

ثم إنه قد لبث يمارس هذه الانتحارية وبصورة متمكنة في أحوال الإعدام التي طفق ينفذها ضد نفسه، لينحشر في صورة خلق جديد.

هكذا تتأكد لنا أصالة شخصية النورسي ومصداقية سجاياه وصفاته، وأنها كانت صفات جبلة في النفس، ولم يكن قط يفتعلها، ولا كانت أحوالا مكتسبة زودته بها تجارب الحياة بالاعتراك والمراس، ذلك لأنه من الثابت أن التمرس في المحن والاستمرار على تجشم الابتلاءات من شأنه أن يكسر الشوكة وأن يلين العريكة وأن يجعل العين في نهاية المطاف تغضي عن الانتهاكات، ما لم يكن وراء ذلك المضاء دافع روحي ووجداني موصول بقدر الإنسان ذاته وبما كتب له في اللوح المحفوظ من شأن ودور ورسالة يؤديها ضمن بني جنسه وإزاء الأجيال والإنسانية جمعاء.

فالنورسي ونظرا لأصالة ومصداقية سجاياه ظل على حاله الأولى من الشمم والإستعلاء، لم ينكسر له عود كما سنرى لاحقا. لقد تحدث عن بذرة البطولة كما أحسها في طفولته، فقال :

" كنت أحمل حالة روحية تتسم بالفخر والاعتزاز يوم كنت في العاشرة من عمري، بل حتى أحيانا بصورة حب للمدح والثناء، فكنت أتقلد طور بطل عظيم ورائد كبير وصاحب عمل عظيم خلاف رغبتي، فكنت أقول لنفسي : ما هذا الظهور والاختيال ولا سيما في الشجاعة، وأنت لا تساوي شروى نقير ؟ فكنت حائرا وجاهلا بالجواب "[17].

وهاهو يتحدث - في صيغة الغائب عن نفسه - ليكشف عن تلك القدرة الاحتمالية الباهرة التي واجه بها الضربات وعرف كيف يهزم بصموده الأعداء :

" أنزَلوا به أقسى ضربات الظلم الشنيع طوال ثمان وعشرين سنة، فقاسى ذلك الضعيف سعيد أمرّ العذاب وتحمل أشد العنت منهم، مع أنه كان لا يتحمل أذى الذباب .. وعلى الرغم من مزاجه العصبي ورهافة حسه وعدم التخوف في فطرته والجرأة التي يحملها من إيمانه بحقيقة أن الأجل واحد لا يتغير .."[18].

ولأنه كان مخلصا لبرنامجه المدني الرباني فقد عمل على تحويل تلك الخصائص النفسية والشخصية البطولية التي تحلى بها إلى خصائص وصفات تتقمصها المجموعة النورانية قاطبة من أجل ضمان الفلاح في المشروع، لقد كان حريصا على أن يتصف أتباعه بالشجاعة المعنوية التي لا تنتكس :

---

17 سيرة ذاتية 41.

18 انظر الملاحق.364.

"يجب تحويل تلك الشجاعة الشخصية التي هي بحكم قطع زجاجية متكسرة إلى ألماس التضحية الصديقية للحقيقة "[19].

ويبين الكيفية التي تتحول بها الشجاعة - وغيرها من الفضائل - إلى ألماس فيقول : " نعم إن أهم أساس في مسلكنا بعد الإخلاص التام هو الثبات والمتانة، وبهذه المتانة حدثت وقائع كثيرة أثبتت أن أمثال هؤلاء الذين نذروا حياتهم في خدمة النور يقابل كل منهم مائة شخص، فالشخص الاعتيادي الذي لا يتجاوز عمره الثلاثين قد فاق أولياء يتجاوزون الستين من العمر" [20].

لم تذق نفسه مرارة الهوان

تلفت سيرة النورسي انتباهنا إلى حقيقة أساسية تتعلق بفرديته، إذ تكشف لنا عن سر بقاء شجرة هذه الشخصية سامقة منتصبة في شموخ وتعال، رغم ما عصف بها من رياح وأعاصير. وتتعلق هذه الحقيقة بصحة النفس وسلامتها من الرضوض.

ولِمَا كان يستشعره من أهمية للنفس ولبكارتها الفطرية في بناء الشخصية الفردية، فقد ألفيناه في المواطن العديدة يحرص على ابراز أهمية صحة النفس وبقائها مصونة الحجل سالمة من الهوان.

لقد كان ذلك شأنه كلما تحدث عن الأحوال البشرية السوية أو تناول ظواهر الكمال الإنساني ونماذجه، أو عرض للمنجزات والأدوار الفائقة الأهمية حين تصدر عن أفراد لم تُكَلّمْ نفوسُهم بأذى المهانة .

ففي حديثه عن رهط من الصحابة (رضي الله عنهم) من أمثال خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعكرمة ومن ضارعهم من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ممن تأخر إسلامهم وكتب عليهم أن يواجهوا الرسول وصحابته وأن يعتركوا معهم بالسيف، رأى النورسي أن التراجح - في مضمار القوة والغلبة- الذي تداوله أولئك الرهط النبلاء مع الرسول الكريم كان من ورائه سر قدسي منوط بحماية نفسية من سيكونون رادة وقادة في الإسلام عن أن يكسر عودَها الهوانُ والإذلالُ .

لقد رأى النورسي في تلك المعارك التي تأتى النصر فيها لهؤلاء الصحابة وهم بعد مشركون، عدالة إلهية تقدر ما سيكون لكثير من أولئك القوم من مستقبل وضاء في نصرة الدعوة والمدافعة عنها، لذا احتفظ لهم الله عز وجل بحقهم في النصر حتى وهم مشركون لئلا تنهدر عزتهم وتسقط ثمرة الشموخ في نفوسهم تحت وطأة الإذلال، فلا

---

19 الملاحق.216

20 الملاحق.216

يجد فيهم الإسلام حين تأزف ساعتهم تلك الأريحية التي تتوفر لذوي النفوس الحرة المصونة.

يمكن أن نقول إن للنفس بكارة جبلية مناطة بعزتها وأنفتها.

فالنفس تظل على قوامتها من التأبي والشمم ما بقيت لها أريحية الشموخ تلك، أي ما صينت عن المهانة والدوس والإذلال.

من هنا كانت النفسية الأبية هي تلك التي تنتفض لأدنى ضيم يلحقها، أوهي التي تثور لأي مس بشرفها، إنها حساسية فطرية تستجيب بها النفس للتجاوزات السلبية الخارجية، كلفها ذلك ما كلفها من تبعات المدافعة وردِّ الضيم.

وإنها لحال تهيأت بكل رسوخ لنفسية النورسي، فقد عاش كما رأينا حياة لم تفقد فيها نفسه أو روحه - وخلال أي طور منها- قوامتها وعزتها، إذ كان دائما هو المبادر إلى الهجوم، لأنه كان يعيش تحت وطأة فكر يحمله ويريد أن يعالج به الأوضاع من حوله، وكانت تلح عليه رؤى يترسم من خلالها وجه الغد الذي لا يريده إلا أن يكون مشرقا، وكانت تحدوه روحية يناهض بها السائد والمألوف والمكرس من الظواهر بقوة التواضعات والأعراف البالية.

الخطاب .. ومنازع الإباء والعزة النفسية

لا عجب أن تنعكس منازع النفس وسجاياها على صعيد القول والخطاب، إذ أن ما يسكن الوجدان من حقائق وما يمور في القلب من مشاعر وما يترشح في الضمير من قيم، لا محالة تظهره البديهة الخطابية ويبديه القول المرتجل على نحو أو آخر..

من هنا لا غرابة أن نجد النورسي - كلما تحدث عن العظمة وعن النفوس المتميزة بصفة العظمة - يحلي - في تلقائية جلية - خطاباته وأقواله بأوصاف العزة والتسامي والشجاعة والبطولة والكبرياء..

وواضح أن ذلك يعني أن الروح تستطيع أن تكشف عن طبيعتها ليس فقط من خلال التصريحات الواعية وذات القصد الإشهاري الصريح، ولكن أيضا عن طريق مستوى من الصور والدوال التي لا تأتي ضمن سياق الخطاب إلا في هيئة علامات مفتاحية ارتكازية لها من قوة الدلالة ما يجعلها مادة تعيينية محورية على صعيد النسيج الخطابي أو النصي.

فالخطاب يتوزع مادة الإفضاء على مساحته السياقية أولا، ثم من خلال المعالم الصورية والمفاتيح اللفظية التي قد تبدو مكملة ودورها إضافي، لكن إضافيتها تغدو

في ذاتها أساسية، إذ لولا إلحاح المعنى الذي تستوعبه تلك الدالة اللفظية والتصويرية ما كان لها موقع في خريطة الجملة أو العبارة..

فالافضائية كما نقصد إليها هي هذه القدرة التي يصطنعها القائل في إشهار معانيه وتوصيل مقاصده، ليس فقط من خلال صريح السياق وبنية التراكيب، ولكن من خلال التحلية التي قد تبدو خارجية وإضافية، ولكنها هي في الواقع عضوية وذاتية ومن صلب الارتكاز المعنوي للخطاب..

من هنا يمكننا أن نقول إن الإفضائية هي الصعيد الخطابي الذي يتيح للمستكشف ليس فقط أن يقرأ الرسالة الخطابية ولكن إلى ذلك يستبين محددات النفسية الكامنة وراء تلك الرسالة..

ومن هنا أيضا تغدو منظومة الصور التي يعتمدها الناص أو الباث بتواتر، ويجعل منها اسنادا توضيحيا مرجعيا، مقامات إعرابية لا تؤدي ما تؤديه من خطاب ظاهري فقط، بل إنها إلى ذلك تسع دلالة خفية موصولة رأسا بوجدان الباث وبنفسيته، وبالتالي إنها تكشف النقاب عن أبعاد من مزاجيته وشخصيته..

ويمكننا أن نسجل هنا أن خطاب النورسي الإفضائي كون بياني واسع المدى لمن شاء أن يجرب ألوان الطيف الأدائي التي يتوفر عليها والتي تكشف عن شخصيته الحق وعن مزاجه الصدق..

لكننا سنقتصر الآن على تمييز مستويين لونيين أدائين يجسدان إفضائيته ويظهران طبيعة شخصيته : الإفضاء الصريح السافر - الإفضاء الاستعاري.

1-الإفضاء الصريح السافر

نقصد بالمستوى الإفضائي الصريح السافر تلك العبارات التي يصف النورسي بها نفسه، أو تلك الأقوال التي يكشف لنا فيها عن شخصيته بصورة مباشرة ولا مجاز فيها .

والملاحظة التي سجلناها في هذا المجال أن النورسي قلما تحدث عن نفسه حديث الوسطية، فهو في الأغلب الأعم إما يصطنع لسان الضعف والتواضع والإمحاء من قبيل: يا رب، أنا غريب وحيد ضعيف غير قادر، عليل عاجز، شيخ لا خيار لي، فأنا أصيح الغوث الغوث. أرجو العفو، وأستمد القوة من بابك يا إلهي" [21].

ويدخل في هذا مواقف الاسترحام والضراعة والاستكانة الروحية.

---

21 سيرة ذاتية 224

" يا سعيدا، كن صعيدا في نكران تام للذات، وترك كلي للأنانية، وتواضع مطلق كالتراب، لئلا تعكر صفو رسائل النور من تأثيرها في النفوس "[22].

أو مواقف التحذير والتهذيب :

"فاللهاث وراء الشهرة - التي هي رياء عجيب - ودخول التاريخ بفخر وبهاء، وهو عجب ذو فتنة، وحب الظهور وكسب إعجاب الناس .. كل ذلك مناف ومخالف للإخلاص الذي هو أساس من أسس مسلك النور وطريقه " [23].

أو هو يتشظى حمية معربا عن كبرياء هصوري عاتية، من قبيل: ألا فلتعلموا جيدا بأنه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من الشعر، وفصل كل يوم واحد منها عن جسدي، فلن أحني هذا الرأس الذي نذرته للحقائق القرآنية أمام الزندقة والكفر المطلق، ولن أتخلى بحال من الأحوال عن هذه الخدمة الإيمانية النورية، ولا يسعني التخلي عنها " [24].

ويدخل في هذا مواقف التوعد والتحدي التي تناثرت في ثنايا الرسائل وعكست أحوال التشنج التي ظل النورسي يكابدها على مر العقود.

" إن سعيدا لا يدافع بعصا مكسورة في يده، وفي لسانه سيف ألماسي من مصنع القرآن الحكيم. بل سيستعمل ذلك السيف "[25].

لكأنه احتفظ لوسطيته الإعرابية بالمجال الموضوعي المرتبط بالترشيد وبميادين الفقه الأكبر ومواقف التأمل والنجوى القرآنية التي هي قوام الرسائل ومادتها .

الجوهر الصديقي في روح النورسي كما يعكسها الخطاب

هناك مساحة واسعة من الإفضاءات تواجهنا فيها نبرة النورسي وقد اصطبغت بصبغة القديسية، حيث تأتي التصريحات في صورة مواقف اعتراف أو تقويم للمسيرة وللذات، فتفتح للقارئ أبوابا أخرى حميمية يطلع من خلالها على أحوال من حياة النورسي الباطنية، وعلى نظرته لنفسه وللآخرين وللحياة عامة..

فهذه المحطات التقويمية مهمة من حيث تَجْلِيَتُـها للذات وإبانتها لبواطنها، على اعتبار أنها محطات إعراب ومكاشفة واعية، مستندة على بعد تقويمي يلتفت إلى

---

22 الملاحق 110
23 الملاحق 289
24 سيرة ذاتية 394
25 سيرة ذاتية 221

الوراء، أو على التأمل والاستخلاص، من ذلك هذا السياق الذي ينيط اللثام عن جوهر الرأفة كما تستبطنه نفس النورسي التي تعرفنا على بطوليتها فيما سبق:

" لما كانت الشفقة دستور حياتي منذ ثلاثين سنة، وأساس مسلكي ومسلك رسائل النور، فإنني لا أتجنب التعرض للمجرمين الذين ظلموني وحدهم، بل ولا أستطيع حتى مقابلتهم بالدعاء عليهم وذلك لكي لا أتسبب في إلحاق الضرر بأي شخص بريء ".[26]

هذا هو الجانب الخلفي في نفسية النورسي، نفسية مقدامة تتبطن بتماسك متناه عاطفة الرحمة والرأفة.. ترى هل الأمر سجية أم طبع؟

لاشك أن الدين هو أهم صاقل للنفس، لكن الدين لا يستطيع أن يشحذ إلا ما يجده قائما في النفس من قابليات، من هنا نقرر أن الرأفة صفة ملازمة للبطولة، وشرط رديف لها.. وسيتجسد ذلك في لطائف كثيرة سجلتها لنا سيرة النورسي، من ذلك صلته بالحيوان مثلا، ففي الوقت الذي كان ينازل السفياني - ربما كظاهرة وليس كشخص أو طغمة - كانت يقتطع من طعامه البسيط والكفافي ما يطعم به الحيوانات والحشرات.. كما سنرى ذلك لاحقا.

ولنسمع إليه في موطن آخر :

" فأنا على قناعة تامة ويقين جازم بأن هذه الرسائل ليست مما مضغته أفكاري وإنما إلهام أفاضه الله سبحانه على قلبي من نور القرآن الكريم" [27].

وآخر:

" إنني شخص ضعيف وعاجز ومنفي ونصف أمي، وعندما كانوا يثيرون الناس ضدي بدعواتهم ويخوفونهم مني، كنت أجد دواء لأدوائي من أدوية القرآن الكريم ومن حقائقه الإيمانية الرفيعة. كتبت تلك الحقائق القيمة إيمانا مني أنها ستكون علاجا شافيا لأبناء الأمة والوطن، ولما كان خطي رديئا جدا فقد كنت بحاجة ماسة إلى معاونين، فيسّرت العناية الإلهية لي معاونين خاصين وصادقين وثابتين"[28].

إنها أحوال اعترافية تخلت كلية من فروسيتها، وما ذلك إلا لأن النفس كانت في موقف تقويمي لا يسعه إلا أن يتجرد عن كل لبوس.

---

26 الشعاعات 439
27 الشعاعات542
28 الشعاعات508

على أن هناك جوانب أخرى من إفصاحيته[29] تبدو في مواقف التبصر والتبصير التي يسديها للقارئ.

إذ تكشف لنا تلك المواقف التي يتوجه النورسي فيها للقارئ بالنصح المباشر، عن جوانب من نفسيته المتأبية عن الرضوخ إلا للحق، يقول :

"إن إظهار نفسك ضعيفا تجاه حيوان مفترس يشجعه على الهجوم عليك، كذلك إظهار الضعف بالتزلف إلى من يحمل طباع الحيوان المفترس يسوقه إلى الاعتداء"[30].

وواضح أن النورسي يدرك تمام الإدراك طبيعة الافتراس التي تحكم النفوس متى استحالت الحياة إلى غاب تتناهش فيه مخلوقاته الضارية..

على أن الخطاب هنا لم يستهدف التشنيع بالضراوة البشرية في حلبة الصراع فقط، ولكنه إلى ذلك أظهر - وبذات اللون التشنيعي - صفات الزلفى والحيوانية حينما تغدوان سلوكا يصدر عنه أصحاب النفوس الشيطانية.

أو في قوله :

"وأما خالص تلميذ القرآن فـ "عبد " لكن لا يتنزل للعبودية لأعظم المخلوقات ولا لأعظم المنفعة ولو كانت جنة. وليّن هيّن لكن لا يتذلل لغير فاطره إلاّ بإذنه .. وفقير لكن يستغني بما ادّخر له مالكه الكريم .. وضعيف لكن يستند بقوة سيّده الذي لا نهاية لقدرته.. ولا يرضى تلميذه الحقيقي حتى بالجنة الأبدية مقصدا وغاية، فضلا عن هذه الدنيا الزائلة " [31].

فالكشف هنا يستهدف تعميق خلق الثبات في النفوس، والمطارحة توعز بشمائل تعمل على شحن الأرواح والنفوس بها..

كما نجده يتحدث عن نفسه من خلال حديثه عن الآخر، فهو مثلا عندما يخوض في عرض سيرة الصالحين أو معتركاتهم الروحية والنفسية والكشفية فإنما يصدر عن نفسه، فهو عندئذ ينخرط في عملية الإعراب الذاتي، ولكن بطريقة تجردية ومتحفظة وعلى غاية من التأدب والامتنان والحمد.

---

29 يلاحظ هنا أننا استخدمنا مصطلح الإفصاحية استخداما استدعته التلقائية، وهو بمعنى الإفضائية الذي اعتمدناه لتنفيذ مقاربتنا هذه.

30 المكتوبات466

31 المثنوي العربي النوري 270

" لقد خطر على قلبي ذات يوم .. لِمَ لا يبلغ أشخاص أمثال محي الدين بن عربي مرتبة الصحابة؟.. قلت في قلبي: ليتني أحظى بصلاة كاملة تتكشف لي من معانيها ما انكشف.."[32].

أو في قوله :

" تنبهت لدى أهل الخير نوازعه، فغدا كل ذكر وتسبيح وتحميد يفيد لديهم معانيه كاملة ويعبر عنها تعبيرا نديا نضيرا، فأرتشفت مشاعرهم المرهفة ولطائفهم الطاهرة، بل حتى خيالهم وسرهم، رحيق المعاني السامية العديدة لتلك الأذكار، ارتشافا صافيا يقظا حسب أذواقها الرقيقة "[33].

أليس حديثه عن أهل الخير هنا إنما هو حديث عن الذات ؟ سنرى ذلك لاحقا..

كما أن هناك جانبا عقليا يسند هذه الشخصية ويشكل بُعدا آخر لاتفتأ تصريحاته وتمثيلاته تكشف عنه ..

فمن بعض خصائصه العقلية القدرة الفائقة على التجريد، وتجريد التجريد، فهناك ميكروسكوب ذهني يستقرئ بها مسائل العقل، من ذلك حديثه عن الجسد الجسماني وجسد الروح :

" فالجسد عش الروح ومسكنها وليس بردائها، وإنما الروح غلاف لطيف وبدن مثالي ثابت إلى حد ما ومتناسب بلطافة معها، لذا لا تتعرى الروح تماما حتى في حالة الموت بل تخرج من عشها لابسة بدنها المثالي، وأرديتها الخاصة بها " [34].

2-الإفضاء الإستعاري:

يمكن تمييز خصوصيتين بيانيتين في خطاب النورسي الإستعاري: المجازية والتمثيل..

وإذا كان حقل المجازية يستوعب نطاق الأدبية كما تتمرس به البلاغة في أصعدتها المدرسية المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية وتورية وما إلى ذلك، فإن فاعلية التمثيل تغدو من ثمة أهم ارتكاز أدائي يميز خطاب النورسي..

لقد طفق النورسي نفسه المرات العديدات يعتد بخاصية التمثيل وبقدرته على سوق الكلام وفق النجر التمثيلي.. ومما لا ريب فيه أن الأثر القرآني واضح في إكساب

---

32 الكلمات 575

33 الكلمات 576

34 الكلمات 611

النورسي هذه القدرة الأدائية القائمة على ضرب المثل وإيراد الأفكار موردا تمثيليا إيعازيا..

إذا ما تصفحنا نصوص النورسي، سواء منها الفكرية أو السياسية أو العقدية أو التنظيمية أو الأخرى ذات الصبغة الروحية التبتلية، فسنجدها كلها تُوَاتِرُ في سياقاتها التمثيلية صورةً محورية تكاد تتكرر بين شاهد وآخر عبر مساحة كبرى من خطابه. إنها صورة العظمة والكبرياء التي وإن تماهت في أشكال متلونة إلا أنها - وبصورة عامة - تفيد الإحالة إلى مقصد واحد تقريبا يرادف الاعتداد والعزة والرسوخ.

لقد راوحت هذه الصورة بين المواطن والمساقات المختلفة وأناطت رسالتها الإدلائية بمحايثات سلطوية قوامها : السلطان والملك والحاكم والقائد والجندي وما إلى ذلك.. فالرفعة والشأن والمكانة العلوية هي فضاءات الإيعاز التي يصدر عنها خطاب النورسي التمثيلي عبر تنويع واسع من نصوصه .

بل يمكننا أن نؤكد في هذا الصدد أن هناك حقلا دلاليا توصيفيا واسعا ينفتح أمام خطاب النورسي التمثيلي، هو حقل الحرب والجندية والفروسية الذي ما فتئ يمتح منه شواهده وأمثلته وأوصافه كلما تحدث عن العظمة أو عبر عن الجلال .

ولابد من الإشارة هنا أيضا إلى ما يتحلى به النورسي من قدرة على البداهة والاستدعاء، وما له من مهارة في استحضار الأمثلة والشواهد التوضيحية، وما يتميز به من طاقة على التعبير بالشاهد.

لقد وجدنا أن الكلمات المفتاحية المشكلة للصورة النبع، الموصولة بضميره تمتح أيضا من حقل وجداني مكوناته : الطبيعة، والطبيعة كما نعلم هي النظام، وهي السلطان.

لقد استرسلت نصوص النجوى والتأمل والاستقراء الروحي في تثمير كتاب الطبيعة على مختلف ألوانها ومستوياتها، إبرازا للفكر والحقائق التي ظل يستلهمها من مشاهداته العينية والعقلية..

من هنا كان للطبيعة - كمعين تعبيري وتصويري - متفرعات تترجم عنها صور أخرى تستوعب جملة من المفاهيم والرموز، من قبيل: البرزخ الطريق الشمس الجرثوم البذرة.. إنها أحوال من التمثيل بالأعم والأخص، تعكس جوهر النفسية القويمة وما فطرت عليه من رفعة وظهور ونظام..

وعلى العكس من ذلك نجد النورسي يبدي نفورا من صفات بعينها تناط - عادة - بالنفس المستهلكة، المداسة، الخَنُوع، التي عركتها الأرجل وكسرت شوكتها.

فصفة الذلة والتذلل والجبن والخسة والمهانة والهوان وغيرها من الصفات الدالة على الضعة والحقار وانعدام الشرف، لا يفتئأ النورسي يرسلها سهاما تصم ذوي النفوس المستخزية بالإثم وتدين المواقف الرعديدة وتستفظع الأحوال المخترقة والأوضاع المهترئة.

لقد ظلت صفة الشهامة والحمية والبسالة والريادة والبطولة نياشين خطابية يقلدها النورسي لكل نفس أبية تعشق الفضائل وتتغنى بالمحامد . كما أضحت دوال مثل التذلل والتملق والتجبر من السهام التي يمحق بها النورسي النفوس الرخيصة المتهالكة والمتهافتة..

ترى ألا يتضمن كلامنا هذا بعض ما يتناقض وواقع النورسي ؟

ولقائل أن يقول: أليس في تقريرنا أن النفس البكر، النفس التي لم "تذق الهوان" بحسب تعبير النورسي، هي النفس الحرة، والفاعلة، والمرشحة لأداء وظيفتها الحياتية بعظمة غير مكلومة وهمة غير مجروحة كما كان شأن الصحابة رضي الله عنهم أمثال خالد؟

ثم هل ينسجم هذا مع قولنا: إن أصحاب النفوس المعروكة هم الأغنى تجربة والأثبت على التحدي والأشد على النزال ؟ ومادام الحال على ذلك، فكيف يكون النورسي عظيما هو الذي قلنا عنه إنه - ورغم ما عرف من عنت في حياته - لم ينعرك بهوان ولم تنحن هامته للأعداء؟

لا ينبغي أن يذهب بنا الاعتقاد أن جدلية الإنسان مع العناء والأعباء والتحديات لا يكون لها إلا حاصلا نفسيا واحدا ستنطبع به شخصيته ويلازمها كلون ينمطها ضمن فريق الأبطال أو المندحرين وليس غير ذلك.

فالأمر الإنساني معقد ولا تصهره الملابسات العابرة باليسر الذي قد يُتَوَهَّمُ، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان ممكنا أن نفرز الرجال الأثبات من غيرهم لمجرد إحصاء ما خاضوه من تجارب القهر والمغالبة..

والمؤكد أن شخصية الإنسان صيرورة حيوية تحمل شروط قوتها أو ضعفها منذ المولد، وتساهم التنشيئة في بلورة تلك الاستعدادات وتطويرها، سلبا أو إيجابا، ليكون حاصل النتاج شخصية قويمة لم يعرض لها في خضم مسيرتها الحياتية - لا سيما الأولى، وهي بعد غضة - ما يقرحها أو يضر بها .

فهي من ثمة شامخة أبدا لا تنحني ولا تتلكأ في المواجهة، لأن عزتها لم تنهدر..

إذ أن الشخصية القوية إذا ما استوت على سوقها، صحة وعافية، لا يضيرها أبدا أن تدخل المعارك وأن تخوض المعمعان وأن تتجرع حتى مرارة الهزائم .. لأنها تظل على أنفتها وشممها، وفي الأحوال كلها سلبيها وإيجابيها، ولا يخامرها أدنى ريب في أن انهزامها لم يكن عن أفونة في الهمة أو عن قابلية مهينة، ولكنه انهزام مردّه أمور خارج النفس.. الأمر الذي يجعلها تعيش المحنة مرفوعة الرأس، أبيّة، مبرّأة من كل ما يشين.

من هنا نتبين أن حال المكابدة وتجشم المحن، بالقياس لذوي النفوس القوية والشخصيات الراسية على جبلة التماسك والثبات، لا تفضي بهم إلى تردي العزة وتهشم الكرامة..

فالهزائم الطارئة لا تنال من عزم الرجال الصناديد ولا من رباطتهم وقابلياتهم، فهم مصونون بالقدرات النفسية المكينة التي يحملونها، على خلاف المهزوزين ومن ورثوا هشاشة في أعماقهم لا سيما إذا كانت هشاشة نقص وقوامة، فهؤلاء لا ينهضون ولا يرفعون رؤوسهم إلا على مخادعة وادعاء .

المواجهة، والحدة، والإباء
واستراتيجية الخطاب التنويرية

لقد كان النورسي يواجه الخصوم بحزم لا يفتر، ويقف دائما منهم موقف المصارحة، والمصارحة الحادة أحيانا، لاسيما أثناء المحاكمات وخلال أحداث الاستفزاف السافر التي كان يتعرض لها باستمرار، وكان يصطنع اللهجة القوية ويصعد من نبرتها، وكان ذلك التصعيد منه يندرج ضمن سياسة المفاعلة اليقظة والرد الحاسم التي كان يجد نفسه مجبرا على اتباعها نتيجة الضغوط المتواصلة عليه.

فتصعيد اللهجة كان يعكس حالا حتمية من المدافعة، إذ كان يتخذ أحيانا مواقف المواجهة المتفجرة كاستجابة قاهرة تحلحل عن النفس بعض ما تنوء به من عناء ومكابدة .

ثم إن ذلك الاحتداد في الموقف منه كان ينبه الخصم إلى غشمه ووحشيته وإلى ظلمه وطيشه..

كما أنه كان يحمل مصداقية افتدائية ترشد الجيل وتوعيه وترفع معنوياته وتفضح أحابيل تدأب القوى العاتية على لفها من حول الأعناق البريئة :

" أيها الملحد الشقي، إني ولله الحمد مسلم، أنتسب إلى أمتي السامية .."

" أقول لأولئك الملحدين أدعياء النخوة والغيرة المتسترين تحت ستار القومية التركية، وهم في الحقيقة أعداء الأمة التركية أقول لهم:

إنني على علاقة وثيقة جدا بمؤمني هذا الوطن .. وأكن حبا عميقا وولاء بفخر واعتزاز - باسم الإسلام - لأبناء هذا الوطن الذين رفعوا راية القرآن خفاقة عزيزة في ربوع العالم أجمع زهاء ألف عام".

فالخطاب هنا استظهر جوانب النفاسة التي يرتكز عليها موقفه، وأسندها إلى الذات، واعتبرها المكسب الذي لا يتخلى عنه، ثم يستطرد الخطاب بعد ذلك ويستظهر جوانب الزيف والمخادعة المسترذلة التي يتسم بها موقف الخصوم، ويكشف تفاهتها وظرفيتها ومخاطرها، عارضا كل ذلك في سياق لا يتخلى عن مرماه التنويري:

" أما أنت أيها المخادع المدعي، فليس لك إلا أخوة مجازية غير حقيقية ومؤقتة ومبنية على العنصرية والأغراض الشخصية، بحيث تهمل وتطرح جانبا المفاخر الحقيقية للترك.

هل الأمة التركية عبارة عن شباب غافلين سارحين وراء الاهواء، ممن تتراوح أعمارهم بين العشرين والأربعين من العمر فقط؟ وهل ما تستوجبه النخوة القومية من منافع تمسهم محصورة في تربية متفرنجة تزيد غفلتهم وتعودهم على الفساد وسوء الأخلاق، وتحثهم على ارتكاب الموبقات؟ وهل في دفعهم إلى متعة مؤقتة وضحك آني يبكون عليها أياما في شيخوختهم ؟" [35].

فالخطاب له استراتيجية شِقِّية الأهداف أو مزدوجة الغاية، فهو من جهة يقوم بإبراز فضائل الذات والدور الذي يضطلع به هو في سبيل حماية تلك الذات والمدافعة عن سلامتها الملية، وهو من جهة أخرى يكشف عن المفاسد والسيئات التي يرسو عليها منهج الخصوم التدميري..

بل إنها استراتيجية خطابية متعددة المقاصد، فهي تثبت الموقع على صعيد المعركة، وهو موقع حضوري تشترطه دينامية المدافعة والجهاد، وهي من جهة ثانية تبين التمايز بين الموقفين والأسس المذهبية التي تقوم عليها خطة كل طرف، ثم هي من جهة ثالثة تستقطب إليها الجيل بما تبثه إليه من وعي وتنوير. فهي بهذا الصنيع تعتبر استراتيجية تخذيل مفيدة وناجعة في السجال الدائر على صعيد المجتمع . وقد كان الرسول يجد في نجاعة الفعل التخذيلي مددا يتنفس الإسلام من خلاله، ويهيئ للدعوة حظوظا جديدة من الإسناد والتوسع .

---

35 المكتوبات543

البكاء والشكوى

لماذا كان النورسي يدأب على الشكاة والبكاء ونعي الحظ ما دام قد وطن النفس على الزهد وقطع الرجاءات الدنيوية؟

هل كان بكاؤه حسرة على ما فاته من مسرات الحياة وملذاتها أم كان بكاؤه ذاك ضيقا من عناء الطريق ومشاق الرحلة، أم ترى كان تحسرا على ما كان يَتَفَلَّتُ من بين يده من مغانم المكاشفة والإدراك ؟ هل أضاع سلطانا دنيويا وعز عليه بلوغ سلطنة روحية فشق عليه الأمر؟ أم تراه كان يتخذ من الشكوى والبكاء حالا أخرى يتعبد بها ويتقرب إلى الله؟

مما لا شك فيه أن النورسي كان يعيش أحوالا من المعاناة الإنسانية على أشق ما تكون المعايشة بسبب العزلة والوحدة والحبس . كان يمرض ويجوع ويسأم ويبرد ويتشهى ويطمح من غير طائل إذ كان يكابد قدره في كل حالة من تلك الأحوال بفردية وبصمود لا ساند له فيه إلا الله.. من هنا كانت الفداحة ..

فما أخف الابتلاء على المرء متى كان محاطا بجو الدفء من الأهل أو ممن يلمس لديهم المشاركة، بخلاف المعاناة حين تكون النفس واقعة تحت طائلة الانقطاع القسري وتحت وطأة النبذ والمصادرة.. لكن قدرة الله قريبة دائما من الإنسان، لاسيما إذا كان من القانتين.

لقد كان البكاء سجية راسخة فيه، لاسيما بعد أن تمرس بالحياة وبالأضرار. مما يدل على أن روح الشدة والبأس التي رأيناه يفاعل بها الأحداث كانت تنطوي على رقة ورأفة ليست غريبة أبدا على ذوي النفوس الكبيرة والقلوب العامرة بالإيمان..

لقد رأينا النورسي يتفجع لفقدان الأحبة ويبكيهم ويتأسى لرحيلهم بدءا بأمه إلى ابن أخيه عبد الرحمن إلى طلابه وصحابته ممن فرقت بينه وبينهم يد المنون. لقد كانت نفسيته مطبوعة على البكاء، فالمكان إذا ما حرك ذكرياته يثيره ويستذرف الدمع من عينيه. والوقائع التي كان الإسلام وبلاد الإسلام تنتكب بها تبكيه. وملامح الجسد وهي تشيخ وتدنو به من الغروب تبكيه.. هذا هو شأن النفس السوية، لكن النورسي بما تهيأ له من استثنائية على صعيد الخصال والتفوق والكبرياء، كان بكاؤه - بكل تأكيد - يتجاوز هذه الدوافع، ترى ما ذا كان يدفعه إلى البكاء ؟

أم أن من طبيعة القوة الإنسانية أن تلين ويلابسها الضعف كلما حركتها الدواعي واستثارتها البواعث ؟ لا ريب أن العظماء وفي طليعتهم الرسل كانوا يبكون، وكانت عيونهم تفيض بالدمع كلما مست مشاعرهم أصابع الشجى والتهييج..

ترى هل أن مساحة المرحمية التي هي خُلُقُ العظماء - من حيث أنهم النموذج الإنساني الأكمل - كانت تتسع في نفوسهم على قدر مساحة القوة والاعتداد الذي تحوزه جوانحهم ؟

أو بمعنى آخر هل إن ما خصهم به الله من كمال في الشمائل ومن سمو في النفس، من حيث جعلهم هم الغالبون في كل نزال، هو الذي ينعكس دائما على أرواحهم ويلطف نفوسهم بتلك المرحمة والرأفة، فلا يمكنهم إلا أن يبكوا لدى أي استثارة ؟

لقد ألفينا النورسي يتحدث عن سوء حظه ؟ فعن أي حظ يتحدث؟

لقد قررنا أنه أضرب عن الدنيا، وتنازل عن أخص الخصوصيات الحياتية التي من شأنها أن تسند النفس وتقويها على المضي في المجاهدة والتعبد نقصد بذلك الزواج . فما ذا كان يريد بالضبط وهو ينعى حظه ؟

ربما تبادر إلينا أنه يقصد الأمل الجهادي ذلك الذي انخرط في تحصيله، والذي تعذر عليه أن يدركه، وجشمه ما جشم من عناء، لذلك كانت تند عنه تلك التصريحات تماما كما تند عنا نحن أهل الدنيا تصريحات الحسرة والأسى في كل حين بسبب تعلق مواجدنا بالحياة وصراعاتها وأشجانها المسترسلة.

لكن هل يتساوق هذا الافتراض مع واقع التبتل الذي كان عليه النورسي؟

الجواب بالطبع كلا. لأننا نؤمن أن النورسي قد سد الباب بينه وبين الدنيا وأطماعها وأشاح متعاليا عن مباذلها، واختار أن ينظر إلى تلك المباذل بزراية واحتقار، وإلا ما كان ليتمنع عليه منها شيء لو أنه طلبها ..

إذن فهل يشكل حال تكدره وشكاته من حظه على هذا النحو المتكرر عناء نفسيا وروحيا ميز مرحلة صميمة في مسيرته الانقطاعية وبات أثناءها يعاني ما يعانيه أهل السلوك حين تنقطع الحال عليهم أو تتأخر؟

لكننا نستدرك مرة أخرى إذ نقرر أن النورسي عاش الخلوة والذكر والتهجد والقنوت بكامل الصحو والوعي والمعقولية، فأنى له أن يتأذى بأحوال الانقطاع؟ لقد تقرر لدينا أن النورسي لم يكن يسير على درب المراهنات الكسبية، لا الروحية منها ولا الدنيوية، فلم يكن يطلب المجد الدنيوي، وإلا لكان اختار الطريق المفضي إليه.

كما لم يكن أيضا طالب برزخية ولا خاطب حظوة لدُنِّية يسكر بها من فيوض الشهود الإلهي ويستنيم لنسائم السرمد العرفاني .. فلقد رأيناه يصرح في المواطن المتعددة بأن عبادته لله الخالق إنما تقوم على خلوص محض لا يتقصد بها الجزاء ولا الشكور، وأنه لو ملك لافتدى المؤمنين أجمعين من العذاب لتكون طاعته خالصة لله.

من هنا يتبين لنا أن تكدر الروح وتضجر النفس ونعي الحظ كما كان يعيشها النورسي إنما كانت حالا أخرى لا هي منوطة بالبواعث الدنيوية الخالصة ولا بالنوازع الروحية الخالصة .. ترى ما هي هذه الحال؟

تبين لنا ترصداتنا لمشاعر النورسي في بعض تصريحاته أنه كان يتأذى من مواقف الانقطاع العقيم تماما على نحو ما كان يستبشر بمواقف الانقطاع الفعال. فمخالطة الناس حتى المقربين كانت تثقل عليه لأنها كانت تستهلك من وقته ما كان يراه جديرا بأن ينفق في سبيل الانتاج والتأمل وبناء الرؤية.

لكنه كان من جهة أخرى يتألم من وطأة الانقطاع السلبي، ذلك الذي يرى فيه انحباسا لا تجد معه أفكاره وروحيته القرآنية مجالا للتسرب إلى الأتباع، حيث تؤدي وظيفتها في سقي النفوس الظمأى خارج معتقله.

إن انحباس العلاقة الفاعلة بينه وبين الخارج، أو انبتاتها هو ما كان يجعله ينعى حظه، وليس شيئا آخر، أشبه بصاحب المصنع حين يرى قطعة ميكانيكية تافهة تعطل نشاط عماله وتوقفهم عن العمل. كذلك كان شأن النورسي مع محيطه وفي مهمته التنويرية تلك، بدليل أننا وجدناه سرعان ما يستبدل حال النكد النفسي تلك التي رأيناها تمضي به إلى حد نعي الحظ، بحال أخرى معاكسة تماما، حيث يطفح القلب بالاستبشار وتنفعم الجوانح بالسعادة ويفيض الصدر بالحبور ما أن يرتد إليه تيار التواصل مع القرابة من التلاميذ والمريدين..

لقد كانت تلك الصلة تجدد معنوياته، وتنشط بواعثه، وتمنحه الطمأنينة الروحية. ولا غرو في ذلك إذ أنه كان يجد نفسه قد استعاد الآلية التي تمكنه من أن يمضي في عملية البناء، إذ لا يسعه أن يقيم لبنة واحدة ما لم تجد أفكاره وخطراته الطريق إلى الأذهان التي تلقفها والعقول التي تهضمها، والقلوب التي تتشربها ..

وكان وسيطه في ذلك هم أولئك الرهط من البررة الذين مضوا معه في الطريق إلى أقصاه، والذين كان انقطاعهم عنه أو انقطاعه عنهم يشكل مرحلة الوهن التي لا يسع النفس إزاءها إلا الاكفهرار واليأس ونعي سوء الطالع..

لقد رأيناه يسارع وقد اجتمع بمجموعة من طلابه في بعض المعتقلات إلى الإعراب لهم عن استبشاره وسعادته، بل وعن طمأنينته، لأنه كان يجتمع بهم في موقع واحد..

" لا تقلقوا عليّ لأني أشاهد في كل أمر عسير أثر الرحمة ولمعة عنايته تعالى. فلا تتضايقوا فإن سعيكم وهمتكم ومعاونتكم لي تزيل كل ضيق وينشر السرور والانشراح دوما " [36].

ونفس الاستجابة سنراها تتكرر عنده في ظروف مشابهة، إذ كانت سماؤه ما تلبث أن تصحو، ما أن يلتئم شمله مع طلابه، وما أكثر ما كان شملهم يلتئم في السجن..

هكذا نرى أن علة بكاء النورسي وشكاته من الحظ إنما كانت منوطة بوضع الورشة النورانية التي كان يقف على رأسها، إذا لم يكن يسوؤه شيء مثلما كان يسوؤه أن يرى الورشة تتوقف عن أداء عملها، أو شاب ديناميتها ما يخل بسيرها في مستوى من مستوياتها.

إنها علة جهادية، لا علاقة لها لا بمغانم كشفية روحية ولا بمكاسب نفعية دنيوية، فهي احتدام نفسي وروحي خالص مبعثه الفعل التنويري الذي كان يباشره، فكلما فترت وتيرة ذلك النشاط، حل اليأس وتكدر المزاج وبكى القائد وشكا، أما عندما تسترسل الدينامية التنويرية، لا سيما في ظروف الشدة كتلك الظروف التي كانوا يعرفونها في الحبس، فإن الروح تشرق والنفس تهزج والطمأنينة تعود..

بل لقد طفق يعلن المرات أنه كان يبدد عن نفسه اليأس والكدر بقراءته للرسائل، إذ كانت قراءتها تبعث في نفسه السعادة وتخرجه من الوهن والقنوط، وما ذلك إلا لأن الرسائل كانت - زيادة على طابعها القرآني المبارك - شاهدا حسيا يجسد الترابط الجماعي والتواثق الاجتماعي الذي تمكن النورسي من عقده مع الأمة، فلا غرو أن يكون لمراجعتها وتصفحها ذلك التأثير النفسي والقلبي الإيجابي عليه..

لقد كانت رمزيتها الروحية والمعنوية تأخذ في وجدانه صورة حضورية وتواصلية ليس فقط مع من كان قد خطها وتعاطى قراءتها من الاتباع، بل مع الدفعات القابلة والتي كان النورسي - بحدس استشرافي إيماني- يدرك أنها ستكون على موعد مع الرسائل مستقبلا، فلا عجب أن يلهمه ذلك الاستشراف بهجة، إذ كان يرى في نفسه - من خلال الرسائل - ظاهرة تتحدى عوادي الانقطاع وضغوط التقزيم المسلطة عليه من قبل الأعداء.

---

36 الملاحق 238

يقول النورسي :

" في اليوم الذي أكون في خدمة رسائل النور أشعر بانكشاف وانبساط وفرح وبركة في قلبي وفي بدني وفي دماغي وفي معيشتي، حسب درجة تلك الخدمة"[37].

كما أنه ليس غريبا أن يتحول المعتقل في خلده إلى " مدرسة يوسفية " ينبعث منها نور القرآن وتنتشر تعاليم الله . فالزنزانة كانت طالع يُمْنٍ وتوفيق على النورسي كما كان الحبس طالع يمن وتوفيق على سيدنا يوسف.. لأن الزنزانة كانت تقرب الأستاذ من تلاميذه الموقوفين معه، وكانت تتيح لمنخرطين جدد، ربما بينهم الأكثر تمرسا وقابلية وقدرة على المجاهدة، أن يلتحقوا بالصف، فلا عجب أن نجد النورسي وهو نزيل الزنزانة يسارع إلى القول بأنه مشرق النفس وأن نسائم من سعادة القلب تنعشه، وأن الحظ السعيد ينصاع له بما اجتمع له من شمل مع الأصفياء.

لا جرم أن من طبيعة النفس البكاء كلما تعمَّلت المشاعر واعتلج الباطن بأسباب الشجى.

ولما كانت أسباب الشجى كثيرة فقد رأينا مواقف البكاء وذرف الدمع تتعدد لدى النورسي وتتلون صورها بتلون الظروف والأزمات. ولا بدع أن يكون النورسي كذلك، إذ لو قدرنا حال الغربة والحبس والشيخوخة وحدها لوجدنا فيها التبرير الراسخ لبكائه، لكن اللافت هو أن تلك الأحوال الضاغطة لم تنل منه ولم تقعده عن رسالته ولم تحول الحياة عنده إلى مرثية للذات وإلى بكائية تفجع لا تتوقف.

حقا إن كثيرا من تصريحاته الكدرة تكشف عن مدى الكسوف الذي كانت تبلغه نفسه في أحزانها، لكن روحه ظلت تسترجع - بصورة عامة وبكيفية إيمانية عجيبة - زمام التروي والتسليم، وسرعان ما كانت تتحول حواث الحزن والحداد إلى مجال تتقوى به الروحية أكثر..

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تلك التصريحات المتأسية الشاكية الباكية، وفحصناها في ضوء ملامح الوجه كما سجلتها له بعض الصورة الفوتوغرافية في بعض المواقف، تبين لنا مدى الوطأة النفسية التي كان يعيشها والتي كانت تنعكس على تلك الهيئة من الانخطاف والتحطم والذهاب.. (يمكن استجلاء سيمياء الحال في الصور بمقدمة الكتاب) لكن الثابت في كل ذلك هو أن بكاء النورسي لم يكن أبدا بكاء خَوَر أو وَهن تنكسر به قوامته وحميته ورجولته، لقد كان بكاء المعاناة الوجودية التي عرفت كيف ترسي عالمها النفسي والروحي على دعائم التبصر والتروي واستخلاص العبرة

---

37 الملاحق.201

والموعظة من أحوال الحياة برهافة المؤمن الذي يحمل بين جنباته قلبا حساسا مفعما بأسباب الهيمان والذكرى.

على طريق التحول والانقلاب

سار النورسي حينا، طليعة مع رهوط متلفعة بالراية الخضراء، ومتوشحة بسكاكين غادرة، سرعان ما رآهم ـ ويا لهول ما رأى - يغمدونها بكل ضغينة وتبييت في نحر الإسلام.

سار النورسي في موكب شيطاني يبيت على الخديعة لتقويض صرح الملة وتشييع جنازة الخلافة، ومشى النورسي في صف الكائدين، يدا في يد مع السفاكين، فلما أيقن من الفاجعة، كان سم الخيانة - ليس خيانته في شخصه ولكن خيانة الإسلام والمسلمين - يمزق أعماقه ويزعزع في نفسه أركان ذلك الصرح الشاهق من البراءة والطيبة والطهر والمصداقية.

فهول الخيانة فرض عليه أن يعيش انقلابا جذريا في كيانه ليس على المستوى الشكلي الخارجي فحسب ولكن على المستوى الداخلي بالخصوص، وذلك بإعدام شخصية سعيد القديم وباتشاح حال ظاهرية من اللااعتناء واللامراعاة لما يسمي اجتماعا بالأصول.

فالتجدد[38] كان جوهريا من حيث ظهور شخصية سعيد الجديد، وكان شكليا أيضا شمل مستوى الهندام، من حيث تخلي النورسي عن البزة الدنيوية الأنيقة المراعية للمكانة والمركز الاجتماعيين (قابل بين الصور الفوتوغرافية المستقرأة في مفتتح هذه الدراسة). فالبزة كانت في كلتا المرحلتين علامة سيميائية لها دلالتها النسقية على مستوى شخصية النورسي. فقد كان وراء اللباس وعي وكان ذلك الوعي منوطا بمقاصد معبرة، وهو ما بينه النورسي في بعض تصريحاته.

فالانقلاب شمل نظام الحياة والعلاقة والفكر،أي استحال إلى صيام عن كل ما يستهوي الناس من شهوات طعاما وقراءة وكلاما.

بل لقد تزاوج ذلك الإضراب الدنيوي واقترن بالالتفات الإرادي الصميم إلى القرآن انسياقا مع نوازع الروح وما فطرت عليه من إيمان ظل يحركها ويرسم لها المعالم.

---

38 التجدد لا يعني التغير،إذ أن جوهر العقيدة ظل هو هو، إنما الذي تغير هو المنهج والطريق المتبع من أجل تجسيد تلك العقيدة.

فالمصيبة كانت من الجسامة والمدى لأنها استهدفت القرآن ذلك الكتاب الذي ظل يمثل للنورسي برنامج الروح ومشروع العمر ورهانه القدري الأوحد في هذه الحياة..

من هنا كانت الثورة، وكان التركيز وصميمية البذل، فالخدمة القرآنية لم تأت احتماء واستشفاء من الصدمة، بل جاءت تصعيدا لحمية روحية نواة تفعيلها في نفسه كان القرآن.

الثأر كان ذاتيا، إذ القرآن كان وجدان تلك الذات وضميرها. من هنا كانت الجذرية.

ولما كان القرآن هو ضمير ورأسمال وقوام تلك الذات، فلا جرم أن القلب لم يكن يسع مطامح ضيقة تنحصر في دائرة حياتية فردية، وإنما كان يسع الأمة برحابتها، إذ التماهي كان واقعا بين شخصية النورسي وبين الملة والأمة، وذلك من خلال تماهيه وجدانيا مع جوهر روحية الأمة. أي مع القرآن العظيم.

من هنا كانت الفاجعة مدمرة لأن حجم الخسارة لم يكن على نطاق شخصي، بل كان يطال الملة برمتها. إذ على قدر جسامة الخسارة كانت جلل الفاجعة. الزلزال كان مدمرا لأنه لم يصب بيتا واحدا، ولكنه شمل المدينة بكاملها، والمدينة كانت الأمة، والرقعة من الوجود التي كانت تحتلها تلك الأمة كانت خريطة قلب النورسي تسعها وتحضنها، من هنا كانت خيانة المتغربين للعهد طعنة وجهت لقلب النورسي تحديدا، أو هكذا استشعر ذلك، لذا فاجعته كانت من المأساوية بمكان.

هكذا يتبين لنا أن عذاب النورسي إنما تأتى له لكونه عاش وطأة حلم قوامه مصير الأمة يتهاوى في وقت قدر أنه سيكون من بين الطلائعيين الذين يتوفقون بالمدد الإلهي إلى إسناده وتقصير أشواط لحاقه بالركب العالمي.

في الوقت الذي كان لا يخالجه ريب بأن الشروط السياسية تعمل لصالح الإسلام، إذا به يرى الإسلام يلفظ روحه، وعلى يد من؟ على يد أولئك الذين كان النورسي يسير في موكبهم، لذا ما كان عليه - في غمرة التوبة ورد الفعل المتفجر- إلا أن يتجرد من كل الماضي الذي رآه متلوثا بتبعات تلك الغفلة، فوأد ماضيه ووأد هويته القديمة، ودخل الإسلام من جديد.

لقد ألفيناه في المواطن الكثيرة يردد خلوص فدائيته التي يشاؤها شاملة للأمة تتلقى عنها عذاب الجحيم إخلاصا للمعبودية التي يريدها أن تكون لله وحده، مبرأة من القصدية تماما، على ما شاءه الصديق (رضي الله عنه) حينما تاق إلى أن يدفع حساب الحشر وعقابه على الأمة فداء لها وخلوصا للمعبودية.

ومع كل ذلك فلقد غادر الحلبة العرفية للسياسة بعزة لم تنثلم قطميرا . ذلك لأنه باشرها وهو على أكمل ما يكون صلابة ورشدا.. ولم يخرج من الساحة السياسية مهشم النفس أو مستسلما مهزوما.

فانكسار الشوكة كما أسلفنا مآل لا يلحق - في الغالب - إلا النفوس المجبولة على الهوان .

غادر النورسي عالم الناس وهو على يقين من أن السياسة هي الحلبة المثلى لتجرع المهانات والتمرس بكل المخازي. فالنفس العزيزة تفقد بكارتها ما أن تقارف الفعل السياسي، لذا نرى المبتلي بالسياسة، لا سيما ممن لا حصانة إيمانية له، لا يعتم أن يحترف السقوط وممارسة العهر المعنوي، فضلا عن المادي. وذاك ما تترجمه مواقف التغير والنفاق والكذب والدهاء والتذبذب والاحتيال التي يعتادها السياسي ويتكيف عليها ويضحى يصدر عنها ليس فقط حيال المتعاملين معه في حقل السياسة ولكن مع المجتمع أيضا .

إذ تضحى تلك الأخلاق سلوكا ثابتا يربطه حتى مع نفسه وذويه، إذ لا يختار لنفسه ولذويه إلا ما استجاب للأهواء وحقق المظهرية والغنم دونما وازع. وذاك ما تأبت عنه روح النورسي التي احتفظت بسلامة تامة طيلة حياتها، فهو حتى خلال ذلك العقد الذي عاشه متفتحا على الأوساط المدنية، إنما عاش الأحداث عن براءة وطهر، إذ سار في الركب بمصداقية وحسن نية، وكان يتعامل أثناء ذلك بعُمْلة صحيحة ويتلقى العملة الزائفة، حتى إذا تبين المأساة، هاله الواقع الموبوء، ولم يسعه إلا أن يوصد الباب بضربة غضب عاتية، وأن يخرج إلى الخلاء، حيث الكبرياء وحيث البراءة وحيث الشموخ.

7- هل النُوْرْسي رومانسي ؟

يتلاقى النورسي في خصائص نفسية وسجايا وجدانية مع ما يتميز بـه ذوو الرهافة الوجدانية والمزاجية من الرومانسيين ..

فالرومانسي هو ذلك الشخص الذي يطوي الجوانح على نفس حساسة ومواجد مترهفة، تنشد الأفضل، وتتطلع إلى الأسمى، تتناجى مع الطبيعة ومعطيات الكون الأخرى، وتتأبى عن القيد والرسوف في وحل الواقع الراكد والتواضعات الجامدة، وتنزع إلى تقمص أحوال الألم التي تصادفها بمشاركة وتفاعل متفجعين..

وإذا كان الرومانسيون قد وجدوا في الفن فضاءهم المفضل للتعبير عن خلجات النفس واعتلاجاتها فإن النورسي يختلف عنهم من حيث المنطلق ومن حيث النتيجة.

فمنطلقه ليس نوازع نفسية ديدنها الانطلاق الطليق والشدو المتحرر من الضوابط، والشغف بمظاهر الجمال من منظور ذاتي وبذوق شخصي قد لا يحقق المشاركة ولا الإجماع، بل قد يكون من الشذوذ أحيانا بمكان، وما ذلك إلا لأن للنفس الرومانسية قوانينها الذاتية ورؤيتها الفردية .. قوانين ورؤية لا تنظمها مسطرة قارة ولا يحوزها نطاق محدد أو ثبات وطيد، إذ شأنها شأن النفس في دوام تغير أحوالها تبعا لتغير الشروط من حولها ومن داخلها..

أجل إن النورسي قد جبل على الحرية والتغني بها وعلى تشرب الجمال وعلى الحركة والسياحة والتجدد والتجديد، وعلى تحسس آلام النفس ومواساتها. وعلى تخطي التواضعات وخرق الأعراف .. كل ذلك كان يقع له، لكن وقوعه كان مؤسسا على:

1- روح حرة ليس من طبعها أن تتدجن أو تتكيف مع ما لا يتناغم مع محدداتها الروحية والنزوعية المتسامية.

2- اشتحان روحي قرآني استوعبته الأعماق وانصقلت به الملكات، ليس فقط بالاكتساب والتحصيل، ولكن بالاستعداد والقابلية وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. هذا الاستعداد هو الذي جعل القدر اليسير من المكاسب التحصيلية يتخصب ويزدهر على نحو يبهر غزارة واستواء.

3- دافعية قرآنية تَحَدَّدَ بها الطريق التنويري كقدر لا مناص من مناجزته ومسؤولية لا محيص عن أدائها والمضي بها على صعيد الدعوة إلى الله، مع

تحمل كل التبعات الشاقة التي ابتلي بها أهل الله. إذ أن ذلك الطريق كان طريق المرسلين، والعلماء هم خلفاء المرسلين.

4- شروط موضوعية انكسارية ارتدادية تغربية امتحنت بها الأمة، فكان النورسي على رأس من يتصدى للإنقاذ.

هذه المحددات الذاتية والموضوعية هي التي فارقت بين روحية النورسي وطبيعته القدسية، وبين روحية وطبيعة الرومانسيين القائمة على مجرد النزوع الوجداني وما رسب في النفس من علل الرفض وحب التهويم والاستشراف اليوطوبي.

من هنا لا يمكننا التحدث عن خصوصية رومانسية تميز نفسية النورسي، بل الأصوب أن نتحدث عن روحانية قرآنية لها مكوناتها الخيالية والذوقية والاستيعابية والتمثلية المميزة لها والتي يمكن للمتحسس أن يقف عنها، حيثما وجه بصره في عالم الرسائل.

الخيال وقدرة التمثل ولقط المناظر عند النُّوْرْسي

النورسي رسام وأديب ما في ذلك ريب، له مخيلة مجسمة عجيبة، فعين مخيلته - أو عدسة التفكر[39] كما يسميها هو - تمتلك آلية اللقط على كل الأبعاد، أشبه بعين الكاميرا، لها القدرة على أخذ الصورة في كل أصناف المشاهد (TOUS LES CATEGORIES DES PLANS SCENIQUES) .

فعين خياله تستجلي مشاهدها من زوايا نظر مختلفة، لكنها جميعا تبهر، إذ هي مشاهد تستثمر عامل الإضاءة في تحديد مجال الرؤية .. فالدلالة منوطة بمجال الرؤية الذي تحدده العين، ولا يعدو الأمر في ذلك حيلا أو تلفيقات اصطناعية تخدع المشاهد كما هو حال التشخيص في السينما، بل إنها البصيرة تشد عينيك إلى الخطوط التي تجعل المعطى الرؤيوي ماثلا أمامك بثبات لا تستطيع غير مخيلة النورسي أن تستبينه وتطرحه أمامك على ذلك النحو.

ومما لا شك فيه أن مهارة الإظهار والكشف تلك مردها الصقل القرآني البليغ الذي طبع مواجد النورسي ورهف مشهوديته.. فالعرض القرآني قد تأسس على هذه القدرة الخارقة التي تلفتك إلى الكون المألوف من حولك، فتستظهر تفاصيله المعهودة والتي لا تفتأ العين تراها في كل حين، لكن التسديد القرآني الإشهاري لتلك التفاصيل

---

39 انظر سيرة ذاتية ص.300

المعهودة يخرجها الإخراج الفذ ويؤطرها التأطير التصويري المبهر، الأمر الذي يعطي للمشاهد القرآنية سيميائيتها الكشفية الخاصة.

فالجبل ليس كونا شاخصا من الحجارة والنبات، ولا هو كينونة من الطبيعة المبهمة الماثلة في موات، ولكنه شرط وجودي له دلالته ودوره ووظيفته التي تستجليها الروح المتبصرة وتستبينها العين المتأملة ..

بل إن مسرح الطبيعة والكون برمته لا يؤدي لعين النورسي ذلك الدور الصدى للأهواء النفسية الذي ألفيناه يؤديه في وجدانيات الرومانسيين، كلا، ولا هو شاشة تتحرك من ورائها عرائس مشدودة بخيوط النفس والنزعات الكبيتة .

الطبيعة في منظار النورسي ومخياله لوح تستقرئ الروح من سطوره الإيمان، وكتاب متسلسل تستبين فيه النفس الآيات البينات، فهي ليست مُحاورا أخرس لا يتيح لك إلا أن تنفث لواعج أحلام كسيرة تخفف ما بك من أسى وليس غير ذلك، ولا هي منديل يكفكف دموع العواطف الجياشة في أعماقك وغير المحددة في هَمٍّ بعينه إلا هَمِّ الضغف والقصور والقنوط من وجود فاجع بلا آدميته وببهيميته لأنه لم يجد إلى تجاوزها سبيلا ..

الطبيعة عند النورسي مجال لليقظة والقوة وجبر كسور النفس وتمزقات الروح واستلهام العظة البليغة واستمداد الاعتبار الفاصل..

إنها ليست حائط مبكى نستجيش عنده مشاعر الإلتياث بتذراف دموع النفس النواحة..

فالطبيعة هي مجلى أسماء الله الحسنى، وصعيد الإنسياح في أعالي بحارها لا يكون بتاتا على موعد مع الخيبة والنكبات..

فالنفس لن تقهرها الزوابع ما كان الإيمان هو ملاحها الماهر واليقين هو ربانها المغوار..

لقد طفقت الطبيعة تتلون وتتشكل على أصعدة ومستويات مختلفة تحت بصر وسمع وذوق وشم النورسي. بحيث رأينا السموات السبع والأرضين بمجراتها تَـتَحوَّزُ تحت منظاره التأملي، فلا تضحى إلا مجسما بسيطا في متناول اليد تقلبه كيف تشاء وتتحسس مطاويه على نحو ملموس.

كما ألفينا الذرة الرملية وقطرة الماء ونواة الخلية وخفق النسمة ونبضة القلب وغيرها من المظاهر الكونية المصغرة وتفاريقه غير المحسة وجزيئيات موجوداته اللامرئية تتحول تحت مجهر النورسي التدبري إلى عوالم شاهقات وإلى أكوان

شـامخات، فـلا يفتـأ يـستجلي فيهـا سلاسـل الارتكـاز النمـائي والإكتمـالي وفهـارس الصيرورة والحياة التي تكمن في بؤرة تلك التفاريق والجزيئيات .. وما ذلك إلا لأنها التجسيد الحيوي لإرادة الله ولإسمائه الحسنى..

لقد طفقت عين النورسي ترى في نواة ثمرة التين مثلا والتي لا تكاد العين المجردة تراها، معالم شجرة باسقة وارفة الأبعاد، مسترسلة في الوجود وفي العطاء مع الزمن، كل ذلك لأنها تجسيد لقدرة الله. ومثل ذلك يقال عن الهباء غير المرئي في عيوننا والمشحون بكل خلايا الحياة الطبيعية التي لا يفتأ يجدد بها الله - سبحانه عز وجل - المشهد الجمالي من حولنا موسميا..

ولا جرم أن من يقرأ تأملات النورسي بخلفية تشخيصية سينمائية، سوف يجده قد نوع في مشاهده، إذ هناك مشاهد قد تأمل فيها الكون والبسيطة من زاوية الإطار الشمولي .P.E ، وهناك مشاهد أخرى راوح فيها بين المنظر النصف شمولي .P.1/2 E، والمنظر الكبير .G.P، كما أن هناك مشاهد إبعاد أو تقريب تنطبق عليها تقنية الزوم الأمامي والخلفي (ZOOM AVANT - ZOOM ARRIERE) والحركة المصاحبة والمخالفة .

بل إن عين مخيلته تصطنع مع المنظورات علاقات مجراتية أحيانا، حين تلقطها عن بعد : تشخيص البسيطة مثلا والنظر إليها على أنها فرد يتحرك وله الاستجابة، من قبيل قوله: القرآن عقل الأرض، فإذا أضاعته أضاعت عقلها .

إن الصورة [40] هنا فوقية وعلى مهارة تشخيصية فائقة، فهي من ثمة صورة تجرف النفس وتلقي بها إلى حلبة التأمل والتفكير، من خلال ما هيأته لها مهارة اللقط التي سجلها لها النورسي، وفاعلها بحس تخيلي تمثلي وتركيبي، يدمج العلائق والأبعاد في رؤية قرآنية هي عين الله التي يصغر أمامها الشاخص العظيم ويكبر الحائل المطمور.

" فهذه الأرض لها ألوف الرؤوس، ومئات الالوف من الألسنة لكل رأس. ولا شك أن لها ملكا موكلا بها يناسبها، يترجم أزاهير تسبيحات كل لسان وثمرات تحميداته التي تربو على مائة ألف نمط من أنماط التسبيح والتحميد، يترجمها ويبينها في عالم المثال، ويمثلها ويعلن عنها في عالم الأرواح " [41].

---

[40] بل نعترف أن هناك من الأمثلة ما هو أبلغ في التعبير عما قصدنا إليه، وبالوفرة التامة لمن أراد أن يتفحص هذا المستوى من التعبيرية النورانية.

[41] الكلمات 178

فالنورسي يعرف كيف يلقط الكائنات المشهودة في مسرح الكون ليس عن جوارية وقرب فحسب، ولكن عن انفصال و بُعْدٍ كذلك، بُعْدُ الكلية والإحاطة لا بعد الظنية والتقريب.

" إن الكرة الأرضية مأمورة وموظفة من لدن الفرد الواحد .. وهي كالجندي المطيع لله الواحد..فحينما تتسلم الأمر الصادر إليها من آمرها.. تهب منتشية، وتتغمر في جذبات وظيفتها .. وتدور كالمريد المولوي العاشق - عند قيامه للسماع - فتكون وسيلة لحصول المواسم الأربعة.."[42].

ذلك لأنه يعرف كيف يجعلك تقرأ ما يقرؤه هو في لوح الطبيعة، ويحملك بلا عنت على أن تـؤَمِّن بلا تردد عما يضع أمامك ويعرض عليك.. وذلك لأن خياله التشخيصي قد تمرس بما يمكن أن نسميه مجازا المخيلة القرآنية ذات الديناميـة التجسيمية الحية. أنظر مثلا كيف عالج دعاء الحمد لله في كتاب "الكلمات" [43]، أو كيف شخص الكرة الأرضية ونظر إليها على أنها عاقلة:

" الله أكبر تطلقها الكرة الأرضية كأنها إنسان ضخم"[44].

" البعوضة حين مولدها ..تظهر براعة عسكرية فائقة " [45].

على أنه يمكننا أن نستشف بعض الخصائص التي تميز روحانية يتقاطع فيها النورسي مع الرومانسيين على صعيد العاطفة والمخيلة والبوح.

- إذ له قدرة كبيرة على التشخيص واستنطاق الجماد وتقمص الأشياء وربط أواصر عاطفته ووجدانه بالجماد لا سيما المكان :

" تشاركني البكاء والحزن حتى بيوت المدينة المدمرة "[46].

"كنت أريد أن أجهش بالبكاء بعشرة عيون لا لمجرد شيخوخة مدرستي، بل لوفاتها، بل كنت اشعر أنني بحاجة إلى البكاء بمائة عين على مدينتي الحلوة، الشبيهة بالميتة"[47].

- كما أن له روحا مفطورة على الذوبان في موضوع محبتها، والفناء في تمجيد ومحبة الكائنات عاقلها وغير عاقلها، بل إن محبته للموجودات تقوم على صلة

---

[42] اللمعات.548
[43] الكلمات450
[44] اللمعات 194
[45] اللمعات 192
[46] اللمعات 381
[47] اللمعات 381

تقديسية، وليس مجرد صله استمتاع فقط، لما يرى فيها من حضور إلهي، بوصفها تجليات أسمائه الحسنى.

- كما يتميز بقابلية الألفة والتآلف مع المحيط، ولا تفلح يد الزمن ولا تقلبات الظروف أن تمحو من صفحة قلبه سطور الذكريات وأوشام الماضي كما انحفرت فيه وعاشها مع الناس أو مع المكان .. فألفته الجارفة نامة عن أصالة المشاعر وصميمية الأحاسيس، أحاسيس حرة ترتبط مع موضوع محبتها بعقد المعصومية، فهي ليست أحاسيس زائفة، عبدة، مسخرة للابتذال في سبيل الغنم العابر، متلونة مع المتغيرات، ولا هي أحاسيس مأجورة تتعلق بالمقابل وتتملق للغرض، وذاك ما جعل محبته تتجاوز الإطار الزماني لتغدو محبة كونية قدسية لا تتغير مناخاتها على مر الدهر وكر الشهر.

" ألا ترى فيك لطيفة لا ترضى إلا بالأبد والأبدي، ولا تتوجه إلا إلى ذلك الخالد، ولا تنزل لما سواه.. تلك هي سلطان لطائفك ومشاعرك "[48].

" فالتفتُ إلى الأثمار المعلقة على الأشجار المثمرة وهي تنظر إلي مبتسمة ابتسامة حلوة وتقول لي: لا تحصر نظرك في الخرائب وحدها، فهلا نظرت إلينا وأنعمت النظر فينا "[49].

1-الخيال والمخيلة

ليس للنورسي خيال هوَّام جامح كخيال الشعراء يمضي بلا لجام، متأهب للتحليق في كل أفق والتجنيح في كل ساح.

لقد ضبط النورسي مواجده وسدد تعملات نفسه وروحه صوب قبة الإيمان، وثمَّر ضمن ذلك التوجه القلبي المحموم طاقة الذهن والوجدان، ومضى يلون خطابه بأفانين الأصباغ ويصنع ألواح الطهر التي لا يقع منها الإنسان إلا على كل موقع يزدان بالجمال العفيف والكمال الشفيف والبهاء الضافي غير الكسيف..

يقف النورسي عند حد الإبداعية التشكيلية في تلوين الرؤى وإقامة التماثلات النفسية والموضوعية إعرابا عن خالجة النفس واعتلاج عاطفتها.

أجل إن الشعراء مسكونون بطاقة يخرجون بها عن المألوف، وليس عبثا أن نُعِتَ بعضُهم بالمتنبي وعزا آخرون أحوالهم إلى الأرواح وقوى الرئي الخفية.. لكن نطاق

---

[48] اللمعات 174

[49] اللمعات382

التحليقات الشعرية ظل محصورا في صعيد قولي تواجدي مكرس. (هل غادر الشعراء من متردم؟).

أنظر مثلا إلى سقف الإبداع العربي الجاهلي في منظومة ما يعرف بالمعلقات، تجد دائرتها لا تخرج عن حيز الفعل اليومي أو العرفي أو الدارج من الأفكار والتهيؤات. وأقصى ابتكاراتها لقطة تشبيه احتذائية، أو بارقة قول يُلْحَظُ فيها ملمح باهت لحكمة أو تأمل أو تعز..

لقد عزا المفكرون المعاصرون - ولا سيما المهتمين بحقل النقد والإبداع - إلى الخيال دينامية الخلق، فميزوا بين الخيال النقلي والآخر الابتداعي، ونوهوا بحيوية هذا الأخير وحكموا للادباء بالأصالة والتفوق لمن يترجح في منتوجه الأدبي هذا المنزع الخيالي الابتكاري.

وجنحت الملكة بالصُنَّاع ومحترفي الفن فخاضوا غمار التجريب وانتهوا إلى ألوان ما بعد العقل وما بعد الحداثة وإلى ما هنالك من التصاميم التي نفذها الخيال الابداعي المعاصر، وكانت المحصلة النهائية لكل التجارب والفذلكات هي استمرار اشكالية فردة فريدة معلقة، يجترها الإنسان ويكرر التجريب فيها، ريشة وشريطا وازميلا..

إنها اشكالية الإنسان وحيرته في هذا الوجود.

ذلك هو النطاق الذي غطته المخيلة الإنسانية على مدى تبلوراتها عبر الأعصر والحضارات. وكان لذوي الارواح والاستشرافات الروحانية إسهامات في تخصيب اللوحة الابداعية الإنسانية من خلال ما أغنوا به الفرضية الوجودية الأم : الإنسان من أين وإلى أين ؟

إذ بفضل ما تهيأ لأهل الاستشراف من خيال استطاعوا أن يلونوا المشهد بأصباغ ميتافيزيقة أكسبته نكهة، لكنها نكهة افتراضية لا تسكن لها النفس..

إذ ظلت حيرة الإنسان غصة تربض على عتبة حلقه، فلم ينفتح للإنسانية بها باب، ولم تحظ بالكشف. ومضت تمضغ المرارة بذهول.

لا ننكر أن خيال النورسي خيال مجنح بطبعه، بل قمة في التجنيح. فهو خيال يعد على صعيد الشعرية فاعلية من الطراز الأول، لكن هذا الخيال قد تريض بدينامية روحية تمثلية أعطته فاعليته المتميزة والتي استطاع أن يجسدها على صعيد النجوى الروحية والتعقل القلبي والاستبصار الإيماني.

قد يقول قائل أن حال أهل الاستشراق الصوفي لا يشق لهم غبار في مضمار التمثل وإضفاء علائق سيميائية على المشهد الكوني بحيث غدت الآصرة بين عالمي

الغيب والشهادة عديمة، إذ أن منطق الوحدة - شهودا أو وجودا - جعلهم يعدمون الفارقية بين الموجودات والمشهودات، الأمر الذي أشكل على العباد، إذ شق عليهم أن يتبينوا حقيقتهم الوجودية - ككائنات - في هذا النطاق الإشاري الاستشراقي الذي لا يسلم في التحليل الأخير من حلولية.

خيال النورسي لا يرمم ولا يهدم ولا يحول الأشياء عن مواضعها في صفحة هذا الوجود .

خيال النورسي يستقرئ الأبجدية الماثلة أمامه في المشهد الكوني، ويتملى فيها وجه الله، إذ الموجودات هي خطوط براها قلم الخالق وأوكل بها أسماءه الحسنى، كل ماهية مناطة بما يتجانس مع طبيعتها وطابعها الذي يحمله الاسم الرباني المحالة عليه. سنة الله التي جسدت على ذلك النحو قيوميتها وحضورها وسيطرتها وعلمها ومطلقيتها.

الواقع أن خيال النورسي يعد من هذا الصدد بصيرة لا بصرا فقط، فهو خيال يستقرئ الكون بكامل التأدب والتنزيهية، نشاطه عبادة وتسبيح. ولا يستبعد أن ينساق الخيال الشعري بالنفوس العاطلة من الإيمان مساقات تيه وضلال فهم في كل واد يهيمون .

وإذا تلطفنا مع هذا الخيال الشعري الرومانسي قلنا إنه يمضي بالنفس في سياحة من غير دليل. إلى أين؟ متى تكون العودة؟ ماذا يلزم من زاد؟ ما الجدوى من ذلك؟ ثم لا شيء من هذه الاسئلة يلقى الجواب على صعيد استشرافيات الرومانسيين.

إذ السياحة الشعرية عندهم هي مغامرة وإبحار وراء المجهول والعودة حتما من المتاهات صفر اليدين أو ما يشبه ذلك الحال.

فالحيرة الشعرية الرومانسية لا تعكس الحيرة الوجودية فقط ولكنها تماثلها، من هنا عاش الرومانسي وطأة العنت الوجودي، ولاذ أحيانا بالانتحار مخرجا من العذاب[50].

فقد انتهت القناعة التقويمية المعاصرة إلى التأكيد بأن الشعر الذي يغلق القوس ويجيب عن الأسئلة ويُسَكّنُ غلواء الحيرة إن هو إلا ضرب من الخدر، أو هو شعر معطوب الخيال واهن الحمية التثويرية التي باتت نفسية الإنسان المعاصر تشغف بها.

---

[50] ندرج أسماء مثل رامبو، بو، وهيمنغواي والقائمة تطول ليس فقط في حقل الكتابة، بل في سائر الفنون .. إذ أن نشدان الحقيقة الذي يؤرق المبدعين، لا يغذي عند الكثيرين منهم إلا روح التفجع التي تنتهي بهم إلى الطريق المسدود.

فالشعرية الحديثة تلقى التنويه متى أفلحت في تعميق الجرح ومتى ما شردت بالحس والخيال خارج المعقولية وخاضت بالنفس أقصى تخوم الغرابة واللامتوقع..

هكذا يتمادى القلق الوجودي بإنسانية هذا العصر فلا يروقها إلا أن تمضي على لجة المفاقمات، أشبه بمن يتداوى من السم بتجرع مزيدا من السم.

خيال النورسي مجنح طليق، ليس له حدود إلا حدود الإيمان الفياض، ينفذ إلى آفاق النفس فلا يرى إلا إبداعات خارقة انتسجتها قدرة الله لتوجد الإنسان، هذا المخلوق الذي توجت به الإرادة الإلهية قمة هرم مبتدعاتها التي لا تحصر.

وهو خيال ينفذ كذلك إلى عوالم الشهود فيجد لعناصرها وطبقاتها مواقع وطوبوغرافيا على خريطة الإيمان، وينشط فلا يفتأ يلون المشاهد بألوان القلب المؤمن، تستبد به المفاتن الكونية فلا يسف وإنما يمضي في تنزيه البارئ الذي خلق فسوّى ..

خيال يتعشق الجمال فيلهج بلذاذات تسابيح قدسية تغدقها الروح تنويها بكمال البديع خالق الجمال. وقد يتشنج الوجدان وقد تحتدم الخلجات وتطبق على النفس سحب الحيرة والقلق واليأس والقنوط، فلا تحملها تلك الحال المتسللة إلى النفس أو المنبعثة منها بتاتا على ثورة أو تمرد أو تطاول أو اجتراء على الخالق - سبحانه - ولكن الروح تتسور على حبل الاستخارة والإيمان إلى قمم المشهد، وسرعان ما يأسرها ذلك الوجه السبُّوحي الذي يطلع عليها من ثنايا غيوم الإحباط الأرضي، ولا تلبث الأغصان أن تتبرعم بما يهبُّ عليها من نسائم الإيمان.

كلا ليس الورد[51] هو نفس الورد. وليس من انغرس خياله في أرض الإيمان بالله وضرب بجذوره في أعماق اليقين، كمن استنبتتْ روحَه قماماتٌ لا صلابة لها ولا أرضية تشدها، فمصيرها - حتما - الموت الباكر والاختناق بالتفحم والتكلس والانغمار تحت الأحمال.

"عندما تنطلق المعاني من القلب تنفذ في الخيال مجردة من الصور وتكتسي الأشكال والصور هناك. والخيال هو الذي ينسج دائما ولأسباب معينة، نوعا من الصور ويعرض ما يهتم به من الصور على الطريق، فأيما معنى يرد فالخيال إما يلبسه ذلك النسيج أو يعلقه عليه أو يلطخه أو يستره به، فإن كانت المعاني منزهة ونقية، والصور والأنسجة ملوثة دنيئة فلا إلباس ولا إكساء، وإنما مجرد مس فقط، فمن هنا يلتبس على الموسوس أمر التماس فيظنه تلبسا وتلبيسا، فيقول في نفسه "يا

[51] نقصد المورد ومجال الارتياد والسياحة.

ويلتاه، لقد تردى قلبي في المهاوي، وستجعلني هذه الدناءة والخساسة النفسية من المطرودين من رحمة الله، فيستغل الشيطان هذا الوتر الحساس منه استغلالا فظيعا"[52].

2-خيال النورسي .. الحركة واللون والدلالة

المشاركة الوجدانية تتحقق للرومانسي فتتحول الطبيعة في خلده حضنا يعانق، وذراعا تضم، ومرهما يمنح الشفاء إلى حين، لكنها مع النورسي مشاركة تَحَنُّفٍ من جنس سلوك أهل الله، منوطة بخلفية روحية إيمانية، فهي تأمين على دعاء السحر المنبعث من الكائنات الساكنة والمتحركة في الطبيعة، وإقرار بمشاهدة عيانية وقلبية للخالق، وليس بحثا وضلالا وميوعية مشرب تواجدي غير قويم .

إذا وجد الرومانسي في فسحة خياله عوضا عن خسائر واقعه وبديلا عن محتبس روحه في هذا الواقع الذي لا يتيح له أن يحيا على هواه ومشيئته، فإن النورسي أيضا يجد في خياله الخلاق ارتكازا خارقا وسندا باهرا يعبر به إلى عدوة الطمأنينة كلما نهشه ألم الواقع وعضته شراسة الحياة المناوئة لمطامحه السرمدية.

لكن النورسي يختلف عن الرومانسيين في هذا الارتحال بالخيال من واقع جحيمي إلى واقع رحيمي، من حيث أن خياله منوط أبدا بخالق يمسك في يده ريشة لا تفتأ عين النورسي ترى ابداعاتها كلما رهف فيه الإحساس تأملا أو تألما.

فالخيال في عبوره إلى شاطئ الانفساح الروحي وهروبه من ضنك الواقع المعيش لا يخلق الفردوس المفقود الذي تمرح فيه الروح على هواها، ولكنه يعاين الفردوس الناجز الذي ابتدعته يد الخالق وشادت مقوماته على أكمل ما يتصور "إن قلم التجميل والتحسين الذي يبدع نقوشه في وجه الكائنات، يدل بوضوح على جمال أسماء مالك ذلك القلم المبدع" [53].

في حين يجنح خيال الرومانسي إلى الابتداع الذاتي أو خلق عالم الذات من خلال استحضار ما تفتقده الذات في عالمها الحسي، الواقعي، من محسنات وزينة خيالية تنفيسية. ولا يتأتى ذلك لها إلا بالإبحار في محيطات النفس الشغوف بالهدم وبإعادة الترميم والتسلي بالنزوات التي لا يشرطها - غالبا - ثبات أو منطق أو وضوح دلالة.

فالعوالم التي يبتدعها الرومانسي هي عوالم الذات، عوالم مشروطة ببواعث وأحوال نفسية يعيشها الرومانسي، مرتبطة بما يجده من ترف واستطراف أو بما

---

[52] الكلمات.304

[53] الكلمات818

يستشعره من حرمان ونقص وقصور وجوع وظمأ وحاجة. إنها محض تهويمات دوافعها الاستعاضة الحسية الكبيتة..

أما التجنيح الخيالي عند النورسي فلا يقوم على التعويض الذهني والسيكولوجي الغفل من أبعاده الموضوعية، ولكن على دعامة الإثبات الروحي والبرهان العقلي الذي يلحم النفس بالحقيقة ويكفل لها النجاة من محنة التيه، ويمدها بما يزين لها الوجود ليس كتجربة محدودة في الزمان والمكان، ولكن كخلود وكحياة أبدية وكمصير ومسؤولية تجاه النفس وتجاه الإنسانية وخالقها.. وكطريق مسلوك ومعاد حتمي..

إنه تجنيح روحي يُطَيِّبُ للنفس المقامَ الأرضي من حيث كون الأرض هي الحقل والبيدر الذي تنال منه الإرادات والعزائم على قدر اجتهادها وحدبها من المغانم التي تقطع بها الطريق إلى الآخرة، وذاك ما تسلس به الحياة، إذ تتفتح أبواب الخلود في وجه الإنسان.

إن الخيال المشبع بالإيمان لا يرى في مقدرات الكون ولذائذه مجرد ثراء استهلاكي وشهوات عارية مبذولة أو متعززة، وإنما يراها نعما معنوية وحسية تستلزم الحمد وتقتضي الشكر وتستوجب التنزيه .. تنزيه خالقها والمنعم بها عن الشرك والندية.

إن التجنيح الرومانسي دائم الحركة، دائم السعي وراء الجدة، لا يقر له قرار، ينشئ الفراديس ثم لا يلبث أن يهدمها، لأن النفس في رحابه لا تفتأ تهفو إلى فراديس أخرى أكثر جاذبية وأشد سطوعا، إذ له كل ساعة شأن، بل كل لحظة توق، فلا غرو أن تنطبع على بسمة الرومانسي تلك الحدادية الأليمة التي لم يستطع تفاؤلهم المفتعل أن يغطيها ويموه عليها. لأن الإحساس بالفاجعة يدمرهم، فهم يواجهون - دون جدوى - لاشيئية الحياة بإدمان الأسى والهروب من الواقع. أشبه بمن أعضل به مرض، فلا مناص له من مورفين متجدد تنسيه التباريح.

3-المخيال يمتح من حقل الجندية

أشرنا في سياق سابق إلى أن ملكة التمثل عند النورسي قد ارتبطت بمحور ذهني رئيسي ظلت تمتح منه أهم عناصر تعبيرها وتشخيصها، وهو محور الجندية..

فالجندية - كما أسلفنا - حقل إعراب وتمثُّل مركزي في خيال النورسي ومخيلته،

ولقد عللنا في ما سبق سبب هذا الارتباط الباطني بالجندية، بكون الجندية كأفق رمزي ووجداني كانت تنسجم مع طبيعته الفتية وروحه المنضبطة والفعالة، كما أن الجندية ظلت دائما - ولا سيما بالقياس إلى الفرد العثماني- الإطار الأمثل للقوة والاقتدار والرفعة، فلا عجب أن ينطبع مخيال النورسي بتجسيدات الجندية ومرموزاتها، فلا يكف خطابه عن استدعائها والصدور عنها على نحو ثابت ومتواتر..

لقد أوشك قطاع معتبر من الصور الذهنية والاستعارات التمثيلية أن يتنمط في صيغ، كان مؤشر الارتكاز الدلالي فيها هو الجندية. ولو شئنا أن نسوق عشرات الأمثلة إثباتا لهذه الحقيقة لفعلنا، غير أننا نكتفي بهذا المشهد الوجودي الذي صوّر فيه النورسي حركة المواليد والوفيات في واقعنا الحياتي كما تمثلتها مخيلته صدورا عن معينه الوجداني الثابت، يقول :

"على الطريق.. وطوال مدة السفرة كلها، نرى سوقا إلى الجندية يتم في فرح وابتهاج وسرور، تلك هي التي تسمى بالمواليد، وهناك إعفاءات ورخص من الجندية تتم في فرح وحبور أيضا، وسط تهليل وتكبير، تلك هي التي تسمى بالوفيات "[54].

بل لقد كدنا أن نجده لا يتحدث عن الخالق عز وجل - لا سيما في مواقف التدبر والتوحيد - إلا من خلال تمثل إستعاري مادته القيادة والحاكمية. إذ لا يكف يرى الله بعين الملك والسلطان والقائد والحاكم " المالك الحقيقي لهذه المملكة "..

فالخيال عند النورسي، يمتح في هذه المواقف التي يتواصل فيها مع الله، من روح تملكية، حاكمية، تخضع وتسيطر وتستولي، إذ لا تكف صوره تراوح في التمظهر والتلون بين أحوال القوة والقدرة والتمكن، وكلها أحوال كان الجندي والجندية بتفاريق رمزيته مادتها الإعرابية والتعبيرية.

" أيها الانس والجان، أيها المغرورون المتمردون .. هيا اخرجوا من حدود ملكي وسلطاني إن استطعتم، فكيف تتجرأون إذن على عصيان أوامر سلطان عظيم، النجوم والأقمار والشموس في قبضته، تأتمر بأوامره كأنها جنود متأهبون.. فأنتم بطغيانكم

[54] اللمعات: 179

هـذا إنمـا تبـارزون حاكمـا عظيمـا جلـيلا لـه جنـود مطيعـون مهيبـون يـستطيعون أن يرجموا بقذائف كالجبال حتى شياطينكم لو تحملت.. وأنتم بكفرانكم هذا إنما تتمردون في مملكة مالك عظيم جليل لـه جنـود عظـام يستطيعون أن يقصفوا أعداء كفرة ولـو كانوا في ضخامة الأرض والجبال، بقذائف ملتهبة وشظايا من لهيب كأمثال الأرض والجبـال، فيمزقـونكم ويـشتتونكم، فكيـف بمخلوقـات ضـعيفة أمثـالكم ؟ وأنـتم تخـالفون قانونا صارما يرتبط به من لـه القدرة - بـإذن الله - أن يمطـر عليكم قذائف وراجمـات أمثال النجوم." [55].

هكذا يتحقق التصاقب بين مواجد النورسي وبين مرجعيته الرمزيـة: الجنديـة، وكـل ذلـك لأن ضـميره قـد احـتفظ للجنديـة بمكانـة سـقفية فـي سـلم الاعتبـار، بـل لقد كانـت شخصيته ذاتها تتماهى في سيرة تجندية، وكـل ذلـك بتـأثير المثـل النفسية المنوطـة بقيم النظام والبسالة والجمال والاستواء كما أسلفنا.

لقد طفق خيالـه يصوغ الكون ويضبط الصلة بين العبد والخـالق من خـلال تمثل علاقـة تراتبيـة تحتـذي إلـى مقـصدها التـشبيهي الواقـع العـسكري ونظامـه التـدرجي وتفاوت سلطته، وهو ما نجد النورسي يقرره في التمثيل التالي :

"إن اسم القائد ــ مثلا - من بين أسماء السلطان الكثيرة - يظهـر فـي دوائـر متداخلـة في دولته، فابتداء من الدائرة الكلية للقائد العام العسكري ودوائر المشير والفريق حتـى يبلـغ دائـرة المـلازم والعريـف، أي أن تجلـي ظهـوره يكـون فـي دوائـر واسـعة ودوائـر ضـيقة وبشكل كلـي وجزئـي، فالجنـدي أثنـاء خدمتـه العـسكرية يتخـذ مـن مقـام العريـف مرجعا له، لما فيـه مـن ظهـور جزئـي جدا للقيـادة، ويتـصل بقائـده الأعلـى بهـذا التجلـي الجزئـي لاسمه ويرتبط به بعلاقة، ولكن لـو أراد هـذا الجنـدي أن يتـصل بالقائـد الأعلـى باسمه الأصـلي، وأن يقابلـه بـذلك العنـوان ينبغـي لـه الـصعود وقطـع المراتـب كلهـا مـن مرتبة العريف إلى مرتبة الكلية للقائد العام "[56].

لقد ظل النورسي يعتبر التمثيل هو السبيل الأجدى إلـى توصـيل الأفكـار، مـن هنـا ظل يسوق خطابه ومعانية عن ذلك الطريـق " طريـق التمثيـل الواضـح للعقـل والمنـور للقلـب".[57] وظـل يـضرب الأمثـال لاسيما عنـدما يكـون المجـال تجريـديا وقلبيـا تنزيهيـا "ولله المثل الأعلى - ولا مشاحة في الأمثال "[58].

---

[55] الكلمات208

[56] الكلمات217

[57] الكلمات 211

[58] الكلمات 206

فخياله كلي، ورؤيته كونية قرآنية منوطة بـالأكوان وبالعـالمين، وهو مـا فتـئ يعبـر عـن تلـك الرؤيـة الـشمولية مـن خـلال تمـثلات تـصغيرية اتخـذت فـضاءها الأرض، وجعلت مسرحها البسيطة :

" إنه بتجل واحد من تجليات رحمة الرحمن الرحيم، ينشر علـى مائدة الربيـع مـا لا يعد ولا يحصى من نعمة اللذائذ البديعة على سطح الأرض"[59].

كما أنه لم يفتـأ يـواتر تمثلاتـه التكبيريـة التـي تحيل الـذرة والبـذرة والجرثـوم فضاء كونيـا فسيحا طـافحـا بـالعوالم والمعـاني والعبـر والكشوفات.. إنهـا قـدرة متميـزة علـى الاستجلاء وتنويـع الرؤيـة والإعـراب والقـراءة.. وكـل ذلـك منـشؤه خيـال قرآنـي تعلـم كيف يلقف مناظره من مدارج علو متفاوتة..

---

59 اللمعات 383

8- مَن المازوشي؟

إنه لمن الإساءة إلى طهر أهل القداسة أن ننظر إلى أعمالهم بمنظار الدناسة المكرس في معدات النقد والقراءة والتقويم كما أثلتها الثقافة اليهو ـ مسيحية.

ولما باتت الإجرائية النقدية الغربية تمثل اليوم المرجعية والمحك لكل تقويم فني أو أدبي أو معرفي مهما كان مصدره ومنابع إلهامه، فلا جرم سيتحتم علينا أن نخوض في قراءة جانب من سيرة النورسي ـ وهو الجانب التعبدي ـ من منظور التحليل النفسي .

وإننا إذ نفعل ذلك فليس ضلالا منا أو ترفا أو بطالة، ولكن لمسعى تسديدي قد نوفق إليه. إذ لا ننسى أن النورسي بات اليوم مرجعية عالمية، تراثه مرشح للمعالجات بمختلف مشاربها، ونحسب أن كل مبادرة اقتراب تتوجه إلى هذا التراث من منظور حداثي ـ أي من خلال تسليط المناهج النقدية التي تعد اليوم حديثة ـ فسيطوي المسافة بين الأجيال الجديدة وبين النورسي، بوصفه ظاهرة إنسانية لافتة ومتميزة، بل واستثنائية..

لماذا يخطر للمرء أن ينظر إلى تراث النورسي، وإلى شخصيته من منظار التحليل النفسي؟ ولماذا ينبغي أن نقوم هذه الشخصية المسلمة وتراثها الروحي الطاهر من زاوية مفاهيم هذا العلم (؟) النفس ـ تحليلي ؟

لا ينكر أحد أن الثقافة المعاصرة تتبنى قيم ونظريات علم النفس بمختلف مدارسه وترسي من تلك القيم والنظريات ركائز يشهرها الخطاب المعاصر المتنور (بمقاييس الثقافة الغربية).

من هنا كان لزاما على من يريد أن يُعرِّفَ طبقات واسعة من الناس بالنورسي، أن يقربه إليهم من منظور حداثي ـ كما أسلفت ـ يصطنع الأفكار والمقولات الحداثية.

ثم ألسنا نرى في كثير من الأحيان، هؤلاء الذين تأثروا بالثقافة (النفس ـ تحليلية) ينيطون كل مجاهدة وكل عناء وتحدٍّ يتجشمه المرء بالموقف المازوشي ؟

بل إن أمر إسقاط نظريات التحليل النفسي قد طفقت تشمل الظواهر والعلائق التي تتجاوز نطاق الأفراد. لقد ظلت مثلا الرؤية الرأسمالية ـ خلال مراحل الاصطراع الإيديولوجي ـ تنظر إلى الشيوعية وما اتسمت به من تقشف ظاهري وإشاحة عن الترف الاستهلاكي، على أنها ظاهرة مازوشية تترجم عن نفسها في صورة انقياد سلوكي جماعي غير سوي.. ونفس هذه النظرة النفسية نجد البعض يُقَوِّمُ بها حياة الرهبنة والزهد الدينيين. بل إنهم ليَصِمون كل مسلك يجنح إلى التسامي عن الشهوة،

بالمسلك المازوشي، بل إنهم ليقرون أن تعاطي الاشباع الشهوي ذاته إن هو إلا وجه من المازوشية يأتيه الإنسان من غير ما وعي .

كيف للثقافة النفس - تحليلية أن ترد كل هذا وذاك إلى مركب واحد، هو المازوشية (تعذيب الذات) من دون أن تقع في الارتباك المنطقي ؟

لا مناص لنا من أن نشير أولا إلى معنى المازوشية من خلال هذا التعريف الذي نجمله لها في التالي :

المازوشية عند التحليليين، وفي مقدمتهم فرويد، هي تنفيس عدواني وقلقي ناتج عن شحنة غريزية مزدوجة - سادية - مازوشية - تنشط داخل سراديب الذات. ولما كانت السادية هي التواصل العدواني مع موضوع خارج الذات، أي مع آخر، فإن بنية المازوشية هي من بعض الوجوه ضرب من السادية الذاتية، من حيث كونها عدوانا يستهدف الذات نفسها، لا الآخر[60] .

على أن أهم ما تخلص إليه المدرسة النفس - تحليلية، هو اعتبارها الابداع نفسه، وبشتى مظاهره، مسرحا تعبيريا يعكس في تجلياته نشاطا سادو - مازوشيا تنطوي عليه حياة الفنان وتعكسه مواجده على نحو من الأنحاء.

هذا بالتقريب هو الإطار التصوري الذي تصدر عنه النظرية التحليلية، فأين يا ترى يقع النورسي رجل الفكر القدسي والزاهد الورع والاستراتيجي الحكيم من هذا الإطار؟

لا مراء أن تقزيم شأن الأفذاذ وتحجيم تراثهم الفكري والديني، وتعليب أطوار حياتهم الحافلة ضمن هذه المعادلة الساذجة يعد تقزيما للعقل الإنساني نفسه، وتسطيحا للرؤية، وتتفيها للحياة نفسها، من حيث إرجاع الظواهر جميعا، بسيطها وجليلها، إلى قانون نفسي واحد، هو عقدة الليبيدو الباطنية..

النورسي - وقد عاش مزامنا لفرويد تقريبا - نظر إلى الشخصية من زاوية النفس الأمارة، والنفس المزكاة **(قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دسّاها)**[61]. وأناط فعل

---

[60] لقد رأت الفرويدية- وهي تطور المنظور التحليلي - أن غريزة الموت كما تتجسد في نفسية الإنسان، تظهر من خلال مستويين من السلوك، المستوى الأول تمثله دينامية عدوانية نشطة تتجه نحو الموضوع الخارجي وتكون عندئذ نزعة سادية، والمستوى الثاني تمثله دينامية عدوانية نشطة تتجه نحو ذات الشخص، فهي عندئذ نزعة مازوشية. فظاهرة تعذيب الذات هو المازوشية وظاهرة تعذيب الغير هو السادية.
على أن الفرويدية أوجدت بنية أخرى ترجمت من خلالها السلوك السادو- مازوشي، وذلك بتمثلها للبنية السيكولوجية للإنسان على أنها أنا وأنا أعلى وهو. وبحسبها أنه إذا كانت وظيفة الأنا الأعلى لدى الفرد الشاذ تبدو توفيقية تكيفية، فهذا لا يمنع أن توجد في دهاليز النفس مستويات نشطة من الصدام المازوشي.

[61] سورة الشمس:9-10

الإنسان بتراجح منزعي الخير والشر في هذه النفس، ونظر إلى الشر والخير، ليس بمنظور الليبيدو والغريزة، ولكن بمنظور مركب، بعض محدداته جِبِلّية، والبعض الآخر مكتسب. فيه الإرادي وفيه القدري، وتلك هي نظرية القرآن العظيم التي لا تختزل المركبات في علامة واحدة، وترجعها لعلة واحدة، إلا من حيث إثبات الخالقية

.

لكن هل حقا يعد النورسي مازوشيا لأنه قمع نفسه وأرهقها بالعبادة والتسامي؟ وهل شأنه في هذا الصدد هو شأن يسري على عامة الأتقياء؟

النورسي بكاء كما قررنا في غير هذا الموضع، والبكاء – على ما رأينا - انفعالية سوية صافية يتصافُّ بها النورسي مع العظماء وفي مقدمتهم الرسل والأنبياء. فلا مجال لنا أن نعد تلك النزعة فيه انحرافا موصولا بمازوشية ما تتلبس نفسيته.

النورسي رحيم، يطعم النمال من حسائه، ويحض الصيادين على عدم اصطياد الطير لا سيما في موسم اِحضانها وتوالدها، ويلين قلوبهم ببيان ما يسببه الصيد من إفجاع لمخلوقات الله العجماء. النورسي يمر به كلب لاهث منهوك القوى جوعا وشيخوخة، ويتصدى له الطلاب وهو يقبل عليهم معمى العينين مخمصة، فلا يسع النورسي إلا أن يأمرهم بإعطائه ما معهم من طعام.

النورسي الطاهر تتمدد على وسادته وحيال أذنه هرة، فلا يصدها، ولا تزعجه أنفاسها تنفذ إلى خياشيمه، لكنه يشغف منها بحس تموجي ترسله تلك الأنفاس وتمور به تلك الجوانح، ويشده إليه، ويذهله فحواه، إذ كانت أذنه تقرأ فيها كلمة: يا رحيم، يا رحيم[62].. ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد، بل يسارع النورسي إلى إشعار غيره بما تم له من كشف، وإذا الآذان تتسمع في ما ينبعث عن صدور القطط من حس، لئن لم يكن كلمة: يارحيم، فهو أقرب ما يكون إليها، وهي على كل حال كلمة ما تواترت في ذلك الصدر الضعيف إلا على أنها دعاء موجه إلى الخالق الكريم..

لنفرض - انسياقا مع الاعتراض المحتمل - أن رحمة النورسي في ما رأينا له من مواقف وصلات بالحيوان، هي عدوان مكفوف، مترجم على نحو سلمي على ذلك النحو. ألا يحق لنا أن نصيح ما أعظم هذا الصنف من العدوانية التي يغدو بها الإنسان في منزلة الملاك؟

---

[62] يتحدث ابن سينا في بعض رسائله اللسانية: رسالة أسباب حدوث الحروف، عن" حروف تسمع من حركات غير نطقية "

علـى أنـه يمكـن لنـا أن نتحـول بـالافتراض إلـى صـعيد آخـر ونتسـاءل، ألا يكـون النورسي رحيما في مستوى من دخيلته، عدوانيا في جوانب أخرى.. فكثير من الغلاظ والفـاتكين، كانـت لهـم رحمـة ولطـائف مـع دواجـنهم أو مـع محـيطهم، وإذن فرحمـة النورسي تلك لا تبرر عدوايته المتكتمة والمتولدة عن نفسية سـادو - مازوشـية تنطـوي عليها جوانحه.

ثم ألا تكون خصومته مع المحيط السياسي الذي انفصل عنـه وشـق لنفسه طريـق الزهد والعكوف،هو وجـه عـدواني سـافر، إذ أخـذ سبيلا مـن التحـدي والتمـادي غيـر معهود؟ ألا تكون عزلته وصيامه المادي والفكري مازوشية ؟

إن الـسادومازوشية - كمـا أسـلفنا - شـذوذ تعـذيبي، لا يبـرأ ضـحيتها مـن نـوازع إجرامية. وإذا ما افترضنا أن النورسي كان حاملا لمركّبها، فلنترصد أحوالـه ولنقـارن بين حاله وحال خصومه الذين نتوقع أنهم كانوا بعكسه أسوياء وأصحاء.

أجل، لقد تحـول مجرى حيـاة النورسـي، إذ انعطـف بمصيره خـارج الحلبـة بعد أن رأى المـسيرة الـسياسية تخـون عهودهـا وتبيـت علـى الخـروج عـن الموثـق. فـالتحول الموقفي هذا مبرر بما لا يترك مجالا لريب، فهو مبدئي ولا يمكن أن يكون مرضـيا أو ناتجـا عـن صـدمة.. تشهد علـى ذلـك الأنـشطة والمساعي الإصـلاحية والجهاديـة التـي أتاها منفردا أو ضمن حركة الاستقلال وما تلاها.

فالانعطافة الحادة والجذرية قد حدثت في الحقيقة على مستوى المتغربين، إذ قلبـوا ظهر المجن للمبادئ والمقدسات التـي رفعوهـا وسـاروا بـالجموع نحـو تحقيقهـا، وتبنـوا أخرى غريبة كل الغرابة عن روحية الأمة لأنها ببساطة مستوردة عن مدنية الغرب .

قبل تلك المرحلة عاش النورسي فارسا كما أسلفنا يتحدى بمعارفـه ويـناظر بعلمـه، وذلك سلوك - كما قررنا - يتبرر بالنبوغ الذي جعله يبز العلماء وهو مراهق، ويتبـرر بـالنهج التراجحـي الـذي كـان إلـى ذلـك الوقـت رياضـة تنافسية علميـة يجتازهـا العلمـاء ويتعاطونـها ويتباهون بها أينما حلوا أو ارتحلوا، والدافع الخفـي كمـا رأينـا هـو المطمـح الإفتائي الذي لا يتهيأ في الثقافة الإسلامية إلا لذوي التفوق.

ولا جـرم أن يدشـن النورسـي فتحـه لحـاظرة اسطنبول بالإشـهار عـن تلـك القوامـة المعرفيـة وتلـك الخـيلاء التـي يورثهـا للمثقـف المسلم تـشبعه بـالعلم وتمرسـه بالفذلكات الفقهية والاجتهادية. يومها لم يكن من بد علـى الـدوائر المتهافتـة أمـام عتبـات الـسلطان إلا أن تدفع عنها الخطر الداهم والـذي مثلـه ظهـور شخـصية النورسـي النبوغيـة بينـهم، فما كان من تلك الدوائر إلا ان تحيك للشاب الألمعي وصـمة الجنـون، وقبـل ذلـك بفتـرة

قليلة كانت تلك الدوائر نفسها تقريبا قد حاكت للأفغاني المؤامرة التي أقصته وجعلته يعيش تحت طائلة الموت البطيء.

أما بعد أن طلق النورسي السياسة وعاش العزلة، فقد رأيناه يحيا بكامل التبتل ويستجمع في سلوكه سماحة انتهت به آخر الأمر إلى حد أن يغفر لخصومه ويتجاوز برأفته عن ظلمهم.

بل لقد كان يحض الأتباع على اصطناع تلك السماحة مع خصومهم السياسيين والمتنفذين ممن كانوا يجتهدون في تضييق الخناق عليهم والتنكيل بهم، وكل ذلك تساميا منه والتزاما بمشروعه الحضاري الذي لا يسع النفس معه إلا أن تكبر وتسمو - كالبحر - فلا يعود يكدرها ما يعرض لها أو يصيبها من أوزار الغير.

أما الخصوم (الأسوياء ؟)، فقد شذوا عن الدين، وألقوا الخلافة، واستبدلوا الحرف، وغيّروا الملة والآذان، واستبدلوا الهيئة والوسم، وجردوا الأمة من لباس الحشمة والستر وألزموها لباس العري والفساد، واعدموا المعارضين وزجوا بهم في السجن، وتفرعنوا وتألهوا ورفعوا التماثيل وحرروا البغاء وأهدروا المقدسات.. أليس هذا في كليته وفي جزئياته مازوشية مأساوية فظيعة، أم هو مجرد عنفوان اقتضاه الحكم والسياسة والتفرعن؟ أم أن المازوشي هو من تعفف عن الآثام وتسامى عن الهراش السياسي وأدبر عن ولائم الأهواء وقال للناس: حسبي الله؟

إنهما خطان متوازيان ومذهبان نقيضان محكومان ببواعث متباينة وخلفيات متغايرة.

ففيما تَمَسَّك الأول بأصالة الروحية ودعا إلى الاستمرار على نهج السلف مع بذل كل ما يقتضيه الاستمرار من تجدد ومن إعادة الاعتبار للمقومات، نبذ الثاني القيم والهوية وانقلب على المقومات يدوسها ويتبرأ منها، ومضى يصادر الذاتية في ضراوة واستعار ونقمة استهدفت الاسم والرسم، وطالت الجذور بدعوى النماء المتجدد، فلم يكن الناتج من وراء ذلك إلا تيبسا وموواتا معنويا شنيعا، وكل ذلك لأن الدوافع كانت مرضية مازوشية والمقاصد استيلابية فتاكة ..

داء الاستيلاب[63] يصيب ذوي الاستعداد الروحي الخائر، ويخترق النفسيات المهزوزة، غير المحصنة.. النفسيات التي تعاني من التسوس ومن عدم الامتلاء ومن المازوشية. وتتنوع مظاهر الاستيلاب وتودي بالأفراد والجماعات على حد سواء.

---

[63] قد يكون من المفيد جدا القيام بدراسة تقابل بين حياة النورسي وحياة بعض ألدائه، وحتما ستكون النتائج حاسمة، لا سيما إذا أخذت بعين الاعتبار عوامل التنشئة الطفولية.. نقول هذا ونحن لا سابق معرفة لنا بتفاصيل حياة وماضي أحد ما عدا النورسي.

ويصبح الاستيلاب بدون شك عضالا مرعبا ومازوشية رهيبة عندما يغدو بلاء مستطيرا وفداحة تتهاوى بالأمة بكاملها في درك الانحدار..

لقد أفلح المستعمر في أن يجر قاطرتنا المعطلة بنُخَب استصفاها بما ثبُت لديه من مازوشيتها، فمكن لها من الأمر وسلطها على الأمة، وتركها تؤدي فعلها التدميري الشرس وتلقي بنا إلى الهاوية. ولم يستبق السلطة والصولجان في يد الأنظمة الفاسدة إلا لأنها لا تغفو لحظة عن إشهار السلاح على شعوبها، وليس إشهار السيوف إلا فعلا سادو - مازوشيا سافرا، يغذي نزعة الضراوة والفتك والكلبية المتفاقمة في نفوس أصحابه .

نشأ النورسي نابغا، وسلخ أطوار الطفولة دون العاشرة مكنوفا بالمرحمية العائلية، غائبا عن كل ما كان يخرج عن دائرة ذلك التوق الذي طفق يشده إلى وظيفة قدرية لا قبل للأتراب ومن كانوا في سنه بالتطلع إليها، حتى إذا بلغ مبلغ الفتوة انخرط في سلك الحياة العامة عالما يتصدر الفتوى، ويحتكر الرأي بأهلية وسبق، لقد أضحى عالما تتنافس على التقرب منه الشخصيات العريقة والوجاهات العتيدة كل ذلك في كنف من رعاية الأهل والحماية المعنوية التي يكفلها القرآن لحامليه من الأطهار. فأين هو محل هذا الحرمان الذي يمكننا أن نعزو له نقصا في سيكولوجية النورسي؟

وسنكرر تارة أخرى طرح السؤال السابق، هل تحول النورسي عن مسيرة حياته بعد صدمة ويأس وتغير من حال إلى حال؟ نعم، حدث ذلك ظاهريا ؟

ألا يكون ذلك دليل تحول نفسي قاطع، مرده النوازع المكبوتة ؟ كلا.

ذلك لأن النورسي الذي كان اجتماعي المنزع والقابلية، وكان في مراحل حياته الأولى دائبا على دعوة الناس إليه بلسان الحال والمقال، قد كف نفسه حقا - في مرحلة التجدد - عن حياة الاجتماع في شكلها المعهود، وآثر العزلة والانقطاع بعد تلك الصدمة، ولكن ليس ليدشن سيرة حياتية أخرى بديلة لسيرته الأولى .

كلا، إذ أنه استمر في خطه القرآني ولم يحد عنه قيد أنملة، وكل ما هنالك أنه تفرغ كلية لأداء الوظيفة التي انبرى يؤديها منذ النعومة: الوظيفة التنويرية. وظل مع ذلك محتفظا باجتماعيته، بل لقد مارسها على أوسع ما يكون المراس، إذ أوجد له المحفل الحضوري الذي أضحى يتلقى عنه العلم بروح التابع والتلميذ والمريد.

لقد استطاع النورسي أن يؤسس برلمانه وحكومته ومؤسساته وجامعته الزهراء ومجتمعه المدني المفتوح على الفئات والطوائف من دون تمييز، وأن يتوج نفسه عن طريق الإخلاص رأسا للهرم. لقد استمر على نفس حال التحدي المعرفي والخيلاء

الاستشرافية من خلال نهج رسائل النور، ومكنه الابتعاد عن المازوشيين الحقيقيين أن يكون صدارة اجتهادية من خلال تأسيسه للون معرفي فقهي حضاري، هو الفقه الأكبر الذي أناط به، ليس النوازل الحياتية المستجدة فحسب، ولكن التخطيط الحضاري الاستراتيجي المنوط بفتوح المستقبل القريب والبعيد.

وحيث أنه كان يدرك أن فسحة العمر لا تسع جسامة الانبعاث، ولا تستكفل إلا بمهمة إرساء القواعد له، فقد أحال مهمة إكمال الصرح إلى الإنسان الكامل الذي سينير السبيل في وجه الأمة، وقوام هذا الإنسان الكامل هو العطاء الجماعي لطلاب النور.

النورسي وحال العزوبة

مما لاشك فيه أن للعزوبة وطأة على الإنسان لا تنكر، والإسلام حين حض على الزواج لم يخرج عن الفطرة، لكن العزوف عن الزواج ظل وفي كل الحضارات رياضة روحية يتعاطاها الفضلاء وأهل القداسة، وكانت سيرتهم تلك تؤهلهم وتزيد من مكانتهم في أعين الناس . وقد اختار صالحون ومتصوفة شهيرون في الملة الإسلامية طريق العزوبة فلم يعتبر ذلك منهم نقصا ولا ظلما للذات ولا إعناتا لها وتعذيبا، وإنما اعتبرت تجربتهم تطهرا وتعاليا وتقدسا، وشهدت لهم بالسمو والرجاحة بين الناس..

على أنه من الثابت أن لجام النسك والتبتل - الذي هو اختيار إرادي لا قهر فيه - يستأصل من النفس كل توق وكل ذوق شهوي لدى الأتقياء، فلا يكابدون أي عنت في هذا الصدد، بعكس المنغمسين وأصحاب الشهوات، فإنه يتعذر عليهم كف أنفسهم، إذ أن نفس المدمن لا تستجيب بسهولة لوازع الكف.

من هنا تتبين لنا سلامة وسمو وطهر النورسي ..

لقد عاش منكرا لذاته، وإنكار الذات إذا ما تأسس على قاعدة التقوى ومخافة الله، فإنه لا يعد أبدا غلواء وإنما هو جلال وعظمة. لقد عاش عاكفا في صومعة الجهاد، وأفنى العمر ينافح ضد المخاطر المحدقة بالأمة، ولم يسعه في خضم المأساة إلا أن يعيش العصمة على أكثر من صعيد، وكان ذلك كله توفيقا من الله وفضلا، إذ بما كَدَّ و جَدَّ ها قد أضحى بيننا قطبا شامخا من الصالحين، لا تفتأ أعماله تنير وتلهم وتحصن .. جازاه الله عن المسلمين أجزل الجزاء ..

أجل لقد أحب النورسي نفسه بشغف، إذ اختار لها من اللذات الأبقى، وآثر لها من النعم الأدوم، وأحب أمته، إذ انحاز إليها حين تفرقت العصب وتعددت المسالك

والأحزاب ولم يخذلها، وتجند بروحه وبفكره ينافح عنها، ويدفع عنها، ويمعلم لها الطريق بما تنزف به روحه من وهج، وأحب الإنسانية وصاول عليها ضد انتهاكات المدنية الرأسمالية بروحيتها الماكرة.

من عرف نكهة اللذة الطبيعية البشرية فهل يعني ذلك أنه قارفها؟

سؤال نتجرأ على طرحه ونحن بصدد تمحيص جانب آخر من طوية النورسي رحمه الله ودخيلته، هو الإنسان الريفي الذي لم يكن ينتقص من قوامته الرجولية شيء، لا على صعيد الخلقة ولا على صعيد التجربة الحياتية الفتية التي عاشها.

إذا ما تفحصنا سيميا الصورة الفوتوغرافية الشبابية التي استقرأنا خطوطها سابقا، فلا شك سنجد أن جملتها وتفاصيلها تؤشر لانفتاح شهي على الحياة وتواصل رخي معها، إذ خطوط تلك الصورة وملامحها وأبعادها الماثلة والمرتسمة تستجمع كل آثار الهناءة والإمتاع والخلابة المظهرية من شباب وجمال وأناقة ومقامية..

حتى تقاسيم الوجه فيها غضاضة وطراوة مهيأتين لمعانقة الحياة وملابستها على نحو أو آخر.. بالإضافة إلى هذا فقد وجدناه هو نفسه يؤكد واقع الهناءة الذي عاشه في تلك المرحلة الفتية من حياته، وهي مرحلة كما نعلم تتميز عند الإنسان بالفوران، بما تظهره النفس خلالها من حب للحياة وإقبال على تذوق مباهجها ولذائها، فأخطر مزالق الفرد يتم عادة خلال مرحلة الشباب، لا سيما إذا ما كانت الظروف المحيطة به تتميز بمستوى من الانطلاق والاعتداد كالذي كان عليه النورسي يومذاك وهو شاب عالم يعيش عنفوانا في عاصمة جمعت ألوان المفاتن الشرقية والغربية : استانبول.

إن تتبعنا لشريط حياته تتبعا كرونولوجيا تعَقُّبيا، لم يتح لنا بتاتا أن نجد الفسحة التي يمكننا أن نقول إنه هادن فيها ضوابطه الأخلاقية الصارمة.

إذ لم نجد أية سانحة زمنية تعاطى فيها النورسي ما يمكن أن يصله بمجال يتحلل فيه من ضوابطه الدينية الصارمة. لا أثناء الفترة التي تلت رجوعه فارا من السجن ولا قبلها ؟

إذ أننا نعرف أن النورسي قبل تلك المرحلة طفق يتحدى الأشهاد من أهل العلم والشريعة في مضمار الظهور العلمي والفتوى، ثم تلا تلك المرحلة اشتغاله في الكفاح المسلح. أما حين عاد إلى استنبول بعد واقعة الأسر، فقد وجدناه يخبرنا عن حال التبتل التي عاشها هناك، والتي كانت مجال تعجب العلماء والمعارف ممن كانوا يحتكون به ..

ألم يحدثنا عن قصة تَرَصُّدِهِ من قبل زملائه العلماء، بعد الذي رأواه عليه من شباب وما كان يظهره من اعتناء بهندامه وتأنقه الخارجي.. لقد انتهى أولئك الأصدقاء العلماء إلى الإقرار بما يقطع بطهارته وبراءته مما كان ساورهم حياله من ظن ..

وطبيعي أن يساورهم حياله الظنٌّ، ألم يكن بشرا تجري عليه أعراض النفس الأمارة؟

ثم ألم يخبرنا – من جهة ثانية - بما يكشف لنا عما كان عليه شأنه طيلة تلك الفترة، حين وصف لنا – مثلا – مشهد سياحته مع زملائه العلماء، إذ طافوا به بعض المنتزهات البحرية، حيث كان الشاطئ يعج بالنساء، وما رأوه يومها من تمنعه عن التطلع إلى تلك المشاهد، وهو ما جعل الرفقاء في حيرة وإعجاب حينما تنبهوا إليه وقد نكس وحبس نظره لئلا يخدشه حرام.

إنها الحال نفسها التي عاشها في قصر ذلك الملا الكريم الذي شرَّع له بيته ومازجه بمحارمه البنات. لقد استغرقته الأشهر والمواسم وهو لا يميز بينهن حتى طلع عليه ضيف آخر متعالم، فلم يمض عليه في رفقته إلا يوم أو يومان حتى راح يسميهن ويعجب أن لا يكون النورسي يعرفهن.

ثم ألم يحدثنا النورسي عما خامر بعض طلابه في مرحلة العكوف القرآني، إذ تطلع هذا المخلص إلى أن يعرف عن شيخه ذلك الجانب القاهر في حياة الإنسان، لكنه استحيى ولم يبد لشيخه ما كان في نفسه، فما كان من الاستاذ اللبيب إلا أن يحيب تلميذه بكل بيداغوجية ورشد.

لقد شاء النورسي بالكشف عن هذا الموقف بالذات أن يجيب عن سؤال يدرك أنه يخالج كل من كان يحتك به أو من سيقرأ سيرته (الرسائل لاحقا).

لقد كان النورسي يريد أن يميط اللثام عن ذلك الجانب المثير حقا من تجربته التبتلية السامية، والذي يدعو فعلا إلى التساؤل، بل وإلى الدهشة وتداعي الاحتمالات من قبيل ألم يكن النورسي معيقا من تلك الناحية الخِلقية ؟.

لاشك أن استقراءنا لسيرته، قد بين بما لا لبس فيه أن شخصيته كانت سليمة سوية، وأنه لم يكن يعاني من أي نقص، وأن قوامته الرجولية إنما كانت على أكمل حال من القوة والسلامة. ذلك أنه لم يعش في سائر مراحل حياته إلا مجاهدا آخذا بخلق التماسك إزاء الوقوع في الشهوة، إذ لا نحسب أن شخصا لم يكن سويا، كان يصطنع كل تلك الحواجز الالجامية بينه وبين الأنثى..

إن تعهد نفسه بالغض الدائم لا يعني سوى أن رجولته كانت تقتضي الإلجام المحكم. وهو ما دأب عليه والتزمه وحض عليه استيفاءا للطهر ونشدانا لدائم اللذة وأشهاها، لذة الخلود.

لقد عاش النورسي التبتل المطلق، بكل بسالة وتعهد. الأمر الذي انتهى به بعد مكابدات إلى أن يرتقي إلى مقام الصديقية.

على أن النورسي لم يكن في سيرته التبتلية تلك يعيش ضربا من الترهب الذي ينبذه الإسلام، لقد كانت السنة النبوية مورده العذب بعد كتاب الله المبين، فالرسائل خصصت صدارة واسعة من متنها لإبراز الأنوار المنبلجة من نصوص الحديث ومن وقائع السيرة النبوية الشريفة. فالنورسي لم يكن ليخالف السنة في أمر كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تؤكده، إذ الرسول تزوج وشدد على الزواج، وحرض عليه وبين العلة الظاهرة وهي المباهاة يوم القيامة، وهي بلا ريب علة تحفيزية، تكاثرية، تتضمن مقصدا ترشيديا، يتمثل في وجوب امتلاك القوة التعدادية صونا للرسالة.

لكن النورسي عاش عزبا، لم يقترن بالزوج، فهل كان خارجا في هذا الأمر الحيوي على دائرة السنة ؟

تطرق النورسي إلى مسألة الزواج في كثير من مواطن الترشيد التي كان يتوجه فيها بالحديث إلى الشباب، فتيانا وفتيات، ويمكننا في تلك المواطن أن نتتبع بيانات وافية تمثل رؤية مرشدة للموضوع.

أما في ما يخص موقفه هو بالذات من الزواج، فقد وجدناه قد تعرض إليه في بعض رسائله حيث بين سبب عزوبته، وهو أن المرحلة التي عاشها كانت من التفاقم والفوران بحيث لم يسعه أن يعيش موزع القلب وهو يخوض غمار الجهاد من أجل الإسلام الذي رأى رايته تنكس على يد الأعداء، إذ أن مرحلة الردة التغريبية كانت من الضراوة بحيث لم يسع إنسانا في مثل جيشان النورسي أن ينشغل بغير المصاولة والمجاهدة.

لقد اقتضت افتدائيته للإسلام يومئذ - كما صرح مرارا - أن يعيش مرابطا، حتى لا تتسلل روح الوهن إليه تحت ضغط روابط أسرية أو اجتماعية أو غيرها.. وهو ما يفسر دعوته يومئذ للأتباع وإلى من يستطيع منهم أن يحجم عن الزواج أن يفعل، ذلك لأنه كان يرى أن المعركة الالتحامية بين الحق والباطل كانت من الشراسة بحيث لا

يسع البقاء في ساحها إلا لمن رابط بحق وقطع روابطه بأسباب الحياة إلا سبب الجهاد في سبيل الله..

لقد صام النورسي عن اللذة الدنيوية، وكان ذلك توفيقا آخر من الله، هيأ له كرامة جهادية خالصة، تضاعف له فيها ثواب المعصومية على قدر ما تكبده من حرمان دنيوي على أكثر من صعيد.

على أنه يتيسر علينا أن نقف عند بعض ما كتب النورسي عن الفتوة وغليان مراجلها لندرك أنه كتب ذلك بروح من لم يترك ماضيه الشبابي في نفسه أدنى إحساس بندم أو مرارة، وما ذلك إلا لأن ماضيه كان طاهرا، نقيا، معصوما ومبرأ من أي شائبة زيغ:

" نعم إن عهد الشباب نفيس حقا وثمين جدا، وهو نعمة إلهية عظمى، ونشوة لذيذة لمن عرف واجبه الإسلامي، ولمن لم يسئ استعماله، ولكن الشباب إن لم تصحبه الاستقامة ولم ترافقه العفة والتقوى، فدونه المهالك الوبيلة، إذ يصدع طيشه ونزواته سعادة صاحبه الأبدية وحياته الأخروية، وربما يحطم حياته الدنيا أيضا، فيجرعه الآلام غصصا طوال فترة الهرم والشيخوخة لما تنعم به من مذاقات ولذائد في بضع سنين."

ويسترسل معبرا عن راحة الضمير التي كان يجدها حيال ماضيه الشبابي المبرإ من السقطات، فيقول :

" ولما كان عهد الشباب لا يخلو من الضرر عند أغلب الناس، فعلينا إذن نحن الشيوخ أن نشكر الله شكرا كثيرا على ما نجانا من مهالك الشباب وأضراره، هذا وإن لذات الشباب زائلة لا محالة كما تزول جميع الأشياء، فلئن صرف عهد الشباب للعبادة وبذل الخير والصلاح لكان دونه ثماره الباقية الدائمة وعنده وسيلة الفوز بشباب دائم وخالد في حياة أبدية "[64].

ترى هل يسعنا بعد كل هذا إلا أن نجيب عن سؤالنا الذي بدأنا به مطارحتنا، والذي قد لا يخلو من سذاجة لولا المقاصد الترشيدية، وهو هل أن معرفة اللذة تعني مقارفتها ؟

والجواب طبعا كلا. بدليل أن معرفتنا للذة الخمر لا تعني بالضرورة أننا عاقرنا الصهباء ؟

إذ إن هناك معرفة سبقية كما يقول الفلاسفة فطرية وأخرى حدسية لا يتعلمها الإنسان ولكنه يعيها في نفسه ذاتيا .. لا سيما ما اتصل بالغرائز. فبهذه المعرفة

[64] سيرة ذاتية 157

الفطرية نتحسس ونتذوق ونعرف اللذة والألم، وبها يميز الصبي بين الوجه الأليف والآخر المنفر.

9- النُّوْرْسي وجذور رؤيته الإنسانية

استوعب النورسي معنى الإنسانية ضمن وعي ديني كوني مفتوح على العالمية..إذ الإسلام هو دين الله الذي لا يقيم الحواجز بين البشر وإن ألحدوا، وإن تباينت عقائدهم. فالمسلم يؤاخي في التوحيد اليهودي والمسيحي والكتابي عامة، ولا يرى فيهم أعداء أو خصوما ما كان الاحترام والقسطاس مرعيا بينهم، بل ويؤاخي كذلك الملحد والوثني بحكم الرابطة الإنسانية، ويشفق عليهما ولا يهينهما أو يزدريهما ما بقيا في حدود قناعتهما، ولا يسعه عندئذ إلا أن يتمنى لهما الهداية.

ذلك لأن النورسي يرى في مخلوقية الإنسان ذروة الإعجاز الذي شاء الله أن يجسد من خلاله قدرته ومطلقيته، إذ الإنسان هو تاج الوجود، وكل ما أبدعه الله من أكوان ونعم وأفضال، إنما هي لفائدته ولتكريميته:

"كذلك الإنسان الذي هو ثمرة شجرة الكائنات، إذ المقصود من إيجادها إنما هو الإنسان، وغاية إيجاد الموجودات هي الإنسان، وبذرة تلك الثمرة قلب الإنسان، وهو أنور مرآة للصانع الجليل وأجمعها" [65].

كما نشأ إدراك النورسي لمعنى الإنسانية من خلال صلة روحية وعضوية جمعته برائع النماذج القطبية التي تواصل معها بواسطة ثقافة بيته الصوفية، حيث كان - وسيبقى - الضمير الجماعي لتلك البيئة يكبر ويمجد تلك النخب الصالحة من الأقطاب، والتي كانت سيرتها كما تواترت وتلقتها الأجيال، مجالا للعظمة والكمال والقدسية.. من حيث طفق الوجدان الفردي والجمعي يستلهم شواهد التضحية والصبر والتجرد والسماحة والبذل.

لقد أنبأتنا سيرة النورسي واعترافاته أنه ظل منقادا إلى تأثير الأفذاذ من رجال التصوف وأهل السلوك، وأنه انحاز إليهم بمواجده وأن خميرة قيمه الإنسانية تأتت من نفاذ ذلك الوهج المعنوي الذي كان يتلقاه من سيرتهم. لقد تسامى هؤلاء القديسون الأطهار ونظروا إلى الكون والوجود من منظور رباني، فأضفوا محبتهم وسماحتهم وكرمهم على كل شيء، لاسيما على الإنسان، فلا غرابة أن تغدو البشرية جملة قريبة إلى قلوبهم يعطفون عليها ويرأفون بها وينظرون إليها بعين الإشفاق..

على ذلك النهج سار النورسي، وفي ظله تشكلت رؤيته للكون والإنسان، وعلى خطا الأطهار بلور عقيدته ونظرته إلى الكون وعلاقته بالمخلوقات وفي مقدمتها

---

[65] الكلمات.734

الإنسان.. فلا عجب أن تتفتح دعوته على الإنسانية قاطبة، وأن تتميز رؤاه ببعدها الشمولي الذي لم يغفل أي بعد من الأبعاد المحققة لفردية الكائن البشري، باعتباره المخلوق المكرم في هذا الكون.

لقد ارتكزت روحية النورسي على دعامة الإيمان بالله، فتواصلت أعماقه مع الله وتواشجت مع مخلوقاته وفي طليعتها الإنسان. لقد ورث عن بيئته الأولى حسا توحيديا حيا، فالانغلاق الذي عاشته بيئاتنا التقليدية كان له فضل كبير على حفظ القيم وصون الإيمان، حيث إن جو الانقطاع الاجتماعي الذي تعيشه القرى والمداشر يعزز قابلية التوكل على الله، ويقرب عالم الغيب إلى النفوس، فثقافة العزلة نفسها تشحذ روح البسالة والتوكل على الخالق فهي من ثمة سبيل معزز للإيمان.

ذلك لأن النفوس في رتابتها المعتادة تعيش التفرغ، ولما كان التفرغ في البيئة الإسلامية يعني التوجه إلى الله والاشتغال بما يعطي للحضور الإلهي كثافته ومحسوسية على صعيد الروح والنفس، فقد تكيفت روح النورسي منذ نشأتها على هذا الحضور الإلهي الذي يلازمها أينما توجهت، الأمر الذي ولد في النفس هذه القوامة التي تترتب في كنفها النزعات والمطالب.

ثم إن العقيدة الإسلامية بما تحمل من منظومة قيم ومبادئ إنما هي عقيدة إنسانية بلا منازع.

إذ الطبقات العليا من رجالاتها، ممن يعدون مناط القدوة والأسوة بدءا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان، يعتبرون جميعا مصادر شحن وشحذ للهمة والرحمة والسمو. كما أن أحداث التاريخ الإسلامي تعد صعيدا حافلا بوقائع السماحة التي تشمخ بها معاني الإنسانية. وكلها تعاليم وقيم تمرس عليها النورسي، وتشبع بها، وحملها شعاراتٍ، واتخذها سلوكا ورسالة عمل على تحقيقها بكل استماتة .

لكن النورسي عاش في مرحلة تأجج فيها الصراع الحضاري بين الغرب والشرق على أشرس ما يكون التأجج، فقد استأنف الغرب حملاته الصليبية واستهدف بها العالمين، يستأصل الأمم ويهجرها بالملايين من قارة لأخرى، ويمسح الشعوب تدجينا لها لتتقبل وجوده وسيادته عليها، وكان صراع الصليبية مع الإسلام ذروة المخاض العراكي الذي شهده القرنان التاسع عشر والعشرون، الحقبة التي عاشها النورسي، واصطلى بلهبها.

تلك هي تقريبا الأسس التي ارتكزت عليها إنسانية النورسي، هذه الإنسانية التي سنراها تتخصب وتغتني في تالي مراحل حياته.. حيث سنجد الرؤية تتكيف مرتين، الأولى يوم دخل استانبول نكرة لا يعرفه أحد تقريبا، فقد كان طبيعيا في ذلك اللقاء الأولي بالمدينة أن يتوسع إطار الوعي لديه وتمتد ظلال الفهم وتتخصب الرؤية بأبعاد أخرى يتعزز في ضوئها وازع إنسانيته.

كما أن عودته إلى نفس الصعيد المدني، من خلال ملابسة الأوساط المدنية ومرجعيات المجتمع الحضري، أثناء الحرب الكونية الأولى، قد عمق ذلك التكييف الذي رأيناه يتعهد به مثله وقناعاته الإنسانية .. وهو ما أسفر عن تحول في المسيرة، تحول جعله يختار موقعا أكثر استراتيجية في تفعيل الأحداث والتاريخ، وفي تكريس رؤيته الإنسانية المستمدة من القرآن..

لقد نضجت رؤيته الإنسانية في كنف الحياد والتسامي والتأمل .

حقا إنه نافح عن الإسلام والمسلمين، وصاول عن انتماء وحضارة، لكن العقل يثبت أن دفاعه عن تلك القيم والمقومات إنما كان دفاعا عن الإنسانية، إذ لم يكن الإسلام يوما - ولن يكون - إلا حضارة مشرعة للعالمين، ومثابة تمحي فيها العصبيات والانتماءات، إذ الانخراط في سلك الإسلام انخراط في الكونية بأسس حددها الله، وأثبتت القرون من الازدهار الحضاري الإسلامي أنها ـ حقا - أسس تستجيب بأصالة لمفهوم العالمية والتآخي والانتماء القدسي الذي تزول معه كل الاعتبارات الشكلية والوضعية المميزة بين الآدميين.

لم يكن تمجيد النورسي للترك والعرب عصبية وانحيازا يتنافى مع المثل الإنسانية التي حملها، ولكنه كان تمجيدا للكونية الإسلامية التي جسدت على أرض الواقع مبدأ المساواة، وبينت كيف تتعاور الأمم والشعوب على صعيد الإسلام حق وشرف حمل الرسالة المحمدية، وكيف لا يقف دون حيازة شارتها القدسية - الخلافة - الاعتبار القومي أو الروحي..

إن روح النورسي - بكل تأكيد - سوف تبادر من عالمها الأخروي إلى التنويه وتعظيم كل قبيل من أهل الأرض يكتب له أن يشمخ براية الإسلام ويتطاول بعزة القرآن ويدفع بها إلى العالمين، كيفما كان لون هذا القبيل أو موطنه أو ماضيه.. ذلك لأن المنظور الذي قوَّمَ به النورسي البشرية منظور رباني لا تمايز بين الناس فيه إلا بالعمل الصالح.. وأي عمل صالح أسنى من رفع راية الإسلام وإشهارها بين العالمين،

فبذلك العمل الصالح مجد النورسي كلا من أمتي الترك والعرب، وكان تمجيده لهما يندرج ضمن سياق إنساني لا شائبة فيه من عرقية أو شوفينية أو تعصب.

شهد النورسي عن كثب عالما متفجرا تتعارض فيه الرؤى السياسية والإيديولوجية حيال الإنسان والحضارة والكون والوجود، ورأى كيف أن الغرب الطاغي يعنت الأمم والشعوب المستضعفة ويرغمها على الرضوخ إليه بالقوة والسلاح أو بالدس والاستغواء..

عاين النورسي من موقعه الاعتكافي ذلك التعارض الحدي الذي كان يميز أوضاع كل من الإنسان المسلم المقهور والإنسان الغربي القاهر، وتفجع بعدم تكافُئ الشروط الصراعية بين الجانبين، وزاده أسى أن يرى توفيقات الغرب العلمية والتقنية والحضارية لا تلطف من غلواء طغيانه ضد الشعوب والإنسانية، ولكنها تسَعِّر منها قدما.

لقد كان يدرك أن الحلبة تجمع بين انتماءين وبين نموذجين حضاريين لكن أوضاعهما الراهنة تباين بينهما قيمة ودينامية وتوجها وفاعلية.. لقد كان الإنسان الأول يرسف في قيود الماضي الشائه، ضحية للانحطاط ولحال متفاقمة من الابتلاءات والصدمات.. وكان إلى ذلك مدعوا للانتفاض وإنجاز الانبعاث في إطار كوني تبليغي تؤهله له رسالته القرآنية لو وجد إلى الرشد سبيلا .

فيما كان الآخر منتصبا بخيلاء، مشهرا سيفه بجوع إلى الفتك، يدوس بقدميه كرامة الإنسانية ويضرب مقدساتها .. لقد كان هو الآخر ضحية لأحوال مدنية راهنة تكرست فيها اختلالات متوارثة وجهت العقل في وجهة الظهور العلمي المتوحش غير المقيد بالضوابط الإنسانية. لكنه مع ذلك كان يتوفر على خمائر جوهرية من الفطرة والتوفيق ما أيسر عليها أن تترشد وترقى إلى علياء المثل لو التفتت إلى الدين الحق، وهو ما كان يجعل النورسي يتوقع للإنسانية الخير، ذلك أنه كان يرى أوروبا حبلى بالإسلام، وهي مرشحة إما للإسلام وإما لترشيد مسيحيتها بما يقربها من القرآن ويدرجها ضمن نهجه، وعندئذ ترتقي البشرية الارتقاء الحق وتهتدي إلى سواء السبيل وتتعزز إنسانية الإنسان.

لقد كانت مقاصد الدعوة النورية هي استنقاذ ما تبقى من إنسانية الإنسان في كلا المعسكرين، فتجديد همة المسلم هي عودة به إلى فطرته الخلاقة وإلى استنارته التي لا تزيغ بها أوهام بشريتها، كما أن تدثير الإنسان ببردة الإسلام هو قمة تكريمه، لما يترتب عن ذلك من تغيير كلي يمضي به على طريق الصلاح .. لقد توهمت المدينة

المسلمة أنها بتقمص أوضاع المدنية الغربية ستتخلص من أوحالها، ولم يعتم الإنسان المسلم أن وعى إفلاسه، لكنه عجز عن الخلاص ولم يستطع فكاكا عن مأساته، بعد أن أضاع ليس المثل فقط، ولكن إلى ذلك القابلية والفطرة والاستعداد للخير، وكل ذلك جراء انغماسه..

فالضرر الذي لحق المسلم ضرر مزدوج، فهو من جهة محبط بأعباء الانحطاط، وهو من جهة أخرى منسحق بما طرأ عليه من تبعات التمدن السطحي، فعاش الفاجعة.

ضمن هذه الجدلية الحضارية الحادة نهض النورسي وفي يده كتاب الله، يدعو إلى سبيله بالموعظة والحسنى، غايته تعميق الروح الإنسانية في الإنسان من خلال بث تعاليم القرآن.

الإنسانية المعاصرة.. على حلبة الصراع الحضاري:

جدلية التعايش ضمن الاختلاف:

لا ينكر النورسي أن اختلال مسطرة التوازن الاقتصادي قد انعكس بآثاره السلبية على مسطرة المعايير والأخلاق البشرية، فاختلت من ثمة العلاقة بين الفئات والمجموعات، بل وبين الشعوب والأمم، وهو ما حول الكرة الأرضية إلى مسرح للعراك المستديم.

يقول النورسي :

"إن أس أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنما هو كلمة واحدة: إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع" [66].

فأنانية الإنسان، وأنانية الشعوب والمدنيات، القائمة على ابتزاز الآخرين وهضمهم وسلبهم أسباب العيش والحياة هو ما يفاقم من أسباب التناحر والحروب، فشعار :

" اكسب أنت لآكل أنا واتعب أنت لأستريح أنا." لا يترك مجالا لتعايش أو مسالمة أو تفاهم .

" فالعيش لا يكون إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام " [67].

و شعار القرآن الذي جاء ليستأصل كل أسباب النقمة والحقد والعدوان هو: "أوصدوا أبواب الربا لتنسد أمامكم أبواب الحروب"[68].

---

[66] الكلمات 474

[67] الكلمات 474

[68] الكلمات 474

لقد سجل النورسي رحمه الله - وبوعي ألمعي - أن قوى الصراع الحضاري في عالم اليوم إنما تقوم على تصادم بين منظورين ورؤيتين وفهمين للإنسانية: رؤية كافرة تمجد القوة وتعتمد التخضيع، وأخرى مؤمنة تقوم على مثل المحبة والسماحة وعدم الإكراه.

ولما كانت شروط الجانبين غير متوازنة من حيث القوة المادية، فقد أسفر الصدام عن ظهور غالب ومغلوب، وهو ما جسدته الظاهرة الاستعمارية كما عرفها العالم في القرنين الماضي والحالي. تلك الظاهرة الجائرة التي هشمت بقرنها الغاشم قيم الكمال والإنسانية، حيث انحرفت القوى الاستعمارية بالمبادئ والمثل الإنسانية وتجاوزت بها نطاق الفطرة ووظفتها في طريق استئثاري، ابتزازي، لم يؤجج الصراع على صعيد الحضارات والأديان فقط، ولكنه انتهى بتفجير المعسكر الغربي الاستعماري ذاته من خلال حربين عالميتين.

وجاءت الديمقراطية - التي روج لها الغرب - بمبدإ تنوع الاختيارات، لكنها عملت باستماتة على تكريس النموذج اللائكي الغربي، قضاء على الآخر.

كما أن المدنية الغربية التي فرضت نفسها كنموذج من خلال التطور الكبير والمطرد الذي حققته على مستوى التجهيز المادي، قد تقهقرت بالبشرية على صعيد القيم والاخلاق، إذ خلقت نزوعات شريرة أخرى في الإنسان استطار بها شر المدنية المعاصرة وبات يهدد البيئة والكون والوجود كله..

لقد سجل النورسي أنه على قدر ما تحقق للمدنية الغربية المعاصرة من قفزات علمية ومنجزات مادية وارتفاقية، بقدر ما انتكست في مضمار الروح وقيم الخير والفضيلة وفي سائر المثل الإنسانية.

لقد تركز الجهد والاجتهاد الذي طفق يبذله الإنسان المعاصر على تحقيق الربح بلا ضوابط، والمكاثرة الكسبية بلا قيود، والامتلاك الأعمى من غير حدود.. الأمر الذي ضرب في العمق مسطرة الشرف والعدل، وأصاب في الصميم مفاهيم الأخوة والإنسانية..

لقد أفرزت المدنية الغربية مورثات خلقية مناقضة للفطرة، وبنى العالم الغربي - مُصَدِّرُ المدنية الحديثة - نسيج القيم التي يتداولها على غير الحكمة، إذ ضبط سُلَّمَه المعياري على منطق أخلاقي معارض كلية لتشريعات الله وتعليماته..

ولعل أهم مخالفة خطيرة تتسجل على الضمير الإنساني في زمننا الراهن - كما لاحظ النورسي - تعامله في المجال الاقتصادي بالربا. فالمؤسسات المدنية بإقرارها

لأخلاق التعامل الربوي قد اختارت مشاقاة الله من جهة، وسدت - عمليا - باب التكافل والتعاون والتساند الذي هو من طبيعة البشر ما اطردت سلامة فطرتهم..

ومعلوم أن اعتماد الربا هو مبدأ محوري في منظومة التعاليم الصهيونية، فقد قرر كتابهم – غير السماوي - مبدأ الاقتراض بالربا لغير اليهودي، ذلك لأن هذا الكتاب قد اختار لهم أن يقيموا علاقة عداء مع الغير على مختلف الأصعدة، فلا عجب أن تعم روح العداء تلك، أقطار العالمين جراء تعامل الأمم والمجتمعات بالربا..

فالاختلال الذي أصاب المثل الإنسانية في الصميم نشأ عن هذه الروح الابتزازية التي كرستها مدنية الغرب اليهو - مسيحية، فلا غرابة والحال تلك أن تتضعضع أسس هذه المدنية لأدنى رجة.. بل لا عجب أن يتداعوا، وخلال قرن واحد فقط، إلى حربين كونيتين لحق البشرية جراءهما أهوال وأهوال..

لقد رأى النورسي أن المدنية الغربية قد آذنت العالمين بنظم مادية غاياتها الحقيقية لا تكفل للإنسان إلا الضر والشر والفناء.. فأيادي التدمير المادي تمضي بلا هوادة في تهشيم الفطرة وتقويض البراءة وتهديم القابليات..

من هنا استنفر النورسي المسلمين، بل وحتى أهل الفضيلة من الكتابيين، كي يقفوا سدا في وجه الخطر المادي الداهم .. فالمدنية الحديثة جهزت الإنسان بما يسر عليه كثيرا أسباب الحياة وجعلها رخية، لكنها إلى ذلك شحنته بتعاليم الكفر والجحود والضلال.. بحيث سعت إلى قطع أواصر الإيمان بينه وبين الخالق.

لكأن تلاحق التوفيقات والمنجزات والكشوف المادية التي تحققت للإنسان المعاصر عمقت فيه نزوع الغفلة والسهو والجحود. بل لقد تمادى الإنسان المعاصر من خلال تيارات الزندقة والإلحاد، في النكران، إذ راح يستظهر بفلسفات إلحادية قديمة ومستحدثة في إفشاء الكفر وتوطيد روح الجحود.. بل لقد تفنن الماديون في تحويل النجاحات الإنسانية على صعيد العلم والتكنولوجية إلى شواهد وبراهين إلحادية، تصفي الرب - تعالى الله عما يصفون - وتؤله الإنسان..

ولقد كانت خسارة الأمة الإسلامية فادحة بما انتهى إليها من أفكار وفلسفات وتمذهبات مادية إنكارية. فالأمة التي فقدت كل أسباب النهوض أريد لها أن تسلم الروح بإعلان تخليها عن الدين. وشاء الله لأمته أن تسير - وما زالت تسير - وراء حداة ناعقين انعطفوا بالقافلة جهة التغرب وزعموا للأمة أنها ستبلغ غايتها وتحقق أهدافها في الحياة الكريمة والغد الحافل عن ذلك السبيل النكوصي.

ولقد بات جليا لكل ذي عينين أن ما جنيناه من اعتناقنا لسنن الغرب ومثل حضارته المادية لم يزد أحوالنا التقهقرية إلا تفاقما، إذ بتنا نعقد توكلنا في أخص خصوصياتنا على الغرب، بعد أن خسرنا ونحن نتشبه به، ما كان لنا من بقايا همة ودأب وحمية ومعاندة..

من هنا شخص النورسي للأمة علاج الدين مخرجا لها مما ابتليت به سواء بفعل قرون الانحطاط أو بما أصابها جراء أحوال التفسخ والتحلل التي هي عليها بفعل التغرب والاستيلاب.

لقد رأى النورسي أن على أمة القرآن أن تحتمي بالقرآن في هذه الظروف العاصفة بالبلاء، فمن شأن ذلك أن يهيئ لها الإطار الذي يعصمها من الفناء، لأنه سيكفل لها تخريج الفرد القرآني الذي يستطيع بجدارة الإيمان أن يواجه الكفر ويحقق النهضة و يحتل الريادة..

فمما سجله النورسي في هذا الصدد تناظر القيم التي باتت مجتمعاتنا الإسلامية تتداولها من خلال تناظر شرائح المجتمع نفسها وما تنتحله كل شريحة من أخلاق وأعراف وأصول .. فلا عجب أن تتباين المعايير وتختلف الرؤى وتتمايز التوجهات في المجتمع الواحد عندما تتعدد مصادره الروحية والحضارية والقيمية.. لقد باتت مجتمعاتنا تستجمع تشكيلات من القوى والشرائح تكاد الروابط بينها أن تنعدم. كل ذلك بسبب التأثير السيئ الذي تحدثه المدنية الغربية من خلال آلياتها التغريبية الرهيبة..

لقد لاحظ النورسي أن المجتمع الإسلامي الحديث المتعامل بقيم الغرب وأخلاقيات مدنيته قد بات يتواجه على صعيده نموذجان إنسانيان لكل منهما طبعه وروحيته وصفاته: الإنسان القرآني والإنساني الفرعوني. حيث أن التأثير الاستيلابي الغربي قد أوجد قطاعه من المخترقين من أبناء الأمة، على نحو ما أوجدت التعاليم القرآنية - والحمد لله - قطاعها المحمدي المتوسع ..

فالتغريب هيأ الأجواء التي صاغ فيها نفسية الفرد المستلب وحدد أوصافها الغرورية والانتهازية والتهافتية بحيث " صيّر تلميذه الخاص فرعونا لكن يعبد أخس الأشياء ويرى كل سبب نافع أنه ربه.. متمردا لكن يتمسك بنهاية الذلة للذته. ويقبّل رجل الشيطان لمنفعة خسيسة. وجبارا لكن لعدم نقطة الاستناد عاجز في ذاته بغاية العجز. وإن غاية همة تلميذك: بطنه وفرجه أو منفعة قومه، لا لقومه بل لأجل منفعة

نفسه أو تطمين رقة الجنسية أو تسكين حرصه وغروره، ولا يحب إلا نفسه ويفدي لها كل شيء" [69].

أما الجهد القرآني، لا سيما جهد رسائل النور، فقد تسنى له بفضل الله أن يخرج النموذج الأعلى الذي يسهم في إنقاذ أمته وإعادة العزة إليها " وأما خالص تلميذ القرآن فـ "عبد " لكن لا يتنزل للعبودية لأعظم المخلوقات ولا لأعظم المنفعة ولو كانت جنة. ولين هين لكن لا يتذلل لغير فاطره إلا بإذنه .. وفقير لكن يستغني بما ادخر له مالكه الكريم .. وضعيف لكن يستند بقوة سيده الذي لا نهاية لقدرته.. ولا يرضى تلميذه الحقيقي حتى بالجنة الأبدية مقصدا وغاية، فضلا عن هذه الدنيا الزائلة " [70].

ولن تزال الصدمات والنكسات تتوالى على الإنسان، بسبب ميوعته المكرسة باطراد نتيجة الارتكاس المادي والمدني، ولن تزال الحقيقة القرآنية تتكشف للعالمين بوجوب رجوعهم إلى الله والاعتصام منه بسند، وفي أثناء ذلك كله، يبقى على الداعين لله أن يظلوا متألقين بعزتهم القرآنية، فاشين الخير، باثين السكينة، ضاربين المثل في الكمال والاستقامة والتواضع والأريحية..

ديمومة تجـدد الإنسان تقتضي ديمومة تجديد الإيمان

لقد آمن النورسي بأن الإنسان فاعلية متحركة ومتبدلة وغير قارة على حال إلا بضوابط السكينة والتعهد والترشيد، من هنا ألفيناه يحرص على تسوير النفس بمحصنات تكفل لها الدوام والبقاء على حرارة إيمانها، كي يستمر دورها التعبدي والمدني على مضائه وحيويته.

يقول النورسي :

" إن الإنسان لكونه يتجدد بشخصه وبعالمه الذي يحيط به فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه دائما، لأن الإنسان الفرد ما هو إلا أفراد عديدة، فهو فرد بعدد سني عمره، بل بعدد أيامه، بل بعدد ساعاته، حيث أن كل فرد يعد شخصا آخر .

" ذلك لأن الفرد الواحد عندما يجري عليه الزمن يصبح بحكم النموذج، يلبس كل يوم شكل فرد، ثم إن الإنسان مثلما يتعدد ويتجدد هكذا، فإن العالم الذي يسكنه سيار أيضا لا يبقى على حال، فهو يمضي ويأتي غيره مكانه، فهو في تنوع دائم، فكل يوم يفتح باب عالم جديد. ثم إن الإنسان تتحكم فيه النفس والهوى والوهم والشيطان وتستغل غفلته وتحتال عليه لتضيق الخناق على إيمانه حتى تسد عليه منافذ النور

[69] المثنوي العربي النوري 270
[70] المثنوي العربي النوري 270

الإيماني بنثر الشبهات والأوهام.. لذا فهناك حاجة إلى تجديد الايمان في كل وقت، بل في كل ساعة في كل يوم "[71].

من هنا كانت أهمية المسجد والمراوحة إليه، بل من هنا كان سر دورية الفرائض وموسمية الشعائر .. ومن هنا أيضا كانت فائدة الجماعة والترابط، لما توفره الاحتكاكات من تنبيه وتوجيه وتثمين للعزائم .. فالاستنامة إلى العادة قتل ذريع لحيوية النفس، وتوريث سلبي لطبائع الإعتياد والآلية التي تنتهي بحجب الوعي وكسر الحس وإخماد الذوق وهدر التوق.

لقد كان النورسي يرى للملتقيات أهميتها في تجديد الهمة واليقظة.. ومن قوة بصيرته وجدناه يتلمَّحُ حتى في أحداث اعتقاله المتكررة مع أصحابه فائدة تجديدية، لما كانت ظروف الحبس تثوره في نفوسهم من همة المدارسة وشحذ الإيمان..

لقد كان النورسي يدرك أن طريق الجهاد يورث العناء، والعناء قد يكون مدعاة للانتكاس وضعف الحمية، من هنا أرشد إلى بيداغوجية التذكير، إذ لابد للبرامج الجذرية وذات المقاصد الحضارية السامية أن تتحوط لمشاق الطريق بترياق التجدد والتنبيه والتنشيط، حتى لا يسري التواكل والترك والتسييب.

الإنسان.. معجزة خلقية إلهية

" قد خلق الله هذا الإنسان مرآة جامعة لجميع أسمائه الحسنى، وأبدعه معجزة دالة على قدرته المطلقة.. وخلقه على صورة خليفة الأرض الذي يمتلك من الأجهزة الحساسة ما يتمكن بها من قياس أدق دقائق تجليات الأسماء الحسنى.. وما الوسيلة التي تمكن الإنسان من العروج إلى أسمى مقام وهو مقام أحسن تقويم ضمن ما يملكه من الجامعية إلا الشكر" [72].

من هذه الرؤية قدر النورسي منزلة الإنسان وآمن بخلافيته، فالإنسان عنوان معجزة الخلق بلا منازع، ذلك لأن القدرة الإلهية وهي تصوغه أودعت فيه من القابليات والاستعدادات ما من شأنه أن يجعله يتفوق على سائر المخلوقات العجماء الأخرى:

" قد خلق سبحانه وتعالى الإنسان أيضا نوعا جامعا لكثير من الأنواع. أي أنه قد أراد أن ينجز بنوع الإنسان ما تنجزه الدرجات المختلفة لجميع أنواع الحيوانات، بحيث لم يحدد قوى الإنسان ورغباته بحدود وقيود فطرية، بل جعلها حرة طليقة، بينما

---

[71] المكتوبات 428
[72] المكتوبات 473

حدد قوى سائر الحيوانات ورغباتها، أي أنها تحت قيود فطرية، بمعنى أن كل قوة من قوى الإنسان تتحول في ميدان فسيح واسع جدا، لا تتناهى، لأن الإنسان مرآة لتجليات لا نهاية لها، لأسماء رب العالمين، لذا فقد منحت قواه استعدادا لا نهاية لها" [73].

من هنا قدر النورسي أن مسيرة الإنسان في هذا الوجود الأرضي لا ينبغي إلا أن تكون على قوامة تتناسب مع مستوى التكريم والتشريف الذي خصه به الخالق.. فلا مجال حيال هذه المنزلة السامقة والسامية لأن ينحرف الإنسان ويخون مسؤوليته إزاء الله والكون المؤتمن عليه.

" فلأجل تلك الحكمة العظيمة، خلق سبحانه الإنسان على فطرة جامعة، لها من القدرة ما يثمر ألوف سنابل الأنواع، وما يعطي طبقات كثيرة بعدد أنواع سائر الحيوانات، إذ لم يحدد سبحانه قوى الإنسان ولطائفه ومشاعره كما هو الحال في الحيوانات، بل أطلقها واهبا له استعدادا يتمكن به من السياحة والجولان ضمن مقامات لا تحد فهو في حكم ألوف الأنواع، وإن كان نوعا واحدا .

" ومن هنا أصبح الإنسان في حكم خليفة الأرض ونتيجة الكون وسلطان الأحياء. وهكذا فإن أجل خميرة لتنوع النوع البشري وأهم نابض محرك هو التسابق لإحراز الفضيلة المتسمة بالإيمان الحقيقي، فلا يمكن رفع الفضيلة إلا بتبديل الماهية البشرية وإخماد العقل وقتل القلب وإفناء الروح " [74].

فلا غرابة والحال هذه أن يعتبر النورسي أشنع خيانة عظمى يسجلها الإنسان على نفسه هي المروق والجحود والكفر.. ذلك لأنها خيانة لا ترتكب في حق مقترفها فحسب، بل إنها خيانة في حق البشرية والمخلوقات كافة، لأنها اختراق سافر لما تقدسه تلك المخلوقات، ولما تؤمن به وتوكل إليه وجودها، فالتجاوز الذي يتسجل في حق تلك القدسية الربانية تجاوز في حق الوجود الإنساني بكليته.

لقد اعتبر النورسي جريرة الجحود والكفر والعصيان اعتداء على الإنسانية وخرق لحقوقها، إذ كيف يحق للإنسان إن ينتهك مقدسات الآخر؟ وكيف يجوز للأقلية أن تهدر قيم الأكثرية، بل لقد وجدنا النورسي يقرر أن الكفر هو اعتداء على الكائنات كافة وظلم لها واستخفاف بوجودها " كفر الإنسان إنما هو تجاوز - أيّ تجاوز - على حقوق الكائنات، وأغلب المخلوقات، مما يثير غضب السماوات والأرض" [75].

---

[73] المكتوبات 426

[74] اللمعات 258

[75] الشعاعات.312

اليوتوبيا[76] الإنسانية

عالم اليوتوبيا يشرط فكر الماديين لأنهم يريدون تحقيق الجنة الأرضية على صعيد البسيطة، في ما يعتبر النورسي القرآني عالمنا الأرضي أو الحياة الدنيا موئل نقص وقصور، إذ هو عالم جسري فقط يفضي بالإنسانية إلى عالم السرمدية الأخروي.

الإنسان الكامل هو ارتكاز التوازن في هذه الحياة، والوازع عن التهافت يتم بالمجاهدة الأخلاقية وليس عن طريق التهيام الحالم بالمثل وبالمتع الغائبة.

من هنا كان قوام يوتوبيا الماديين هو تحقيق الوفرة الاستهلاكية وخوض غمار الإشباع بلا وازع، وذاك في حقيقة الأمر حلم غير واقعي، إذ أن هذه اليوتوبيا لا تتحقق إلا للأقلية، وعلى حساب الأغلبية، ثم إنها يوتوبيا محدودة بالزمان والمكان، فتمتع معشر ما أو قارة ما بالوفرة وبالحرية يغدو مقصورا على أهلها، فإذا ما توارث الخلف حالهم وعاشوا على نفس الوتيرة المتخمة كانت الرتابة وكان التحجر..

إما إذا كانت جدلية الحياة طلقة لا تحكمها هلوسات من هذا الحلم الأرضي السرابي، وسارت منضبطة بالناموس الأخلاقي الذي يقرر أن النقص من طبيعة الأرضيين قياسا بالكمال الإلهي القدير - وهو ما يتضمن وجوب المكافحة تقويما للنفس - فإن ذلك سيورث بطبيعة الحال السعادة لأن الأجيال ستجد نفسها باستمرار أمام تحديات الضعف البشري، تخوض الجهاد المزدوج ضد الذات وضد الآخرين على هدي من الله ورشاده.

الإنسان الكامل ليس المجتمع الكامل - فليس هناك المجتمع الكامل - المجتمع الكامل مجرد يوتوبيا.

والمجتمع الكامل لا يكتب ناموسه ببشريته وإلا دخل في التاريخية، لقد كفلت البعثات الإلهية سوانح زمنية تحقق أثناءها المجتمع الكامل بحضور مادي للأنبياء وتسديد مباشر من السماء.. وقد اطردت للإنسان أسباب الكمال ما اعتصم بحبل الله وسار على توجيهاته لكن الغرور الإنساني ينزع به أبدا إلى الانحدار، وهو ما يُغَيِّبُ الكمال عن الحياة..

الناموس الذي تستقيم به الحياة ويعم الكمال، ناموس علوي، والناموس العلوي ثابت الأصول متجدد الفروع ما كرت الأدهار .

ولنا أن نتساءل لماذا هو ثابت ؟

---

[76] قصدنا بها المدينة الفاضلة كما ترسمتها عقول الفلاسفة وأرباب الإيديولوجيات الدنيوية.

لأن الإنسانية تعيش النطاق الدائري المغلق على صعيد الطبيعة النفسية والنزوعية.

فالإنسان يعيش مهما اختلفت المدنيات والعصور بنواة نفسية واحدة، هذه النفسية تخضع خلال تجربة الحياة للتثقيف والتنميط الاجتماعي. فالاطرادية الإنسانية وإن استمرت في الزمان واسترسلت في المكان، فإنها على صعيد النوازع الفردية طورية واحدة، من هنا يتلازم ثبات النفس والفطرة الإنسانية مع ثبات مبدئي هو الكتاب . أما ما يتجدد فهي الثقافات ..

فثقافة الاستنساخ والإنترنت والعولمة وما إليها، هي ليست ثقافة الحرب الباردة والصراع الإيديولوجي. الثقافة الجديدة تستدعي تجددا اجتهاديا. أما نزوعات النفس فهي آدمية واحدة، لذا كان الناموس الذي يحكمها ربانيا واحدا. وكانت أصوله القارة مناطة بتهذيب النفس وصيانتها من شراسة الأهواء المتجددة بتجدد المدنيات والثقافات.

فواقعية الإسلام لا تؤمن بيوتوبيا أرضية تنتهي عندها أحلام الإنسان.. فما أتعس نفس ترى في أعطاف حلم أرضي محدود بزمان ومكان أقصى مناها. وذلك ما ظل النورسي يردده وينبه إليه.

الإنسان الأرجح

الإنسان الأرجح هو الذي ما تزال تستبقي فيه التنشئة المدنية جوهره البدوي الريفي، المشرب بالرحمة والألفة والطهر، والمتفتح على المكارم والمشدود إلى الفضيلة..

إن الخطاب المدني المعاصر - وشعورا منه أحيانا أنه فعلا قد غاص في الأوحال المدنية حتى الأذقان - عندما ينوه بالمحلية ويثمن العمق الشعبي، فإنه ينوه بضرب من الإنسان بات - يوما بعد يوم - يعز وجوده، ألا وهو إنسان الفطرة الذي وصف النورسي بساطته الحياتية وبين قيمتها . تلك البساطة التي كانت لا تقتضي الإنسان من تكاليف العيش والحياة إلا لوازم معدودة، ذلك لأن نفس هذا الإنسان الفطري والذي عناه النورسي، إنما كانت نفسا متماسكة ومتصلبة، ولم تكن دواعي الميوعة والترهل والتحلل قد تمكنت منها بعد، على نحو ما نرى عليه مجتمعاتنا التي شاءت أن تكون مجتمعات ممسوخة تحذق لعبة التقليد المضحك.

هناك إلتزام ينيطه النورسي بالإنسان المسلم المعاصر: الجهادية المرشدة التي لا تهدر المكاسب بتهور أو بسوء تقدير للعواقب، الجهادية التي تتحسس موقع قدمها

وتبني رهاناتها على مدى قابل، بكل ما قد يحتم عليها ذلك من خيارات تنازلية (سواء في المجال المادي أو في المجال الروحي).

فهو التزام تجنيدي يأخذ بمبدإ النظام ولا يومن بالفوضى لأنها ليست إلا إرهابا، ويثق من أن الجهاد المعنوي الشاق هو الذي يفضي بالطليعة من أبناء الأمة إلى طريق النجاح.

لقد هدر الانحطاط عزة الأمة، وأحالتها عصور الظلمة أكواما بشرية ودهماء رعاعية بئيسة .. واستطاعت النظم المخترقة والمتغربة أن ترسخ فيها أخلاق الخسة والطمع والانتهازية والاستعداد لكل الترديات، لذلك لا يمكن للطليعة المؤمنة أن تتوقع أن تكون قيادة هذه الأمة بما هي عليه من حال، أمرا ميسرا، وأنه يكفي تحديد جهة العدو لها حتى تتصدى وتهب للدفاع..

لقد غرست عهود الانحطاط في روحية الأمة أخلاقا نسخت كثيرا مما كان لها من قيم وخصال وشمائل، وأجهزت أو كادت مساعي التغريب التي استهدفتها على ما تبقى لها من موروث، واستبدلته بما ساسوه بها وروجوه لها من قيم دنيوية مقيتة، إذ لقنها ساستها المتغربون من خلال سيرتهم معها ومواقفهم حيالها وحيال مقوماتها، روح التفريط والاستخفاف، ففشا فيها نتيجة ذلك: الهوان والوهن والنذالة والجبن والمكر، فهي لذلك أمة متقلبة في أهوائها أكثر قابلية للتنازل على الفضيلة ما أن يلوح لها مروضوها بالعظام والفتات..

أجل، إنها حال عارضة، مكتسبة، وقابلة للزوال ما أن تجد من يرود الأمة نحو الأهداف السامية والغايات النبيلة.

لذا توجب على الطليعة القرآنية أن تسلك سبيل الحكمة في سياسة الأمة لإخراجها من ترديها وأن تجهد في توعيتها بما يفتح عيونها على العدو الحقيقي الانحطاط والجهل ومغالطات المتغربين .

فهذه الطليعة مطالبة بأن تتسلح بسلاح الصبر والمصابرة، وأن تتيقن من أن الصرح الذي أساسه الإسلام، صرح فخم عتيد، لا يقام في عجلة من الأمر، بل يتطلب المتابعة وتلاحق استماتة الأجيال..

الفلسفة الفردية والفلسفة الجماعية .. وحقوق الإنسان

على أن مما سجله النورسي من جور وظلم تتوحل فيه المدنية المعاصرة، سببه انسياق السياسات البشرية والأيديولوجيات الوضعية وراء معايير وأحكام غير راشدة في مسألة الحق الإنساني.

فمعادلـة حقـوق الفـرد والجماعـة تتـراجح بـين منطقـي الإفـراط والتفـريط، حيـث تتنـاقض نظـرة المدنيـة الحديثـة فـي موازنـة تلـك الحقـوق وصـونها. ففيمـا توجـد هنـاك فلسفة سياسية تجعل من الفرد منـاط الحريـات ومركـز المبـادرات والفاعليـات، توجـد مقابل ذلك فلسفة سياسية معارضة لا تنظر إلى الفرد إلا كرقم ضمن المجموعـة، ولا تعير للفردية أدنى أهمية إلا في سياق الجماعية. فمن أجل إصلاح الأغلبية لا ضير أن يضحى بحقوق الأقلية..

وواضح أن هذا المنطق إنمـا يعكس روح التغالـب ويتـرجم نـوازع الفتك التـي هـي صفة الضواري، والتي تتلبس روح الإنسان المعاصر في نظرته إلى الحياة، من حيث هي مضمار للتبارز والسجالية، حيث القوي يقهر الضعيف.

الواقـع أن كلتـا الفلسفتين تـصدران عـن مبـدأ البقـاء للأقـوى. فعلـى صـعيد مـذهب الفردية تناط الديمومـة والمجد بمن يثبت جدارتـه علـى صـعيد المنافسة. بغض النظر عن الأسباب والقيم التي يتوسل بها المتنافسون في تحقيق مجدهم الشخصي ومكاسبهم ورجاحتهم الاجتماعية.

وكـذلك الحـال بالقيـاس للمـذهب الجمـاعي، إذ لا مكـان للفـرد، ولا للأقليـة حيـال الجماعة والأكثرية.. رغم التبريرات التي يرتكز عليها منطق هؤلاء وأولئك.. وهو مـا يشير إليه النورسي في ملاحظاته التالية :

" إن القـانون الأسـاس للسياسة البشرية هو: أن يـضحى بـالأفراد مـن أجـل سـلامة الأمة، وتفدى بالأشخاص حفاظا على الجماعة، ويرخص كل شـيء فـي سـبيل حمايـة الوطن، فجميع الجرائم البشعة التي ارتكبت في حق البشرية إلى الآن إنما كـان يرتكـب بالاستعمال السيء لهذه القاعدة ولهذا القانون الأساس. فلقد تيقنتُ من هذا يقينـا قاطعـا. فهذا القانون البشري الأسـاس لـيس لـه حد معيّن ولا ضـوابط مخصصة، لذا فقد مهّد السبيل للتلاعب باستعماله بكثرة.

ويستطرد النورسي موضحا مزالق هذا القـانون المنحـرف ومـا كبّده للإنسانية مـن تضحيات، فيقول:

" إن الحربين العالميتين قد نشبتا من سوء استعمال هذا القـانون البشري الأسـاس، فأبادت نهائيا ما توصلت إليه البشرية من رقي منذ ألف سنة " [77].

فسواء الفلسفة التي تحصر النظرة في الفرد وحده، أو تلك التي تركز الإهتمام علـى الجماعة مطلقا، كلتاهما تتحجمان في إطار من الـوعي آنـي، ولا شـأن لـه بأبعـاد الـنفس

---

[77] الملاحق 377

أو الروح والقلب.. بل إنهما معا تضيقان الخناق على الإنسان إذ تحصران فاتورة الحساب في الشرط المادي والاستهلاكي والإنجازي الملموس..

من هنا انعدم في رؤيتهما معا المعطى الوجودي المتمثل في الآفاق الزمنية المشهودة والمغيبة التي يعيشها الإنسان كحقيقة نفسية لا يتخلى عنها أبدا، وإلا ما باله يعيش دائبا على السعي حتى كأنه لا يموت.

كلتا النظرتين حصرت تقديرها الإنساني في الكمية، فالجماعية هي من بعض الوجوه فردية، مادامت الجماعية لا تؤمن بالاختلاف، فهي من ثمة واحدية، وكذلك حال الفردية، إذ هي الأخرى لا تؤمن بغير الواحدية، إذ الأنانية تحجب عن العين وجود الآخر، وبالتالي تغدو المصلحة هي مصلحة الذات ولا سواها، والصراع صراعا من أجل تحقيق الذات ولا شيء غيرها .. من هنا كان انغلاق النظرتين في المكان، وانحجارهما في الزمان، إذ لا معالم تلوح للنفس في الأفق إلا ما تفرضه اللحظة من دواعي الحركة والفعل من أجل النجاح المادي..

" إن حياة أرباب الضلالة والغفلة، بل إن وجودهم وعالمهم ما هو إلا يومهم الحاضر، حيث أن الأزمنة الماضية كلها وما فيها من الكائنات معدومة، ميتة، بسبب ضلالتهم، فتردهم من هناك حوالك الظلمات. أما الأزمنة المقبلة فهي أيضا معدومة بالنسبة إليهم، وذلك لعدم إيمانهم بالغيب، فتملأ الفراقات الأبدية - التي لا تنقطع - حياتهم بظلمات قاتمة، ما داموا يملكون العقل وما داموا جاحدين بالبعث والنشور" [78]..

فرؤية الإنسان لن تسدد إلا إذا وعى وآمن أن دوره الإنساني في الحياة ليس استمتاعيا فقط ولكنه دور منتج للخير مسؤول "إن الإنسان لم يأت إلى هذه الدنيا للتمتع والتلذذ " [79].

" فالإنسان إذاً، لم يأت إلى هذه الدنيا لقضاء عيش ناعم جميل مغمور بنسمات الراحة والصفاء، بل جاء إلى هنا ليغنم سعادة حياة أبدية دائمة بما يسر له من سبل التجارة برأس ماله العظيم الذي هو العمر" [80].

لقد فتح النورسي باب الفقه الأكبر في وجه الخدمة الإنسانية، ومارس التوجيه من منظور شمولي قائم على مَفْهَمَة الظواهر والملابسات، وعلى تأسيس معرفة مرحمية من خلال التفاته إلى عالم المرضى والعجزة وإلى الشباب والنساء والأطفال.. فقد

---

[78] الملاحق 175

[79] اللمعات 317

[80] اللمعات.317

عالج أحوال هذه الفئات بروح إنسانية وضعت أسسا لتكريس نظرة جديدة للمرض والعجز وللحيرة واليأس والمكابدة..

بل لقد امتدت رؤية النورسي الإنسانية إلى مسائل الموت ورزايا اليتم والثكل وفقد الأحبة، فمَفْهَمَها من منظور إنساني لم يكفكف الدمعة فحسب، ولكنه حري بأن يدفع بالنفس على طريق تبني وعي جديد لظواهر الحياة والموت، وربط علاقة جديدة بالكون وبتواضعات الحضور والغياب وقيود المكان والزمان والعقل والقلب.

ونحن نعتقد أن إسهام النورسي رحمه الله في تأسيس ما يمكن أن نسميه انتولوجيا وجود إسلامي (علم وجود إنساني) إسهام كبير، ويمكن أن تقوم على صعيده جملة من المباحث تشمل علوما أخرى في مقدمتها علم المستقبليات وعلوم النفس والأخلاق والفلسفة والروحانيات .. لاسيما وأن معارف التراث قد حوت خمائر مشجعة في هذا السبيل..

بواعث السقوط في النفس البشرية

تتحكم في الإنسان عناصر ذاتية ومعنوية متداخلة يجملها النورسي في : النفس والهوى والوهم والشيطان..

وإذا أردنا أن نعرف معاني هذه العناصر، نقول : النفس هي جماع القوى النزوعية والشهوية التي يصدر عنها الإنسان في حياته الطبيعية. فلذة الأكل مثلا شهوة، وأما البخل فنزعة .

وأما الهوى فقوامه شهوات الإنسان ورغائبه الفطرية والمكتسبة من ملاذ مادية أو منازع معنوية مثل حب الظهور أو الرئاسة أو ما إلى ذلك.

وأما الوهم، فهو التقديرات غير السديدة والتصورات غير المؤسسة والافتراضات اللاموثقة التي تتأتى للإنسان وتخامره، ويكون الدافع إليها غالبا التطلع النفسي والتشوق لما ليس في الوسع..أو ما هو مغيب .. فالآمال تزين للنفس المقاصد وتضفي عليها وشاحا من الجاذبية قد لا يكون له أساس في الواقع.

على أن النورسي يرى أن للنفس حركة تنقلب بها من حال النفس اللوامة إلى حال النفس الأمارة، وهو ما يقتضي من الأطهار مزيدا من الجهد تضييقا للخناق عليها حتى لا يندَّ عنها ما يفسد الخلوص ويخل بالنية :

" قد يحدث أحيانا أن تنقلب النفس الأمارة إلى نفس لوامة أو مطمئنة، إلا أنها تسلم أسلحتها وأعتدتها إلى الأعصاب والعروق فتؤدي الأعصاب والعروق هذه تلك الوظيفة إلى نهاية العمر، ورغم موت النفس الأمارة منذ مدة طويلة، فإن آثارها تظهر

أيضا، فهناك كثير من الأولياء والأصفياء العظام شكوا من النفس الأمارة رغم أن نفوسهم مطمئنة، واستغاثوا بالله من أمراض القلب رغم أن قلوبهم سليمة ومنورة جدا، فهؤلاء الأفاضل لا يشكون من النفس الأمارة، بل من وظيفتها التي أودعت إلى الأعصاب " [81].

فنزغات النفس ما هي إلا صدى لحضور الشيطان ولفعله ووسوسته. هذا الشيطان الذي لا يشك النورسي في وجوده كما يتوهم الماديون .

وحتى يثبت كينونة الشيطان فقد وجدناه يطابق بين عالمي الإنسان والكون، فإذا كان عالم الإنسان مأهولا بقوة النفس الأمارة التي هي بمثابة الشيطان، فلا يستغرب العاقل إذا ما عمَّرت عالم الكون من حولنا قوة غير مدركة هي الشيطان، وهذا تماما على غرار ما تعمر كياننا البشري نحن، النفس الأمارة..

فعن طريق المطابقة بين عالمي الإنسان والكون استبان النورسي كينونة الشيطان.

من خلال تحليلة لمكونات الباطن النفسي وأنشطتها، حدد موقع الشيطان ووسوسته، وما تهيئه النفس الأمارة من شروط تمكن للشيطان من أن يخترقها.

يقول النورسي:

" كما أن الإنسان عالم صغير، كذلك العالم إنسان كبير، فهذا الإنسان يمثل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسه، فالنماذج المصغرة في الإنسان لابد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة . فمثلا القوة الحافظة في الإنسان دليل قطعي على وجود اللوح المحفوظ في العالم. وكذلك يشعر كل منا ويحس أن في قرارة نفسه وفي زاوية من زوايا قلبه آلة وعضوا للوسوسة وهي اللمة الشيطانية التي هي لسان شيطان يتكلم بتلقينات القوة الواهمة،

" هذه القوة قد تحولت بفسادها إلى شيطان مصغر، لأنها لا تتحرك إلا ضد اختيار الإنسان وإرادته وخلاف رغباته الحقيقية . إن هذا الذي يشعر به كل إنسان حسا وحدسا في نفسه دليل قطعي على وجود الشيطان الكبير في العالم الكبير. ثم إن هذه اللمة الشيطانية وتلك القوة الواهمة تشعران بوجود نفس شريرة خارجية تنفث في الأولى وتستنطق الثانية وتستخدمها كالأذن واللسان" [82].

---

[81] المكتوبات.423

[82] اللمعات 127

لكن الإنسان ليس نقصا محضا، ونفسه ليست زيغا مطلقا، فهي إلى جانب شريتها، تحوز الخيرية، بيد أن الاحتفاظ بمستوى تلك الخيرية راجحا، وعلى مدى متواصل يتطلب دحر النفس الأمارة، وما أشق دحرها، كما يقرر النورسي.

النفــس :

النفس تركيب من النفس المزكاة ومن النفس الأمارة، لكن التمرس الامتحاني جعل النورسي يكتشف ازدواجية في النفس الأمارة ذاتها، إذ لها رديف آخر من جنسها لكنه أعتى غواية وأشرس زيغا، يحول بين المرء وبين الخلوص..

لكأن للنفس الأمارة ثوبا تغادره وتتركه وراءها حين يُضَيِّقُ المرء عليها بالتعهد التعبدي وبالترويض الإيماني وبالمكافحة التطهيرية.

إن من شأن ذلك الترويض أن يفلح في جعلها تخرج من كينونته الباطنية، لكن خروجها ذلك ليس في الواقع إلا خروجا جزئيا أو شكليا، لأن النفس الأمارة لا تغادر الكيان إلا بعد أن تترك فيه ثوبها.

فخروجها يأخذ - على وجه تقريبي - صورة الثعبان وهو ينسلخ من ثوبه، ولذلك هي سرعان ما تنبثق من ثوبها ذلك، كالحية ينجم السم الناقع حتى من رماد عظامها.

" هناك نفس أمارة معنوية - غير دسائس النفس الأمارة الحقيقية - هي أشد عصيانا من الاولى وأكثر نفورا من الطاعة، وأكثر إدامة للأخلاق الذميمة، هي النفس الثانية، وهي مزيج من الهوس والمشاعر والطبائع وهي موغلة في الأعصاب والعروق، وهي الحصن الأخير الذي تحتمي به النفس الأمارة، وهي التي تتولى القيام بوظيفة النفس الأمارة السيئة السابقة - التي تركبت منها - فتجعل المجاهدة تستمر إلى نهاية العمر.

" ولما كانت حواس هذه النفس الأمارة الثانية عديمة الشعور .. لا تفهم أقوال العقل ولا تدرك نصائح القلب، ولا تعير لها سمعا كي تنصلح وتدرك تقصيراتها، لذا لا ترتدع عن السيئات إلاّ بلطمات التأديب وصفعاته وبالآلام، أو بالتضحية التامة بحيث يضحي المرء بمشاعره وحواسه كلها للهدف الذي يصبو إليه فيترك أنانيته كليا، بل كل ما يملكه لذلك الهدف .." [83].

فالنفس هي جماع النوازع المردية، وقد أودت بإبليس إذ جعلته يقف أمام الخالق باستكبار وأنانية، فاتحا الطريق أمام انحرافات الإنسان وتَفَرْعُنِهِ، وليس مثل العبادة

---

[83] الملاحق 210

ملجما للنفس عن زيغها، وليس مثل التقوى مخرسا لهمزاتها .. فبالتخلي عن العبادة تستفحل النفس وتطغى أنانيتها، وهو ما سجله النورسي بقوله:

"إن الأنانية تتقوى بنقصان العبادة، فيزداد الداعون إلى فرعونية النفس" [84].

كما أن " الإنسان الحقيقي هو الذي برأ من الغرور ومن الغفلة التي تؤدي به إلى التيه في ظلمات الأوهام" [85].

من هنا راح النورسي يشدد على أهمية العبادة في بناء الكمال النفسي وتطهير البواطن واستكمال اللطائف وتثبيت الإخلاص :

" واما جهة الكمال النفسي فاعلم أن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه وعجزه وكونه حيوانا من الحيوانات، ينطوي على روح غال ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرست للأنواع والعوالم. فالعبادة هي السبب لانبساط روحه وجلاء قيمته.. وأيضا هي العلة لانكشاف استعداده ونموه ليناسب السعادة الأبدية .. وكذا هي الذريعة لتهذيب ميوله ونزاهتها .. وهي وسيلة لتحقيق آماله وجعلها مثمرة ريانة ..

" وكذلك هي الواسطة لتنظيم أفكاره وربطها.. وأيضا هي السبب لتحديد قواه وإلجامها.. وهي الصيقل لرَيْنِ الطبيعة على أعضائه المادية والمعنوية التي كل منها كأنه منفذ إلى عالم مخصوص ونوع إذا شَفَّ .. وأيضا هي الموصل للبشر إلى شرفه اللائق وكماله المقدر، إذا كانت بالوجدان والعقل والقلب والقالب .. وكذلك هي النسبة اللطيفة العالية، والمناسبة الشريفة الغالية بين العبد والمعبود. تلك النسبة هي نهاية مراتب كمال البشر.

" ثم إن الإخلاص في العبادة هو: أن تُفْعَلَ لأنه أُمِرَ بها، وإن اشتمل كل أمر على حكم، كل منها يكون علة للامتثال، إلا أن الإخلاص يقتضي أن تكون العلة هي الأمر، فإن كانت الحكمة علة فالعبادة باطلة، وإن بقيت مرجحة فجائزة" [86].

ذلك هو الامتحان الحاسم الذي أناطه الله بالنفس، حيث جعل خضوعها التطهري حياله سببا للارتقاء، بعض النظر عن إدراكها أو عدم إدراكها لكنه الشعائر التي قررها الله عليها وذممها بها..

---

[84] الملاحق 392

[85] المكتوبات 818

[86] إشارات الإعجاز 149

10- السياســة

يسمي النورسي السياسة خدمة، ويراها خلوصا متناهيا في التضحية. فهي إيمان أخروي لا ينفصل عن الإيمان الدنيوي، ذلك لأن طبيعة الوجود في المنظور الإسلامي طبيعة لا تقبل التفكيك، ولا يمكن للمسلم أن يجتزئ وجوده الأرضي عن وجوده الأخروي. من هنا كانت أعمالنا الدنيوية هي أعمال أخروية والعكس كذلك.

" إن مهمة رسائل النور هي: خدمة القرآن الكريم، والوقوف بصرامة وحزم في وجه الكفر المطلق الذي يودي بالحياة الأبدية ويجعل من الحياة الدنيا نفسها سما زعافا وجحيما لا تطاق"[87].

إنها رؤية شمولية تقرر مسؤولية الإنسان التي لا تتحدد بزمن الحياة هذا، مادامت الحياة مجرد مقدمة للآخرة، لذا كانت أعمالنا الدنيوية موصولة بما سيكون عليه مصيرنا الأخروي..

من أجل هذا كانت السياسة عبادة عند النورسي وكانت العبادة عنده سياسة.. ومن أجل هذا كان الإخلاص هو نقطة ارتكاز القصد الترشيدي، وكان التجرد والتسامي ونكران الذات هي أساس الخدمة في الحالين، إذ لا يمكن لخادم الإيمان "أن يعطي لنفسه حظا، وذلك لكي يمكن الاستفادة من إرشاداته في دروس الإيمان وتحصيل القناعة التامة به "[88].

فالسياسة عند النورسي هي **خدمة** إيمانية محكومة بضوابط الدين وليست مشروطة بمنطق الظروف والملابسات .

وبالإضافة إلى ذلك فهي مجاهدة وجدانية وتسييرية يومية، فهي من ثمة واجهة حيوية وتنفيذية ضمن سياق من المقاصد المركزية أوقف النورسي حياته من أجل تحقيقها، وربما شملها مفهوم الفقه الأكبر الذي وجدناه يستخدمه عندما صرح بأن حياته وجهوده موقوفة على التكفل والإيفاء به .

من هنا وجدنا الخدمة تتمازج في ذهنه بمعانى التصوف والسلوك، ووجدناه يقيم الفعل السياسي على قاعدة إثبات المحبة ودفع الخصومة :

"إن مشربنا محبة المحبة ومخاصمة الخصومة، أي إمداد جنود المحبة بين المسلمين وتشتيت عساكر الخصومة فيما بينهم"[89].

---

[87] سيرة ذاتية 390
[88] سيرة ذاتية 406
[89] سيرة ذاتية102

ولاجرم أن تحول النورسي إلى التعامل مع السياسة بمنهج جديد، أو إلى الفقه الأكبر، كان الرد العملي والطبيعي على الطريق المسدود الذي رأى السياسة التغربية تنتهي بالأمة إليه :

" إلى هنا كانت حياتي طافحة بخدمة البلاد وفق ما كنت أحمله من فكرة خدمة الدين عن طريق السياسة، ولكن بعد هذه الفترة وليت وجهي كليا عن الدنيا "[90].

لقد أصبح يتبع الخدمة عن طريق الدين، وهو ما يعني رد الاعتبار الأخلاقي للسياسة كشرط بشري انطلاقا من تحكيم روح العقيدة فيها وليس العكس . مما يعني العمل على هدم السياسة الميكيافيلية ببناء السياسة الأحمدية .

ومن أجل تحقيق تلك المقاصد السامية انخرط في نهجه التنويري الخلاق، ديدنه أن يتجاوز السياسة الدنيوية الخسيسة التي كانت تمارس على يد السفيانيين، فلبث يندد بالسياسة الحاضرة، مراهنا على سياسة أخرى نقيضة لسياسة المتغربين .

ولما كان يسعى جاهدا لترقية السياسة في ضوء الدين، فقد وجد ضالته في إلغاء أسس وأبجديات السياسة المتبناة عن ثقافة الغرب النفعي واللا أخلاقي، واستبدالها بالخدمة والتوعية والتحسيس من منظور قرآني رباني عتيد، الأمر الذي كرس ظهور مشغل الفقه الأكبر، ذلك المشغل المتمثل في انقطاع تجندي صميم، وفي أداء خدمة متفانية تستهدف بناء الأمة، وفي اتباع نهج سياسة إسلامية متكاملة الأبعاد، بالغة التأثير في القلوب والضمائر لأنها تقوم على الانتماء الحر والالتزام الطوعي والانخراط التجنيدي الذاتي، ضمن روح جماعية لا تنفصل مقاصدها الفكرية والمدنية قط عن روح الأمة والدين، وبالتالي عن الإنسانية، اعتبارا لعالمية الدين الإسلامي وإنسانيته.

لقد تحولت السياســة عنده إلى التزام تربوي ومنهج تعاملي قائم على الإغضاء الذكي وعدم المواجهة، وذلك تفاديا لتكبير جبهة الخصوم ..

فعدم التنفير ولو بالتغاضي عما هو حق أحيانا إنما هو وجه من وجوه الحكمة، ومنهج سياسي يدعو إليه النورسي وينصح به الأتباع.. إذ مهمة الاتباع هي تقوية الجبهة والثبات على الحق والنهل من معينه، وهي مهام لا تتيح لهم أن ينشغلوا عنها بمناطحة الحادين عن الحق حتى ولو كانوا علماء تربطهم معهم وشيجة العلم والتحصيل. إذ أن ذلك من شأنه أن يوقع في الخصومة وتبديد الجهد بلا طائل ..

---

[90] الشعاعات 542

فالنورسي يوجب على طلاب النور التحفظ وعدم الوقوع في الجدل مع أي كان، لا سيما مع العلماء . حيث أنه كان على دراية بأن طبيعة المنافسة تدفع في الغالب إلى إعلان المخالفة، وذلك ما يوسع من نطاق الجبهة المعارضة .

والحال أن في الأعداء الصرحاء للقرآن وللنورانيين مغنى عن استثارة خصوم جدد يتبدد بهم جهد التركيز وتتبلبل بهم همة المضي في طريق بناء الجماعة وتوجيد البرنامج الذي ينهض به الإنسان الكامل المرتبط ببناء المجتمع القرآني :

"وإياكم إياكم أن تفتحوا باب النقاش مع العلماء، بل يجب التعامل بالحسنى والمصالحة على قدر الإمكان، فلا تتعرضوا لغرورهم العلمي حتى لو كان أحدهم ميّالا إلى البدع ومستجدات الأمور، لأن الزندقة الرهيبة تجاهنا، فيجب عدم دفع هؤلاء المبتدعين إلى صف الملحدين"[91].

ومن الطبيعي أن تشمل مقاصد هذه الوصية سائر الأطراف، العدو منها والمحايد والمتربص.. إذ سياسة الحسنى هي النهج الذي لا يعيق الدعوة ولا يزج بها في غمار المعارك الهامشية الملهية عن تأدية الواجبات..

عفونة المناخ السياسي وتأثيرات الغرب هما مصدر إحباطاتنا

ومن جهة أخرى يعترف النورسي أن المناخ السياسي الذي كان يسود بلاده - ومن ثمة بلاد المسلمين كافة - في مطلع هذا القرن، إنما كان مشروطا بتنفذ إرادة الغرب في الحياة العامة وفي إدارة شؤون البلاد وتحريك أحجار السياسة القومية وبيادقها.. "إن السياسة الحاضرة لاستنبول شبيهة بالأنفلونزا يسبب الهذيان، فنحن لسنا متحركين ذاتيا، بل نتحرك بالواسطة، فأوروبا تنفخ ونحن نرقص هنا، فهي تلقن بالتنويم المغناطيسي، ونحن نتصورها نابعة من أنفسنا ونجري إثر تلقينه بتخريب أعمى أصم، فما دام المنبع في أوروبا، فالتيار القادم إما سيكون تيارا سلبيا أو إيجابيا.." [92]

لقد كان النورسي على وعي بما يتوزع الأمة من أهواء تتجاذب مقادتها، وتريد أن تمخر بها دياجر الليل البهيم.. فقد كان يسوؤه أن يري التيارات المتزاحمة على قيادة الأمة، وإن تباينت في المشرب، إلا أنها جميعا موصولة على نحو أو آخر بالغرب، وهو ما يجعل من عملية تحرير الأمة وضمان انطلاقتها أمرا ميئوسا منه.. لقد صنف

---

[91] الملاحق 282

[92] صيقل الإسلام361.

النورسي تلك التيارات إلى جناحين: جناح الوطنيين، وجناح الاستيلابيين، وكلاهما كان يصارع من أجل السدة ويحمل شعارات الوطن والأمة والحمية القومية.

لكن ما كان موقع وأهمية كل منهما على محك الموضوعية يا ترى ؟

لقد صور النورسي حال التيارين السياسيين المتنازعين للاستحواذ على مقادة الأمة تصويرا تشبيهيا، فبين مدى ارتباط كل منهما بدلالته :

".. فالذين يتبعون التيار السلبي هم كالحرف الذي يدل على معنى في نفس غيره، ولا يدل على معنى في نفسه.. بمعنى أن جميع أفعاله ستكون لصالح الخارج مباشرة، لأن إرادته لا حكم لها، فلا تنفعه النية الخالصة .. أما التيار الآخر الإيجابي فيلبس لبوس التأييد والموافقة من الداخل، فهو كالإسم الذي يعرف بأنه ما دل على معنى في نفسه، فأفعاله لنفسه ولكن ما يترتب عليها للخارج، إلا أنه لا يؤاخذ عليه لان لازم المذهب ليس مذهبا.." [93]

وواضح أن النورسي يقدر هنا النتائج البئيسة التي تتحقق للأمة على يد أنظمة تحكمها النزعة الوطنية المجردة من الدين،

على أنه قدر أن تلك الأنظمة تكون أقرب للأمة (والمفاضلة هنا من باب شر أهون من شر فقط) بالقياس إلى تنفذ السلط المتغربة عديمة الحس الوطني.. أو المدخولة الضمير الوطني.

فعلى الرغم من أن الساسة الوطنيين كانوا هم أيضا لا يعبأون كثيرا بالدين، إلا أن نظامهم يظل على كل حال قريبا من الشعب والأمة بما ينجزه من مكاسب، ولو بعدم التضييق على الدين..

على أن العدالة القصوى والتطهر التام لا يتحققان إلا إذا كان نظام الحكم على وفق تعاليم رب العالمين..

ومما لا شك فيه أن انتقادات النورسي لساسة عصره تظل ثابتة إلى اليوم، وهي تصدق على ساستنا في الوقت الراهن ..

بل نكاد نقول - باستثناء ربما تجربة السفياني - إن حدا أدنى من الغيرة والهمة كان يميز ساسة ذلك العهد. وربما كان تفريطهم في ما فرطوا فيه مبررا بالغفلة والجهل ومحدودية التمرس.. أما حالنا اليوم فلا تتبرر بأي منظور..

وما قد يعزينا أن تكون تفريطاتنا الرهيبة اليوم مجرد سانحة للأمة كي تتجهز وتعيد الكرة.. وإلا فالمأساة مدمرة..

---

93 صيقل الإسلام 361.

التاكتيك في مضمار السياسة

مما لا ريب فيه أن غياب النورسي عن ساحة السياسة لم يقطع صلته بها، ومن الطبيعي بالنسبة لمن راهن على المستقبل الحضاري للأمة واعتمد القرآن سلاحا، ألا ينقطع عن الحياة، إذ من غير المعقول أن نربط وجودنا بالنهضة والانبعاث ولا نكون على وعي بما يحدث من حولنا .. ولا يعني هذا أننا سننخرط حتما في رصد حركات الواقع وسكناته بهوس، بل الأصوب أن تكون خطانا على بينة من طبيعة الأرض التي نطؤها ومورفولوجيا تلك الأرض.

ولقد كان النورسي على معرفة تامة بالأرضية وبالتضاريس المحيطة به، فلم يسعه بعد ذلك أن ينشغل بغير ما يكفل له المضي على النهج..

ورغم استغراقه العميق في الانقطاع الروحي إلا أنه ظل على صلة بما شاء أن يظل على صلة به. ظل يرعى حركة النور، ويتعهد نموها ويخطط لمسيرتها ويكيف منعطفاتها وظل على صلة أيضا بمبتدعات العلم ومنجزاته، لاسيما تلك التي كان يثمرها في الدعوة مثل جهاز المسجل وقبله جهاز الرونيو والراديو والقطار وما إلى ذلك ..

بهذه الروح الواعية تابع النورسي تطورات المسرح السياسي في بلاده، لا سيما وقد أحس بما كان يطرأ على أرضية ذلك المسرح من تغير إيجابي بعد الدمار الكبير الذي ألحقه السفياني بقيم ومقدسات الأمة.. هنالك كان على النورسي أن يكون أشد حصافة وأكثر ألمعية في تعامله مع تلك الأحداث التي أفرزتها المسيرة السياسة المحمومة لبلاده ..

فكانت له من ثمة تلك المراسلات مع أفراد من الساسة والكبراء، لاسيما بعد وصول الحزب الديمقراطي إلى الحكم (سنة 1950) .. بل لقد ألفيناه يسجل موقفا عمليا تمثل في إدلائه بصوته في الاقتراع العام ترجيحا للكفة التي كان يرى فيها الخير للإسلام والأمة.

ونعتقد أن موقفه ذاك كان القصد منه ترشيد الأمة ودفعها إلى ضرورة العمل وعدم الاكتفاء بالتفرج على ما يجري في الواقع من حولها، والسعي إلى استغلال ما يمكن استغلاله من المعطيات الاجتماعية والسياسية ترجيحا للكفة لصالح الإسلام كلما وجدت إلى ذلك الترجيح سبيلا.

فذهابه إلى الصندوق وإدلاؤه بصوته الانتخابي في تلك المناسبة وفي ذلك العمر المتقدم، إنما كان يحمل رسالة واضحة وهو ترخيصه بالمشاركة في الوقائع السياسية من منطق الخدمة.. خدمة الإسلام، وهو ما صرح به بقوله :

" لأجل الحيلولة دون وصول حزب الشعب إلى السلطة والذي يشكل خطرا رهيبا على حياتنا الاجتماعية وعلى الوطن، أعمل على المحافظة على الحزب الديمقراطي باسم القرآن والوطن والسلام"[94].

حقا، لقد ظل شعاره السياسي - حينا من الزمن - هو عدم مقارفة السياسة، ذلك لأنه كان على يقين من أنه سيكون على موعد مع التاريخ طال الزمن أو قصر.. فمهما لون محترفو السياسة من خططهم وبرامجهم، فإنهم لن يفلحوا في إقصائه عن الساحة، ذلك لأنه كان متأكدا من أن خدمة القرآن والخلوص إليه هي أدهى سياسة يحترفها أهل البصيرة.. ذلك لأن السياسة القرآنية لا يقبل عليها الانتهازي لأنها سياسة لا ترفع شعارات الإغراء والإطماع والإستمالة بما هو فان.. فكل من يقبل على ساحها إنما يأتيها محركا بشعور رباني وبقلب افتدائي وبعقل واع بالدور ومتهيئ للبذل ومفعم باستعدادات المبرة لكافة المؤمنين..بل وللإنسانية جمعاء. من هنا كان سر كسبها لما تراهن عليه.

لا يعني هذا أن النورسي قد تراجع عن سيرته النابذة للسياسة الاحترافية، وإنما يعني أن الخدمة اقتضت منه أن يتكيف مع الأحداث من موقع الفاعل المؤثر وليس المنفعل السلبي.. وهو ما تكشف عنه مكاتباته وتوجيهاته التي رأيناه يدلي بها لصالح الجهات السياسية التي كان يرى في دعمها خيرا للأمة، أو هو على الأقل كان يرى ضررها أقل من ضرر غيرها على الإسلام، فكانت من ثمة مبادرته إلى محالفتها.

لقد كشف لنا النورسي عن صلته الواعية بفواعل مجتمعه السياسي في عهد الديمقراطية، وتنبئ كتاباته أنه كان مدركا للمكر الذي أضحى المتغربون يُلبِّسون به على الأمة من أجل تضليلها والتشويش على اختيارها الانتخابي، وكل ذلك من أجل كسب أصواتها .

لقد راحت دعايتهم توهم الأمة وتخيف الجماهير المسلمة من مخاطر الحزب الديمقراطي، واصمة إياه بالنعوت التي كان القصد منها إثناء الشعب عن تأييده، وهو ما تنبه النورسي إليه وسجله، معربا بذلك عن تواصله مع الأحداث التي كان مستقبل الإسلام يدعو إلى التواصل معها ومتابعتها عن كثب :

---

[94] الملاحق 396.

" إن أمضى أسلحة عبيد العهد الماضي من الماسونيين الذين هدروا الدين والإيمان والأرواح في البلاد أثناء حكم الدكتاتورية والرئاسة الفردية وهم في أنفاسهم الأخيرة الموجهة ضد الديمقراطيين، هي السعي في إظهارهم وكأنهم أقل دينا مما كانوا عليه، ويتلبس نفر منهم بأزياء التدين فيشيعون بأن الديمقراطيين لن يفوا بوعودهم للشعب في إطلاق الحريات الدينية، ويتهم نفر آخر منهم الديمقراطيين بحماية الرجعية الدينية لصدهم عن معاضدة حرية الدين وتوجههم إلى تخريب الدين والمؤسسات الدينية وفرض الشدة على أهل الدين ".

ثم يستطرد النورسي فيبين الأسباب التي رجحت كفة الحزب الديمقراطي وغلبته على الماسونيين:

"إن تصرف الحزب الديمقراطي بحزم ضد الشيوعيين منذ استلامه للسلطة وإطلاق حرية الأذان المحمدي بصورته الشرعية وكسبه محبة الشعب لهذا السبب وحصوله على قوة تعدل قوته عشرين ضعفا، أقلق حزب الشعب الجمهوري غاية القلق".

وغير خاف الإيعاز التوجيهي الفطن الذي يبطن خطاب النورسي في هذا المقام، إذ أن غايته هي لفت الديمقراطيين إلى السر الذي سيكفل لهم الشعبية والتأييد الجماهيري، وهو تسامحهم مع الدين ورفعهم العنت الذي ألحقه به حزب الشعب الجمهوري.

بل سنجد النورسي يرسم للديمقراطيين الخطة التي ستفيد سياستهم إزاء الشعب والأمة:

"نحن نثق بأن الديمقراطيين لن يقعوا في الفخ لأنهم يدركون أن هذا الوضع الذي وقع فيه أولئك كان بسبب سياسة العهد الماضي الظالمة ضد أهل الدين وضد جماعة النور، أهل القرآن.

إن الشعار المعلن للنظام السابق معلوم للجميع، وينبغي للديمقراطيين، ما داموا يريدون البقاء، أن يتخذوا سياسة مناقضة لذلك الشعار مناقضة تامة، وهي التشدد ضد الشيوعية من جهة، وحماية الدين وأهل الدين من جهة أخرى، إنهم ملزمون بسلوك هذا السبيل في وضوح وجرأة، وإن أي بادرة ضعف كان أو بادرة فتور بهذا الشأن، يوقعهم في شراك حزب الشعب الجمهوري"[95].

---

[95] سيرة ذاتية 440

فالنورسي عندما يشير على الديمقراطيين بأن يسلكوا سياسة مناقضة لسياسة خصومهم حزب الشعب الجمهوري، فإنما يهدف إلى تحقيق غايتين ترشيديتين. الغاية الأولى هي الحث على سلوك سياسة كان يعلم أنه بقدر مخالفتها لسياسة أعدائه بقدر ما تكون قريبة من مراميه هو .. أخذا بمنطق عدو عدوي صديقي.. والغاية الثانية كان القصد منها تحسيس حلفائه بضرورة سلوك السبيل المبدئي الذي سيميزهم عن خصومهم، والذي يقوم على مخالفة سياسة أولئك الخصوم بسياسة مناقضة. وفي كلا الحالين يغنم الإسلام انعتاقه ويتحقق للدعوة مجال حيوي تنشط فيه.

السياسة سبيل السقوط والتردي الروحي والوجودي

السياسة موئل النفاق والثعلبية، لذا يحرص النورسي على الابتعاد عنها، داعيا إلى وجوب تثمير الجهود التي يبذلها المسلم في حقول خارج الحقل السياسي، إذ أن السياسة ـ كما هو ثابت ـ هي المهارة في المداورة والتفنن في اتباع أساليب المخاتلة والتحيُّن والمزايدة .

فأخلاقيات السياسة هي أخلاقيات الشراسة الفظيعة والترصد الجبان، فهي من ثمة أخلاق مرذولة لا ينغمس فيها إلا ذو كيد أو من جبلت نفسه على الافتئات والكذب.

فشعار السياسة المشهر منذ الأبد هو: إذا لم تكن قاتلا فأنت مقتول.. "وذاك يعني ببداهة ركوب كل السبل من أجل الغاية، ولا تستنقذ النفس في معتركها إلا بالتمرس على تسديد الطعنات في الظهر، أو بالنكوص غير الشريف..

من هنا كان دستور النورانيين هو القرآن، ولا شأن لهم بالسياسة كما يتعاطاها الدنيويون :

" إن من الدساتير الأساسية لطلبة النور هو عدم التعرض قدر الامكان للسياسة ولأمور الحكومة وشؤونها وإجراءاتها، ذلك لأن القيام **بخدمة القرآن** بإخلاص يكفيهم ويغنيهم عن أي شيء آخر "[96].

ذلك لأن ركح السياسة، بما يتحاشد فوقه من جموع وفلول الأفاقين، يستلزم اصطناع الشريك والمتعامل بالأجرة وحليف الزور، وكل ذلك يتناقض جوهريا مع مبدإ الحرية والإخلاص والاستقلالية الذي يأخذ به القرآنيون :

" إن الداخلين الآن ساحة السياسة مع وجود تيارات قوية سائدة لا يستطيع أحد منهم أن يحافظ على استقلاليته وعلى إخلاصه، لأن تيارا من هذه التيارات سيجره

---

[96] الشعاعات 424

إليـه ويجعلـه يعمـل لحـسابه ويـستغله فـي مقاصـدة الدنيويـة، ممـا يـؤدي إلـى الإخـلال بقدسية علمه وخدمته "[97].

فما دام " السياسي في هذا الزمن لا شرف لـه " ومـا دامـت الـسياسة الدنيويـة مثابـة الـشرور والنـواقص، فـلا بـدع أن يـؤثر النورسـي للمـسلمين النيـرين الابتعـاد عـن ساحها،وأن يربأوا بأنفسهم عن الانجراف وراء حرفة بذيئة ومبتذلة ورخيسة وشائنة.

علـى أن هنـاك مـن بـين الأسـباب العديـدة الأخـرى التـي اقتـضت مـن النورسـي أن يعـرض عـن الـسياسة ويـشجب تعاطيهـا، كونهـا تفسح المجـال للعـدو والكـافر أن يتقنـع بأستار تحجب حقيقته عن المجتمـع والأمـة، الأمـر الـذي سيمكنه مـن الإيقـاع بالأبريـاء ممـن يتعـاملون معـه أو يتواثقـون علـى قواعـد لعبـه .. " فلـو عُمـل بهـراوة الـسياسة وصـولجانها وأحرز النصر، تدنى أولئك الكفار إلى درك المنافقين، والمنافق ـ كما هو معلوم ـ أشد خطرا من الكـافر وأفسد منـه، فصولجان الـسياسة إذا لا يـصلح القلـب فـي مثل هذا الوقت، حيث ينزل الكفر إلى أعماق القلب ويتستر هناك وينقلب نفاقا"[98].

لقد شهر النورسي بالمنافق ونوه بالمخاطر التي يشكلها اندساسه في الجماعة، ولمـا كانت السياسة هي المرتع الوخيم الذي يستهوي المنـافقين، فقد جـاء التحـذير يحيـل بـين المسلم وبين شرها، ففي حلبة السياسة يسقط المـسلم مـن أول جولـة، لأنـه يـدخل النـزال من غير ما عدة، بل من غير مـا اسـتعداد ولا قابليـة لخـوض عـراك طبيعتـه الجوهريـة النفاق، الأمر الذي يتنافى مع روح المـسلم المتـشبثة بالـصدق والمـصداقية كمـا يقتـضي منه الإيمان.

لقد طفق النورسي يشنع على المنافق ويذيع أوصافه ويعـرض نعوتـه فـي سـائر مـا كتـب مـن رسـائل. بـل لقـد وجـدناه يخـص المنـافق بوقفـة مـسهبة وذلـك فـي تفسيره "إشـارات الإعجـاز .." عنـد مـا شـرح قولـه تعـالى : **(ومـن النـاس مـن يقـول آمنـا بـالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)** [99].

لقد استهل النورسـي تفسيره لتلك الآيـة بتسجيل ملاحظـة أولـى لفـت فيهـا إلـى سـر إطنـاب الخطـاب القرآنـي فـي الحـديث عـن المنـافق قياسـا بالحديث الموجز الذي خص به الكافر في هذه السياق حيث قرن بينهمـا، ليخلص النورسي إلى تقرير الآتي:

---

[97] الشعاعات .424

[98] اللمعات 158

[99] البقرة/8

"إن قلت لِمَ أوْجَزَ في حق الكافرين كفرا محضا بآيتين وأطنب في النفاق بإثنتي عشرة آية ؟

قيل لك: لنكات منها: إن العدو إذا لم يُعرف كان أضر، وإذا كان مخنسا كان أخبث، وإذا كان كذابا كان أشد فسادا، وإذا كان داخليا كان أعظم ضررا، إذ الداخل يفتت الصلابة ويشتت القوة، بخلاف الخارجي فإنه يتسبب لتشدد الصلابة العصبية ".

ثم يستطرد النورسي بعد هذا التوضيح، ليعرب عن تفجعه مما فعل النفاق بالأمة الإسلامية قائلا:

" فأسفا. إن جناية النفاق على الإسلام عظيمة جدا وما هذه المشوشية إلا منه ولهذا أكثر القرآن من التشنيع عليهم .."[100]

ثم راح يبين ما يتميز به المنافق عن الكافر من حيث فظاعة ما يأتيه المنافق في حق الأمة والجماعة من أنواع الخداع والدس، مسجلا أن المنافق ينتمي غالبا إلى أهل الكتاب أو ممن يتطبع بخلقيتهم الأفاكة.[101]

ومن الواضح أن صدق هذا التقرير عن مكايد المنافق يستند إلى الخلفية الدينية والتاريخية الإسلامية، إذ أن نشوب النفاق زمن البعثة إنما فشا واستفحل في يثرب بترويج من اليهود ومن انساق إليهم .

كما أن هذا التقرير كان يجد في الواقع التاريخي الذي عاشه النورسي - زمن الردة في تركيا العثمانية - ما يؤكده، إذ كانت فلول المتغربين تتشكل من اليهود أو ممن ارتضع حليبهم الزقومي ..

أما نحن في عهدنا الراهن فلا جرم نرى الثقافة السياسية قد كيفت على نفاقها وجبنها وخستها الأوساط الاجتماعية المختلفة، وزرعت فيها عدوى الخيانة، فتزعزعت المثل وغابت الثقة وكثر الفساد..

ونجد النورسي في سياق تفسيري لاحق قد علق على قوله تعالى: **(ألا إنهم هم السفهاء)** بذات الحكم الذي قرره آنفا على المنافق إذ راح يقول :

" اعلم أن القرآن الكريم إنما أكثر من التشديد والتشنيع على النفاق لأجل بليات العالم الإسلامي من أنواع النفاق." [102]

---

[100] إشارات الإعجاز 88

[101] انظر إشارات الاعجاز 89

[102] إشارات الإعجاز 104

وألفيناه في مواطن أخرى يكشف عن الطابع الوبائي الاستشرائي الخطير الذي كانت قوى الشر تأخذه وتنفذ به إلى روحية الملة وتفتك بمقوماتها:

" إن أهل الضلالة المغيرين على أهل الإيمان أصبحوا روحا خبيثة تسري في الأمة، وشخصية معنوية حاملة لروح الجماعة والتنظيم الخاص تفسد وجدان الناس وقلوبهم عامة في العالم الإسلامي، وتمزق الستار الإسلامي السامي الذي يحى العقائد التقليدية لدى عوام المسلمين، وتحرق المشاعر المتوارثة أبا عن جد.. تلك المشاعر التي تديم الحياة الإيمانية " [103].

وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك عاملا موضوعيا آخر كان يحدو بالنورسي إلى مجانبة السياسة بمعناها الوحشي، الغابي، هو حال الأعزلية واللا تسلح التي كان عليها المسلم - ولا يزال - فهي حال لا تمكنه من رد اللكمة بمثلها . فالضعيف إذا ما سقط في شرك عدوه وجاراه نحو ميادين الألغام التي يستدرجه إليها، فإنه لا محالة سيعد جاهلا وأحمق .

إذ من الدهاء أن أعمل بكل ما في الوسع على ألا يرديني عدوي ما دمت لا أملك القوة، فإذا ما أصر على مواجهتي، فسأكون غبيا إذا مكنته من المواجهة، بل علي أن أتقي أكبر الخسائر بأقل التكاليف، وذلك هو الأسلوب الذي ينتهي على المدى البعيد بدحر القوة الباغية واستنزافها والقضاء عليها قضاء مبرما..

إنه لمن الثابت أن الضعيف إذا ما رشَّدَ استراتيجيته فسيؤول به الأمر إلى أن يقوى ويتَجَذَّرَ، وأن القوة المستفحلة والعاتية والغاشمة والمبيتة للغدر والمنفذة للشر مآلها الفناء والهوان لا سيما إذا ما كان خصمها لبيبا وداهية ومسلحا بأخلاق الأنبياء، أولئك الجبابرة في الإيمان بالله وبقيوميته الذي طاولوا الفراعنة المغرورين، وناضلوهم بالصبر والمكابرة والإيمان فغلبوهم وقوضوا أعراشهم، وتلك هي سياسة النورسي التي نهجها وراهن على جدواها ونصح بها الأتباع والمسلمين:

"إن شخصا عاجزا مثلي لا يمكنه أن يستعمل النور والهراوة معا في هذا الوقت، لذا فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور بما أملك من القوة، فيلزم عدم الالتفات إلى هراوة السياسة أيا كان نوعها. أما ما يقتضيه الجهاد المادي، فتلك الوظيفة ليست مناطة بنا حاليا. نعم إن الهراوة هي لوقف تجاوز الكافر أو المرتد عند حده، ولكن لا

[103] الملاحق222

نملك سوى يدين، بل لو كانت لنا مائة من الأيدي ما كانت تكفي إلا للنور، فلا يد لنا تمسك بهراوة السياسة "[104].

فمن خلال مثل هذه الإلتفاتات، لا نفتأ نرى إشارات النورسي تقوِّمُ المناهج الدنيوية وتتابعها، ذلك لأنها كانت تصدر عن رؤية موضوعية لا يفوتها أن تقدر الأشياء بأقدارها.. وكل ذلك تحسسا للطريق أمام الإسلام..

ونسجل هنا أن في تلك المخاطبات التي رأينا النورسي يوجهها إلى الساسة في بلاده، تتكرس روح التنزه عن المفاعلة السياسية بصورتها الخضوعية.. إذ يظهر النورسي دائما في موقع فوقي، أو ندي .. إذ لا يلبث أن تعاوده روح الترشيد المركوزة في النفس أصالة، والمستحكمة فيها بتأثير مبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ذلك المبدأ الذي لا يتجزأ عن الخدمة وإن أخذ أشكالا وصوراً مختلفة..

[104] اللمعات.158

11- المرأة في رسائل النور

ينظر الإسلام إلى المرأة بكامل الرقة والنفاسة والتقدير وينيط شمائلها بالحشمة والعفاف، لأنه ثبت تاريخيا أن الزلزالات المردية إنما تقع حين يتجاوز الإنسان حدود الله التي تضبط علاقة الذكر والأنثى وتميز بينهما من حيث القابليات والاستعداد، ذلك التمييز المبرأ من شوائب الامتهان أو الاستنقاص، إذ هو تمييز الفطرة والتكامل الذي تستقر عليه المسطرة المرشدة لأخلاق التساكن والتعامل .

هل التطور الجديد المطرد سيخلق نموذج الأنثى المسترجلة، تلك التي تؤهلها قوامتها الرجولية لمنافسة الذكر؟

الواقع أنه ما دامت خلقة المرأة وطبيعتها الفيزيولوجية تمايزها عن الرجل، وما دامت المرأة أيضا تفوق الرجل في معين المواجد التي جعلت منها - بمشيئة الله - الطرف الأقدر على العطاء .. فلم التوق المحموم إلى وضع المرأة في موضع الندية أمام الرجل وفي كل المضامير؟

ترى ما قيمة أن تفلح المدنية في إبراز الأنثى الأقهر للرجل على صعيد الرياضات الجسمانية مثلا؟

أليس منطق الموازنة بين الرجل والمرأة يقتضي مقايسة إمكانية كل منهما في كافة الميادين حتى في ميدان الغلظة والمغالبة العضلية، لتستكمل شروط الموازنة ويقوم البرهان على التماثل أو على التفوق ؟

ثم أليس في مجرد تمثلنا للمرأة وهي تصعد الحلبة وتواجه شقيقها الطبيعي الرجل، هو توق مرضي ضار بالقابليات وبالجمال وبجوهرعلاقة التساكن التي تطرد بها الحياة؟

إن كل دفع بالمرأة في إطار الندية والاسترجال هو إنهاك لطبيعة الأمومة وإهدار لفيض الكمال الخلاق والجمال الملهم..

فالمرأة مخلوق حساس، مجبول على الغض وعلى الاستحياء، والمجتمع الضال هو الذي يستثير فيها منازع التهتك والخروج عن الفطرة :

" تتخوف النساء فطرة خوفا حقيقيا من غير المحارم، وتتجنبهم جبلة، فتنبهها خلقتها الضعيفة تنبيها جادا إلى التحفظ وتدفعها إلى التستر، ليحول دون إثارة شهوة

غير المحارم، وليمنع التجاوز عليها، وتدلها فطرتها على أن حجابها هو قلعتها الحصينة وخندقها الأمين"[105].

من هنا لزم أن يتحمل المجتمع مسؤوليته حيال المرأة وأن لا يغمطها حقوقها، من خلال إقحامها في تأدية أدوار ووظائف تجفف فيها رواء العواطف القدسية، وتستنزف منها قابليات الرحمة والإغداق والأمومة ..

حقا إن الحياة، لا سيما المعاصرة، حيث تتسع يوما بعد يوم دائرة التخصصات التكنولوجية الدقيقة التي تستجيب لطبيعة المرأة ولصلابتها الوجدانية والشعورية وبالنظر إلى ما تتميز به من قدرة على الصبر والاحتمال - بما فطرها الله عليه من طاقة عطاء خارقة - قد هيأت للمرأة من المهام والوظائف والمسؤوليات ما لا ينبغي أن ينافسها فيه الرجل، شريطة أن يتأطر المجتمع بحصانة أخلاقية تدفع عنه الشوائب.

النورسي .. والمرأة

يتمازج في مواجد النورسي حيال المرأة إحساس الأبوة وعواطف القربى التي يحملها المرء لذويه.

لقد ظل ينظر إلى المرأة بإكبار لا مراء فيه انطلاقا من روح الإكبار التي كان النورسي يحملها لوالدته ..

ومما لا شك فيه أن النورسي كان يجد في صلته مع المرأة النورية، سيدة أو فتاة، شيئا من الحنان الذي كانت مشاعره تختزنه لأخواته ولأمه.. كان يتوجه إلى النساء النوريات بطرف غضيض ولكن بقلب مفتوح، وكانت توجيهاته لهن تظهر شفقته الطاهرة عليهن واعتزازه بهن.. وكانت نصائحه لهن من الخلوص ما لا يكون إلا بين البنت ووالدها.. وكان يذهب به الوجدان التأملي أحيانا فيرسل من عبارات التنويه والتمجيد ما يرقى فعلا إلى النجوى القلبية المستهيمة بالطهر:

" النساء رائدات الشفقة وبطلات الحنان " [106].

لقد طفق النورسي يشيد بخصال المرأة القرآنية ويعدد تضحياتها ويؤكد دورها في استنقاذ نفسها وأسرتها وبالتالي المجتمع، من التردي والفناء :

"إن فداء الأم بروحها انقاذا لولدها من الهلاك من دون انتظار لأجر، وتضحيتها بنفسها بإخلاص حقيقي لأولادها باعتبار الوظيفة الفطرية، تدلان على وجود بطولة

---

[105] اللمعات 301

[106] اللمعات307

سـامية رفيعـة فـي النـساء، بحيـث يـستطعن أن ينقـذن حيـاتهن الدنيويـة والأخرويـة بانكشاف هذه البطولة وانجلائها في أنفسهن " [107].

لقد كان النورسي على إدراك تام لما كانت المرأة المسلمة تتعرض لـه من عنت يستهدف هويتها ومصيرها، لذلك وجدناه يلفت الانتباه إلـى مساعي المفسدين ويقول: "إن تيارات فاسدة تحول دون ظهور تلك السجية القيمة وتمنع انكشافها أو تصرف تلك التيارات هذه السجية الطبيعية إلى غير محالها، فتسيء استعمالها"[108].

لقد كـان النورسـي علـى وعـي بآثـار تلـك التحـولات الروحيـة والاجتماعيـة التـي استهدفت قيم التماسك والصمود واستبدلتها بأخرى وبقابلية التميع والتحلل والتفريط. فلا غرابة أن تنساق المرأة - ومن ورائها المجتمع - مع التيار التفريطي، ذلك لأن جهات التغيير قد توسلت لإحداث الثغرة في جدار القيم بأساليب إنهاكية خبيثة من أجل خلق الشروط المادية والأدبية التي تساعد على إحداث التغيير والتبديل .

وكانـت النتيجـة المؤلمـة أن فشت فـي المجتمـع روح التنـازل، بـل روح التهافـت، بحيـث أضـحى الانحـراف يـتم أحيانـا علـى يـد الأسـرة والمجتمـع، فـدور الأمهـات فـي شيوع روح التخلي عن القيم لقاء مكاسب عاجلة كان يؤذي النورسـي، وهو مـا سجله قائلا:

"إن الشفقة والحنان الكامنين بإخلاص حقيقي وتضحية وفداء قد أسيء استعمالها في الوقت الحاضر، إذ لا تفكر الأم بما سينال ولدها في الآخرة من كنوز هي أثمن من الألماس، بل تصرف وجهه إلى هذه الدنيا التي لا تعدل قطعا زجاجية فانية، ثم تشفق على ولدها وتحنو عليه في هذا الجانب من الحياة، وما هذا إلا إساءة في استعمال تلك الشفقة " [109].

لقد اقترن التراجع السلبي عن القيم في مجتمعاتنا الإسلامية بترويض مدمر للمرأة والفتاة على تبني قيم نقيضة لقيم المجتمع .. إذ كانت القوى التغريبية ومن ورائها أوصياؤها تعرف أن تقويض الهوية لا يتم ما لم يستهدف الأساس .

ولما كانت المرأة في أي مدنية هي أساس العمران، فقد تم تخريب صرحنا وتراثنا عندما تسربوا إلى خنادقنا ولغموا الحياة من حولنا بتدجين المرأة المسلمة، إذ جعلوها تقبل الدناءة وتحترف الانغماس ولا ترعى شرفا ولا حرمة .

---

[107] اللمعات 308

[108] اللمعات 308

[109] اللمعات 309

على أن المخزي هو أن المرأة المتغربة أضحت لا تستشعر عارها، لأنها فقدت عقلها وأضاعت ضميرها، ولم تفد شيئا لقاء ذلك إلا التردي الجسدي.

وكل ذلك نبه إليه النورسي وأنذر من مغبته وحاجج وساق الشواهد وضرب الأمثال..

بل لقد لفت النورسي إلى ما كانت تقوم به المنظمات السرية من دور خطير في سبيل إفساد المرأة المسلمة، ولأجل التصدي لذلك الإفساد المدمر أهاب النورسي بالأمة أن تحتمي من مخاطر تلك الشرور وأن تسد الثغرات في وجهها بتحصين المرأة المسلمة بالقرآن.

ومن المفارقات العجيبة أن نجد تلك المنظمات الأجنبية الخبيثة بدائل لها في مجتمعاتنا.

ولقد رأينا كيف ظلت - ولا تزال - منظمات نسوية واتحادات وجمعيات نسائية تمارس تحت شعارات وطنية ونضالية دورا تحطيميا يستهدف القيم والأصالة والمقدسات. وقد فاقم من هذا الدور اليوم، التوسع الرهيب للوسائط الإعلامية، بحيث لم يعد من مدافع عما تبثه الأنتارنيت والقنوات الأخرى إلا التحصين الروحي الذاتي.. وهو ما يحققه القرآن العظيم وتكفله رسائل النور .

إذ أن تفتح المرأة المسلمة على آداب القرآن لمن شأنه أن يحميها ويجنبها الوقوع في دنس القذرين. لقد آمن النورسي أنه " لا يمكن في هذا الزمان تَنَعُّمٌ بحياة عائلية وبلوغ سعادة الدنيا والآخرة واكتشاف لسجايا راقية في النساء إلا بالتأدب بالآداب الإسلامية التي تحددها الشريعة الإسلامية الغراء" [110].

المرأة والرجل .. ومبدأ الكفاء

أكد النورسي مبدأ التكافؤ بين المرأة والرجل، شرطا أساسيا لإنجاح الزواج وتمكين عقدة الاقتران من الاستحكام والثبات والدوام:

"إن ما هو مطلوب شرعا أن يكون الزوج كفؤا للمرأة وهذا يعني ملاءمة الواحد للآخر، وأهم ما في الكفاءة هذه هي كفاءة الدين كما هو معلوم " [111].

ولا ضير - في نظر النورسي - أن تختار المرأة المسلمة العزوبة على الاقتران بمن سيضر بعقيدتها أو ينحرف بها عن الدين:

---

[110] اللمعات311

[111] الملاحق 301

"يجب ألا يبعن أنفسهن رخيصات سافرات كاشفات عندما لا يجدن الزوج المؤمن الصالح ذا الأخلاق الحسنة الملائم لهن تماما، بل عليهن البقاء في حياة العزوبة إن لم يجدن ذلك الزوج الكفء كما هو حال بعض طلاب النور الأبطال، حتى يتقدم لطلبها من يلائمها ممن تربى تربية الإسلام وله وجدان حي ليكون رفيق حياة أبدية يليق بها، وذلك لئلا تفسد سعادتها الأخروية لأجل لذة دنيوية طارئة فتغرق في سيئات المدنية "[112].

وواضح هنا البعد التجنيدي الذي يأخذ به النورسي في هذا المقام.. فعلى غرار تجنده هو، واختياره لنهج العزوبة والتبتل، خدمة للإسلام ومرابطة على ثغوره الأولى، كان يشاء للمرأة المسلمة أن تنهض بمسؤوليتها حيال ربها وحيال نفسها، فالشر المستطير الذي كانت التحولات التغريبية تصعد منه كان يتهدد المرأة في أخص ما صانه بها الله من السقوط : الإيمان، لذا اختار النورسي لها أن ترابط وتجاهد ما لم تجد القرين القرآني.

ومن جهة أخرى طفق النورسي يندد بأخلاق التبرج والتعري والاستعراض الجسدي المتحلل. فالتبرج وتعرية المفاتن طريق إلى تأجيج ثعابين النفس حتى إزاء المحارم.. "ان كشف ما لا يجوز كشفه كالساق قد يثير لدى النفوس الدنيئة حسا سافلا لزوال الشعور بالحرمة "[113].

كما إن كشف الجسد على النمط الغربي يتضمن روح الرضى بالتفحش وقبول الإثم.. ثم أن الأسس الفكرية للغرب تتعاطى العري كفلسفة وجود ومقوم جمالي حيوي حاضر في الحياة العامة، وما تعكسه أنماط التماثيل التجسيدية للمرأة العارية التي أثلتها المدنيات اليونانية والرومانية والغربية عامة، والموقع المركزي الذي تحتله تلك التجسيمات البشرية المكشوفة في المدن والحواضر، بل وفي الدور وحتى داخل المعابد والهياكل العمومية، ليظهر الفلسفة الأخلاقية الخاصة بالغرب تجاه الجسد ..

إذ أنها فلسفة تقوم على أسس حسية، شهوية، محورها الإنسان والجسد والمفاتن.. لقد ترسخت الحسية الغربية المعاصرة من خلال تراثها الأبيقوري وأيضا بفعل روح تقديس الجسد التي تقوم عليها العقيدة الإنجيلية.

[112] الملاحق 342
[113] اللمعات 302

إن التبرج - كما يقول النورسي - يفسد الوفاء[114]، لأنه يقوم على قابلية عرض الجسد، وهي قابلية ترادف الدعوة الفاحشة، والتلويح الفاسق، والإعلان عن الموافقة المبدئية لابتذال الشرف وإِعطاء الذات..

من هنا شدد النورسي على الصيانة الأخلاقية، فالتفريط في أخلاق الأمة تفريط في وجودها .

بل لقد ألفيناه يتحوط في ضبط السلوكات، لا سيما تجاه المرأة التي هي المدرسة والموجه الفعال لروحية المجتمع، فلا عجب إذأ ما وجدناه يتقدم في مضمار نشر الفضيلة فيلزم المرأة بضرورة التماسك حتى على صعيد تعاطيها للقيم الفاضلة. فقد رأى أن مروءة المرأة وانضباطها يربآن بها أن تكون سخية أو أن تكون شجاعة في المواقف التي قد تداخل النفوس حيالها، مطامع ريبة ..

فالتصون هو الإطار الذي يكمل فيه شرف المرأة ويكسبها الحرمة والمبرة والإكبار. وكل تجاوز منها لعتبته، فإنما يفضي بها إلى التبذل ويطمع فيها أهل السفالة.

فأفونة الرجال في زمن الثقافة اللائكية والسفور الأبيقوري والديمقراطية الماجنة جعلت المرأة تطالب بالقوامة، وتدعو إلى حقها في تلك القوامة بحماسة مخلصة في أحيان كثيرة، نظرا لما تعانيه في حياتها الزوجية من إحساس مرير بخضوع غير مبرر لزوج لا يجسد لها القوامة التي تأنس لها نفس المرأة وتركن وتجد فيها الدفء والحماية والروح الرضية، إذ قرينها شخص مهين ولا يملأ العين ولا يفي بالحقوق الزوجية..

وكل ذلك ناتج عن حال افتقاد رابطة الزواج لشرط الكفاء الذي أكده النورسي.. الكفاء في شتى المستويات ..

لقد ميعت الأخلاق الغربية والحياة المعاصرة الجانحة نحو التخنث، سجايا الرجولة في الشباب والذكران، وكانت انعكاسات ذلك التميع سلبية على علاقة الرجل والمرأة، الأمر الذي أوقع المجتمعات الإسلامية في إشكال المطالبة بما أسموه المساواة ..

وقد زاد من تفاقم وضع المتغربين - من حيث أقروا بالنقص إزاء زوجاتهم وكتعويض عن تقصيرهم وقصورهم حيالهن - أن باتوا من دعاة إقرار قوامة المرأة .. كل ذلك ضمن أجواء عالمية تتربص بالإسلام وتكيد له وتعمل على تقويض دعائمه

---

[114] اللمعات 303

من الداخل، والدأب على تهييج الطوابير النسوية ومن سار في فلك (الفيمينيزم)[115] قصد ضرب الأسس السماوية لروحية المسلمين..

ومن الثابت أن شعارات حقوق المرأة في المجتمعات الإسلامية أمر قد تبرره - من بعض النواحي - الأحوال الانحطاطية العامة التي يعيشها الإنسان. لكن المؤكد أن هذه الحقوق مصونة بالتشريع الإلهي الذي لا تستطيع الاجتهادات مهما استنارت أن تجد في ما سن الله للمرأة وقنن إجحافا أو جورا أو إلحاقية مهينة ..

وينبغي أن نسلم بأن الجلبة الشعاراتية الدائرة اليوم حول حقوق المرأة إنما هو أمر يندرج ضمن غلبة تهريجية غربية غايتها تكريس التنميط الثقافي والحضاري من أجل ضمان البقاء ودوام الظهور لحضارتها..

والمؤكد أن التطورات التي ستؤول إليها الجنوحات المدنية الراهنة سوف تنتهي بها إلى الطريق المسدود، وستجد البشرية نفسها حتما تعود يوما إلى الناموس الأعلى تأخذ بتعاليمه..

وفي ما يخص المدنية الإسلامية فالمؤكد أن المرأة ستكون خير مدافع عما أقر الله لها من حماية وصون، ذلك لأنه لا خيار آخر لها يرقى إلى مصونية القرآن، ولعل ما ترى عليه الآن المرأة الغربية في أرقى الأصعدة، من تدهور خفي ومعلن، ومن شيئية، لخير دليل لها على سمو شأنها في ظل القرآن..

وإذا كانت المدنية الغربية الراهنة قد أشاعت ذوق العري وخلقية السفور، وذهبت في هذا السبيل إلى أبعد الحدود، فلا جرم أن انعكسات ذلك الوضع قد عادت بالويل والثبور على المرأة ذاتها.. إذ انبخست ولم تعد مناط إلهام وإعزاز ظلت تحوزه طيلة العصور..

لقد بات هذا المخلوق الأنثوي الذي طالما أحلته الفطرة محل الحميمية والجذب والإعلاء، مجرد متاع يتبذل على نحو مكشوف تتأباه حتى الحيوانات بسليقة الحشمة والتستر التي جعلها الله ناموسا تنقاد إليه المخلوقات بغريزتها ..

وتلك بعض وجوه الحكمة التي أقام الإسلام عليها مبدأ الحجاب .. إذ بالحجاب تتكرس للمرأة النضارة والطهر والجاذبية الملهمة وليس فقط الوازع القذر كما هو حال المرأة في مدنية الغرب اليوم.

العزوبة وروح المسؤولية حيال القرآن وخدمته

---

[115] مصطلح LE FEMINISME يقصد به تيار منادي ومدعم للمرأة كمحور مدني ومرجعية قيمية، وهي تعاكس المذهب الرجالي والنظرة التقليدية للأسرة والأخلاق..

" في الوقت الذي يلزم لصد هجوم زندقة رهيبة تغير منذ أربعين سنة فدائيون يضحون بكل ما لديهم قررت أن أضحي لحقيقة القرآن الكريم لا بسعادتي الدنيوية وحدها، بل حتى إذا استدعى الأمر بسعادتي الأخروية كذلك، فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقي ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الوقتي مع علمي بأنه سنة نبوية، بل لو وهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسي مضطرا إلى التخلي عنهن جميعا من أجل تلك الحقيقة، حقيقة القرآن. لأن هذه المنظمات الملحدة الرهيبة تشن هجمات عنيفة وتدير مكايد خبيثة فلا بد لصدها من منتهى التضحية وغاية الفداء، وجعل الأعمال في سبيل نشر الدين خالصة لوجه الله وحده من دون أن تكون وسيلة لشيء مهما كان.

وقد أفتى علماء منكوبون وأناس أتقياء لصالح البدع، أو ظهروا بمظهر الموالين لها من جراء هموم عيش أولادهم وأهليهم، لذا يقتضي منتهى التضحية والفداء ومنتهى الثبات والصلابة وغاية الاستغناء عن الناس، وعن كل شيء تجاه الهجوم المرعب العنيف على الدين، ولا سيما بعد إلغاء في المدارس وتبديل الآذان الشرعي ومنع الحجاب بقوة القانون، لذا تركت عادة الزواج الذي أعلم أنه سنة نبوية لئلا ألج في محرمات كثيرة، ولكي أتمكن من القيام بكثير من الواجبات وأداء الفرائض، إذ لا يمكن أن تقترف محرمات كثيرة لأجل أداء سنة واحدة، فلقد وجد علماء أدوا السنة النبوية أنفسهم مضطرين إلى الدخول في عشر كبائر ومحرمات وترك قسم من السنن والفرائض في غضون هذه السنوات الأربعين" [116].

إن الأعداء يغيرون علينا دائما وقد حلقوا لحى بعض أحبائي، فأدركت عندها حكمة عدم إطلاقي اللحية، وأنه عناية ربانية، إذ لو كنت مطلقا اللحية وحلقت، لكانت رسائل النور تتضرر ضررا بالغا، حيث كنت لا أتحمل ذلك فأموت" [117].

---

[116] سيرة ذاتية 494

[117] سيرة ذاتية 496

12- الفقه الأكبر

مصطلح الفقه في فكر النورسي تتشرع دلالته ليس فقط لتمس مجال المعرفة أو الفهم الاجتهادي، بل إنها تتسع لترادف زيادة على ذلك معاني الاستيعاب والتمثل والاستشراف. استيعاب الظواهر وتمثل الوقائع واستشراف المغيبات والاحتمالات..[118]

ويمكننا أن نربط نطاق هذا الفقه بما انجزته رسائل النور في مجال الثبات الروحي والمدني والإنساني، من حيث شاء النورسي أن يتخذها مدونة مرجعية تستلهمها الأمة أنوارا تسترشد بها على الطريق.

فالرسائل هي مدونة هذا العصر بلا منازع، وهي ليست بدعا في مضمارها الترشيدي الشمولي، إذ الأمة طفقت تعتمد المدونات وتحيل عليها توجهاتها ومقتضيات واقعها المتجدد .

وإذا كانت كتب الصحاح قد شكلت أساسا هرميا في مجال التدوين الفقهي والشرعي الإسلامي، فلا شك أن كثيرا من الأعصر قد حازت مدوناتها التي أعدها متنورو الأمة وسعوا من خلالها إلى حفظ الكيان من دواهي الزمن ودواعي الانحطاط..

لقد كان كتاب الموطأ وما تلاه من الكتب الشرعية معالم الإحالة الفقهية التي حصنت الأمة من الضياع .

ورسائل النور لا تخرج عن هذا النطاق التحصيني، وإن تميزت بروحها الفقهية الأكثر لصوقا بحاجات الإنسان المسلم الجديد، لا سيما وهو يخوض إشكالية التعويم الثقافي والحضاري على نحو آني ومباشر وعضوي مدمر.

وإذا كانت المدونة القدسية الأم لدى المسلمين هي القرآن العظيم، فالذي لا جدال فيه هو أن مدونة رسائل النور هي تفسير ألمعي للقرآن، تمرست معانيَه المحكمة والمتشابهة وفقهت تصريحاتِه وموعزاته بنباهة مفتوحة على الآتي وعلى الاختلاف

---

[118] ننوه هنا بالبعد الحداثي والواقعي الذي أخذه مشغل الفقه الأكبر عند النورسي، فقد تجاوز بهذا الحقل الإطار التقليدي المحصور في مسائل الفقه والتشريع التي ظل الفقهاء القدامى يتناولونها... إنما الجديد عند الأستاذ النورسي في حقل الفقه الأكبر أنه خرج بالعقل التشريعي من الإطار التقليدي ليواجه مسائل ونوازل حضارية تهم الإنسان المسلم في واقعه الراهن والمستقبلي. ألم نجده ينافح عن مسائل أثبتها العلم من قبيل دوران الأرض ويتصدى للفقهاء التقليديين، وقصده تحريك العقل المسلم ليكون متوافقا مع زمنه وعصره. ذلك هو شيء من المضمار المعرفي الذي شاء الأستاذ النورسي أن يؤصل فيه مباحث الفقه الأكبر.

والتنوع ، وهو ما حول رؤاها، ليس فقط إلى قراءة تتهيأ لحيازة المعنى القرآني الماثل للعيان والمتصاقب مع وقائع الراهن، ولكنها إلى ذلك رؤى تضع في خلدها إمكانات القابل والملائم والتسديد .

فهي من ثمة تبني تقريراتها على منطق استشرافي لا يهمل المستقبل ولا يغفل هامش الاحتمالية. إنها بذلك الجهد ارتقت إلى صعيد الاجتهاد والفتوى القائمة على روح وفقاهة جليتين.

ويمكننا أن نقول إن مدونة الرسائل، من حيث هي فقه أكبر قد استوعبت في ثناياها مجالات الحياة والاجتماع بصورة شمولية : ويمكننا في عرضنا الوجيز هذا أن نكتفي بالإشارة إلى ميادين معرفية ومنهاجية تناولتها الرسائل من منظور رؤيوي فقهي سديد.

السياسة من منظور الفقه الأكبر

لقد تعاطت الرسائل موضوع السياسة من منطلق تفكيكي تجاوزي،إذ مكنتها الرؤية الخارجية غير المتورطة في ملابسات الواقع، من أن تقوِّم حقيقة الفعل السياسي، وتحدد طبيعته، وتميز مستواه ..

فالفعل السياسي النوري مثبت في الرسائل لا كرد فعل اعتراضي سلبي، ولكن كجهد أخلاقي وكانِقلاب جذري يؤسس علاقة جديدة وأبجدية بديلة للحدث السياسي التقليدي.

إنه الفقه الأكبر والخدمة الروحية الدائبة في الإنجازات. وإن ساحته تتجاوز نطاق السياسات الدنيوية المقيدة بصورة جلية بالحاضر والغارقة في أوحال مناوراته .

فالفقه الأكبر جهد شمولي يرسي رؤية إيمانية تراهن على ربح الأشواط انطلاقا من توجيهات رب العالمين.

من هنا كان الفقه الأكبر سياسة مستقبلية مغايرة ونقيضة وطاهرة وتدرج في حسابها وبصورة جوهرية تبعات الحساب والعقاب، من حيث كون الحساب والعقاب أقوى ضابط يصون الإنسان من الزلق والانحراف..

مارست الرسائل السياسة وخاضت فيها، ليس بمنهج الكواليس ولكن بمنهج الترشيد القرآني فنازلت السفياني. واستمالت ذوي القابليات من غير ختل، وسكنت العواطف المتهيجة، ورفعت شعار: حسبي الله في وجه العتاة، وزرعت الحقل بما ستملأ ثماره سلال الإسلام في وقت قابل، طال الزمن أو قصر.. لقد اختارت أن تعمل

على نقيض عمل أهل الدنيا، إذ اختاروا الاستماتة في السعي للظفر بالعاجل الآني، واختارت هي العمل المتأني، لكنه العمل الراسخ والمنوط باستنبات أشجار مثمرة تصان وتسقى وتحاط بالرعاية والتعهد سنوات قبل أن تجود بثمارها .

السياسة الحاضرة ختل ونفاق ومناورة وصفقات تراعي المصلحة الخاصة، وتكتيك ظرفي، مرحلي، منطقه المفضوح : إذ مت ظمآنا فلا نزل القطر.

والسياسة من وجهة الفقه الأكبر هي العكس من ذلك كلية. فهي وضوح لا تمويه فيه، لأنها تستند إلى برنامج أخلاقي ومبدئي هو القرآن العظيم. وهي أيضا صراحة ومشاورة واتفاق ورؤية بعيدة لأنها محكومة بخلق، ثابت لا يتغير ولا تؤثر فيه الظروف.

على أنه يمكننا حوصلة منهج هذه السياسية في الآتي : الخيار السلمي المدني للخدمة والعمل - الجماعية في العمل والتنفيذ - توسيع نطاق الخدمة ليشمل قطاعات المجتمع الحيوية - ربط الجماهير ببرنامج عمل ثابت الأركان بعيد الاستشرافات هو القرآن المتجدد روحيا بتجدد الأجيال، فهو من ثمة معطى سماوي غير قابل للتجاوز، إذ هو منزول رباني نصيته فوق العقل وليس العقل فوقها، على أن النصية لا تعني الحرفية فقط، بل تعني أيضا التنزل والتنزيل الذي لا يجرد الدلالة القرآنية من إشعاعها الخصب المستوعب لكل جديد.

استقطاب النخب والطليعية أمر حيوي، ولكن ليس على أساس احترافي، بل تطوعي ذاتي محض، وفي هذا النطاق يتحدد دور المرأة بصورة أساسية، ليس بصفتها عضوا عاملا فقط، ولكن كعصمة وتسام وإرادة غير قابلة لأن تتردى وجُنَّة يتقي بها المجتمع مخاطر التدمير .

فالمرأة النورانية طاقة ملهمة وجهد ملائكي مبارك، من هنا لا يقتضي منها وضعها كامرأة أن تتقبل الاقتران إلا بمن يكون في مستوى من القوامة ليتواصل جهدها القرآني ولا ينقطع، كما لا يجب إغفال إمكانية التأثير الإيجابي الذي سيكون لها على رفيق دربها إذا ما أفلحت في استنقاذه من الضلال. وجوب التجاوز بالخدمة القرآنية ونشر الإسلام النطاق النظري إلى مستوى التأثير البليغ والاستقطاب الناجع، وهذا بالارتقاء المادي والمدني.

المستوى التربوي من منظور الفقه الأكبر

اتسمت رؤية الفقه الأكبر في حقل التربية والتعليم بمحورية ناجزة وعملية تقوم على:

* التحديث المعرفي وهذا بإدخال كل مادة علمية يثبت أنها عامل مفتق لذهن المتعلم، ومَرْفَدٌ علمي مقوي للمحصول المعرفي لدى المتعلم.

* الاختيار: وهذا بفرز المواد التعليمية، بتنقية البرامج مما يكون ضمنها من مواد لا تفيد العقل، أو بالأحرى التي يغدو تعاطيها التحصيلي يشكل عبئا على الذهن وعائقا لا يفيد، شأن الفلسفة الميتافيزيقية القديمة، فهي مادة لا يرى النورسي لها مكانا في المنظومة التعليمية المهذبة، ويمكن أن يقاس عليها سائر المواد التي يثبت أنها لا تخدم الشخصية التعليمية أو لا تجاري الكشوف العلمية المستجدة، إذ التطور العقلي يفرز باستمرار مجالات معرفية جديدة، وهو ما يقتضي من المنظومة التربوية أن تتهيأ لاستيعابها إذا ما رأت فيها الجدوى والمردودية العقلية والتطبيقية لدى الطلاب .

* العامل الزمني التحصيلي : كما راعت وبصورة جلية العامل الزمني والنصاب الذي يستغرقه التعليم، إذ أن ضبط المدة التي يسلخها المتعلم في التحصيل أمر مهم، لذلك أخذ المنهج النوري الجديد أمر النصاب المرحلي التعليمي بعين الاعتبار، وجعل من إختزال مدد التلقي والتعلم مبدءأ أساسيا، وهذا لصالح التلميذ أولا، ولصالح الأمة والمرافق التعليمية التي تحتم عليها وظيفتها التكوينية التوسع واستيعاب كل المتمدرسين. وإن من شأن اختصار المدد الزمنية ليساهم في تفريغ التلميذ والطالب باكرا، وإتاحة الفرصة لغيره، فضلا عن التثمير الفعال الذي يهيئ التلميذ والطالب للعمل ومباشرة البحث والاندماج في الحياة على نحو مبكر وباستعداد. وهو ما لم تراعيه نظم تعليمية قديمة تميزت مناهجها بطول المرابطة والتلقي المعرفي الاجتراري التكراري..

من جهة أخرى أكد الفقه الأكبر على أهمية تطوير البيداغوجية وأساليب التدريس والتوصيل المعرفي، فالنورسي الذي أساءه كثيرا أن يرى وعاظا ومرشدين عاجزين عن توصيل معارفهم إلى المتلقي، حرص على أن يلفت الانتباه إلى هذا الجانب الحيوي والذي تتوقف عليه بقية الشروط التي أناط بها تحقيق الرؤية التعليمة في كليتها. فمن شأن النجاعة في التدريس والتوصيل، أن تيسر مهمة الاستيعاب على المتلقي، وتجعله يستزيد بدون كلل أو نفور من المواد التي يشملها المنهاج التعليمي المقرر، الأمر الذي يسرِّع من آلية التكوين ويجعل نتائجها إيجابية ليس إحصائيا فقط،

ولكن نوعيا وتمثليا، فالمادة التعليمية التي يفلح المنشط في توصيلها إلى الأذهان بمهارة لا تعنت الملكات والقابليات، وهي مادة سيتوسع بها الذهن وينمو العقل وينشط الاستعداد، على عكس المادة التي تستقر في الذهن بعد مشقة وعلى نحو تلقيني غير نضيج، فتلك ستغطي حيزها في مساحة الذهن دون أن يستفيد منها العقل كثيرا، من هنا كان أسلوب التحفيظ المستغلق، الذي لا يقوم على قاعدة الفهم والإفهام، أسلوبا يدمر الملكة، بل وربما يسيء حتى للذاكرة، إذ ملكات العقل متراسلة ونشاط بعضها ينعكس على البقية جدليا.

النورسي رأى من جهة أخرى وجوب اتباع نهج التخصص، فحيث أن المنظومة التعليمية تتوسع باستمرار، وموادها تتكاثر على نحو مطرد، فلا أحسن من أن يعمد التعليم إلى اتباع نظام التخصص، لاسيما على مستوى الدراسات العليا، إذ لا يفيد كثيرا أن نرسي نظاما تعليميا عاما من غير أن تمتد له التخصصات، وينبغي لنظام التخصص أن يركز - تبعا للاختصاص - على مواد محدودة أساسية تدخل في لب الاختصاص، وعلى أخرى جوارية تكمل الأساسية وتكون محيطا معرفيا لها، يساعد على تكميل رؤية المتخصص وتوفير المجال الهامشي الذي يتيح لرؤيته التحصيلية المركزة أن تستوفي حقل اختصاصها على ذلك النحو الكامل.

* كما حرص النورسي على إبراز أهمية التجهيز، إذ أن التكنولوجية تفرز باستمرار تجهيزات آلية ووسائلية من شأنها أن تفيد حقل التعليم، ولذا يتحتم على المنظومة التربوية أن تدمج كل وسيلة تعليمية مفيدة في هيكلها، لقد رأيناه ينوه ويكيل المديح والإشادة بجهاز الرونيو، لما وجد له من أهمية عملية على بث العلم وتوصيله إلى الأقاصي ونشر المعرفة بين الناس، ونفس الإشادة عبر عنها - في صورة حمد واستطراف - لدى ظهور المسجلات الميكروفونية، فلقد رآها وسيطا تقنيا على درجة عظمى في التوصيل وتعليم الناس، بل لقد رأيناه يحدد للراديو، لدى ظهوره مطلع القرن، وظيفة تعليمية فعالة، قدر أن مردوديتها ستكون باهرة، لولا أن الناس انحرفوا بهذا الوسيط إلى مجالات الترفيه بل والإغواء.. لقد ظلت رؤية النورسي التربوية رؤية تكنولوجية، إذا صح القول، فقد كان يهمه أن تختصر المراحل التحصيلية في زمنية مضبوطة، بل لقد رأى أن امتياز منهاج النور كونه يعطي الطالب أو يهيئه لأن يتلقى في خمسة عشر يوما ما كان يتلقاه في السنوات العديدة بخطا المناهج التعليمية العتيقة.

على أن منظور الفقه الأكبر يضع في حسابه شرطا مركزيا يتمثل في محورية المنهاج، بحيث يكون القرآن منطلق المواد ومنتهاها، إذ لابد من جذع مشرك، ومن قاعدة تحصيلية ينطلق منها المتمدرسون، وهذا الجذع المشترك لا يكون إلا القرآن العظيم، فهو كتب لا كتاب، يستوعب مواد الجمال والفلسفة والتاريخ والذرة والرياضة والعلوم والفلك والبحار والحضارات والمستقبليات..، وعلى المدرس أن يتخير منه لطلابه ما يتلاءم مع برنامجهم، وعلى المواد التعليمية الحديثة أن تتفاعل على صعيده بنظرياتها وكشوفها وأن تواجه نتائجها مع الناجز القرآني، وذلك ما يوطد قابلية الإيمان في النفوس بصورة مكينة لا تتزعزع.

الفقه الأكبر فاعلية معنوية ناجعة

من الواضح أن مساحة الفقه الأكبر في رسائل النور قد توسعت من خلال مساحة الاهتمام الذي كان النورسي يخصصه لمتابعة شؤون الدعوة والأتباع وتسديد المسيرة ورسم أبعادها ودمج الفيئات في صفوفها. من هنا وجدنا الرسائل تنهض بجهد معنوي ترشيدي لفائدة الجماعة النورانية، من حيث رفع معنوياتهم وتقوية إيمانهم وتثبيت خطاهم.

ويندرج في هذا الصدد ما رأيناه من تفتح رؤية الفقه الأكبر على تفعيل البعد النفسي التعزيزي في رفع إيمان الأتباع، من ذلك مثلا، ما قررته الرسائل من أمر ثبات المحصول الإلهامي والمردود الكسبي المعنوي وحتى المادي الذي يغنمه طالب النور في حياته قبل مماته :

" فلقد ثبت بالتجارب أن الانشغال برسائل النور سواء قراءتها أو استقرائها أو كتابتها يورث الفرح للقلب والراحة للروح والبركة في الرزق والصحة للجسد"[119].

وجلي أن مثل هذه التحفيزات لم يكن القصد منها دعائيا سافرا يراد به التنويم أو التدجيل أو .. بل الغاية كانت الأخذ بيد الأتباع وتجاوز كآبة الظروف القاسية التي ظلت تميز المسيرة، وبث مستوى روحي من ثقافة الكشف التي هي جزء مركزي في الخدمة القرآنية، من حيث ارتكاز كل المسعى النوراني على قاعدة الإخلاص .. لقد عاش النورسي في حياته روحانيا يترسم توفيقات الله في كل ما يتحقق أو يعرض له.. وكان إيمانه ثابتا بوجود تلك اللطائف التي لا يفتأ يخص الله بها عباده ويثمن بها

[119] الشعاعات 530

صِدِّيقيتَهم. من هنا كان يكشف عن بعض ما يحصل له في حياته الخاصة، حملا للأتباع على المضي في طريق الصبر والمجاهدة والكسب المعنوي العميم.

وبنفس الروح، ومن نفس الرؤية نجد النورسي ينظر إلى السجن على أنه "مدرسة يوسفية" لا يكون نزيلها إلا على موعد مع الفلاح الإلهي والدنيوي، تماما كما كان سيدنا يوسف عليه السلام على موعد مع كرامة ربه ورحمته. من هنا ألفينا النورسي يشيع تلك الروح الاستبشارية التي ساكن بها السجن، إذ ظل يطابق بين أحواله وأحوال أتباعه من المساجين وبين حال يوسف عليه السلام. وكان ذلك يخفف من العناء، بل ويجدد الإيمان. وكانت نتائج تلك المصابرة الإيمانية باهرة، لأنها مكنت للدعوة القرآنية من أن تعم الآفاق، وأثبتت للنورسي وطلابه الطلائعيين الأجر والخلود.. كما أن تعليمية الفقه الأكبر قد توسعت بمنظومة من الوصايا التي كفلت للدعوة النجاح والسلامة، إذ عززت تلك التعاليم روح التأهب ومنهج المواجهة : "علينا الأخذ بالحذر الشديد وعدم إبداء القلق وانتظار العناية الالهية بالتوكل لتمدنا"[120].

لقد كانت الرسائل - من خلال منهج الفقه الأكبر - تتعهد روحية الجماعة النورية، وتبدد الغمائم الملبدة التي تغشي سماء حياتهم نتيجة السياسة السفيانية المناهضة لهم وللقرآن، فمنهج الفقه الأكبر كان لا يغفل حتى النطاق الحياتي المعيشي للأتباع، ليس عن طريق بث المغالطات والأوهام أو التنسية أو بث الوعود الكاذبة كما هو شأن الساسة وأهل الدنيا حين يستغفلون الجماهير بمثل تلك التلفيقات التي لا طائل من ورائها، بل لقد كانت الرسائل تشهر أمام أولئك الأتباع حقائق روحية لا يسعهم إلا أن ينتبهوا لها ويغنموا منها ويتزودوا من بركتها.

لقد كانت روحية الفقه الأكبر تحوز مفاتيح الخزينة الربانية، وما أسرع ما كانت تلقي بالعطايا بين يدي الأتباع، لكنها عطايا لا تسد الحاجة الوقتية، بل إنها تكفل الرخاء الواسع لمن كان حظه من الإيمان عريضا..

لقد ألفينا النورسي يوجه أفكار الأتباع نحو باب الله وخزائنه الملأى.. وبدل أن يشير على من كان يشكو الضائقة المادية بالكد الدنيوي - فذاك أمر طبيعي - رأيناه يلفته إلى كنوز الروح والعبادة والإجهاد القلبي،لقد كان النورسي يرتفع على ذلك النحو بالمشاعر إلى صعيد الروحانية ويهيب بالنفوس إلى أن تغنم من مكاسب غيبية

---

[120] الشعاعات 533

تورث الغنى والرفاه المعنويين، ومن شأن ذلك الغنم أن يهون من أعباء الواقع ويخفف من غلوائه ويبرد من استعاره.

لقد وجدناه في بعض مواقف الترشيد مثلا، يواجه تحمحم الأتباع ممن كانت تلح عليهم وطأة العيش وهمومه، ببيان نفاسة الموسم الفضيل الذي كانوا على أبوابه، إذ راح يهيئهم لاغتنام سانحته من حيث مضاعفة الثواب والحسنات بمضاعفة العبادة. لقد طفق النورسي يقرن مكاسب الثواب التعبدي بخدمة الرسائل، إذ لخدمتها مقابل من الثواب والأجر.

الفتوى في منهاج الفقه الأكبر لا تأخذ صبغة الفذلكة المدرسية التي تستهدف التحصين داخل رؤية العرف التشريعي بصيغه التقليدية المتداولة والتي يحذقها ويشغف بها طلاب فقه النوازل ممن تمرسوا في تقسيم المواريث والتركات.. بل هي واقعة تَصْرِف الذهن وتحشد القوة نحو أفاق مدنية فاعلة .. فالفتوى لا تعزز سكونية الفرد، ولا تعمل على إضفاء ذلك التسويغ الروحي الذي يجعله يعيش مستوى من الانسجام مع الذات والمحيط، فالرؤية الشرعية بهذا الوجه تجاوزت إطار التقييد الذي كانت تقتضيه ظروف الانحطاط والمدفاعة، لتضحى رؤية إطلاق ومواجهة، إطلاق مسخر لغاية أبعد مما تراعيه حسابات حفظ الذات والعقل والنفس والمال، لأنها استوعبت كل هذه الكليات ضمن روح انبعاثية ملية شاملة.

يمكن لدارس الرسائل أن يحصي منظومة متكاملة من الأحكام والإستحبابات التشريعية التي أقام عليها النورسي قاعدته الفقهية في ترشيد الأمة وهي تواجه طوارئ الانبعاث..[121]

لا يسعنا استعراض الجوانب التشريعية الكثيرة التي تضمنتها الرسائل، والتي غطت حقولا حياتية واسعة، ولكننا سنتوقف عند شاهد واحد نسوقه كمثال على مقاصد النورسي التجنيدية :

فمن فتاوى الفقه الأكبر رأيه في الزواج وموقفه منه وهو ما رأيناه في غير هذا المكان.

لقد ألفيناه يوجه المرأة المسلمة إلى أن تختار العزوبة على أن تتزوج بمن يعنتها في دينها:

---

[121] هل نعد بأننا سنفرز منظومة التشريع كما تضمنتها رسائل النور ونقدمها في صورة مدونة مبوبة ؟ الفكرة تلح علينا، والنية معقودة إن شاء الله.

" فيجب إذن أن لا تدفع المرأة إلى الزواج أحاسيسها ودوافعها النفسية وميلها الفطري" [122].

وتتسع مسطرة الفقه الأكبر فتضع الرأي العملي الذي من شأنه أن يضمن كرامتها ويصون عقيدتها :

" إن المرأة محتاجة فطرة إلى من يعينها في أمور العيش لضعف في خلقتها، فمن الأولى لها أن تسعى لكسب نفقتها بنفسها ـ كما هي الحال لدى نساء القرى ـ وذلك أفضل له بعشرات المرات من أن تدفعها تلك الحاجة إلى الرضوخ لسيطرة زوج نشأ على تربية غير إسلامية ـ كما في أيامنا الحاضرة ـ واعتاد على الإكراه والفساد، وربما تحاول الزوجة كسب رضاه بالتصنع وبالاخلال بعبادتها وأخلاقها التي هي مدار حياتها الدنيوية والأخروية، كل ذلك لأجل تلك المعيشة البسيطة الزهيدة " [123].

هكذا تمتد مبادئ الفقه الأكبر على وعي يدرك طبيعة الواقع ومقتضياته وسجالاته الراهنة والمستقبلية، وكل ذلك ضمن وازع تجنيدي يعزز المسيرة ، دون أن تغفل في كل ذلك عن لفتها النظر إلى جوانب ربانية ألف الإنسان أن يغفل عنها، فلا يسعد في حياته ولا يظفر بغير الشقاء الروحي ..

لقد نهضت الرسائل من خلال منظورها العملي والتجنيدي ومن خلال منهاج فقهها الأكبر بمسؤولية صون المسيرة والشد على يد الأتباع بشفقة وإخلاص وتسديد، وهو ما كتب لها أن تكون على موعد مع هذا النجاح الذي يعرفه النورانيون في كل مكان.

يقول النورسي :

"إن وظيفتنا العمل للإيمان والقرآن بإخلاص، أما إحراز التوفيق وحمل الناس على القبول ودفع المعارضين، فهو مما يتولاه الله سبحانه، نحن لا نتدخل في ما هو موكول إلى الله، حتى إذا غلبنا فلا يؤثر هذا في قوانا المعنوية وخدماتنا، وينبغي القياس وفق هذه النقطة، فقد قيل لجلال الدين خوارزم شاه وهو القائد العظيم في عهده: ستنتصر على جنكيزخان .

فقال : إن مهمتنا الجهاد، أما جعلنا غالبين أو مغلوبين فهذا ما يتولاه الله ولا أتدخل أنا فيه " [124].

لقد كان الفقه الأكبر مستوى تأخذ فيه الأشياء قيما أخرى فوق عادية، من حيث كونه ديناميكية تعيد الاعتبار للمفاهيم والظواهر والمعطيات.. فهو المنهجية التي واجه

---

[122] الملاحق 341
[123] الملاحق 342
[124] الملاحق 345

بهـا النورسـي الطـوارئ، لـذلك رأينـاه يعطـي لكـل حـال تعـرض، قـراءة لا تركـز بالضرورة على كشف ما تحمله تلك الحال من سوء، بل الحرص كان موجها لبيان الجوانـب الإيجابيـة والخيريـة والحـافزة علـى الـصمود فـي كـل مـا يواجـه الـنفس مـن تكبيلات..

لقد كان الفقه الأكبر روحية التفاؤل التي يستضاء بها الطريق ساعة اكفهرار وجـه الظلمة، وكان البصيرة التي تترسم النفس في ضوئها المعالم والآفاق المستقبلة.

الفقه الأكبر : محاذير التحفظ والحيطة عبر الطريق

" ففي هذا الزمان تأتى الضلالة من العلم "[125].

إن الظهـور علـى المـدنيين مـن منظـور الـدين إنمـا هـو بالإقنـاع ولـيس بـالإكراه وبإظـاهر الإسـلام محبوبـا وسـاميا لـديهم، وذلـك بالامتثـال الجميـل لأوامـره وإظهـار الأخلاق الفاضلة، أما الإكراه والعداء، فهما تجاه وحشية الهمجيين "[126].

" لا ينبغي فتح باب المناقشة في الأمور الفرعية الجزئية التي تسبب الخـلاف إزاء هذا العدو اللدود "[127].

" إنه لا يليق قطعا بالمؤمن الحصيف ولا بوظيفته المقدسة في هذا الوقت أن يهمل الـذين ينزلـون ضـرباتهم القاضـية بالإسـلام فعـلا ممـن يـستحقون اللعنـة والـذم بـألوف المرات ويذهب إلى أزمان غابرة ليتحرى فـي الأحـوال التـي لـم يـأمر الـشرع بـالتحري فيها والتي لا جدوى منها ن بل فيها ضرر"[128].

" إن أهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجـة إلـى الاتفـاق الخـالص فيمـا بينهم وحده، بل مدعوون أيضـا إلـى الاتفـاق حتـى مـع الروحـانيين المتـدينين الحقيقيـين من النصارى فيتركوا مؤقتـا كـل مـا يثيـر الخلافـات والنقاشـات دفعـا لعـدوهم المـشترك المتعدي "[129].

---

[125] الملاحق 235
[126] سيرة ذاتية 98
[127] الملاحق 296
[128] الملاحق 298
[129] الملاحق299

"إن التهاون في تطبيق الشعائر الدينية يفضي إلى الضعف الأمة،

والضعف يغري العدو فيكم، ويشجعه عليكم، ولا يوقفه عند حده "[130].

130 المثنوي 204

التواصل البناء[131]

والتثمير الايجابي لمعارف ومنجزات الآخر
من منظور رسائل النور للنورسي

"إن معاصريي - مع الأسف - وإن كانوا أبناء القرن الثالث عشر الهجري، إلا أنهم تذكار القرون الوسطى من حيث الفكر والرقي، وكأنهم فهرس ونمودج وأخلاط ممتزجة لعصور خلت - من القرن الثالث إلى الثالث عشر الهجري - حتى غدا كثير من بديهيات هذا الزمن مبهمة لديهم"[132].

" إن الحاجة التي هي أم المدنية وأم الاختراع والرقي قد رفعت يدها لتنزل عليكم صفعة، فتأمركم: إما أن تعطوا حياة حريتكم في صحراء الجهل هذه إلى الناهبين، أو عليكم أن تهرعوا إلى كعبة الكمالات بركوبكم منطاد العلم وقطار الصنعة في ميدان المدنية لاستقبال المستقبل الزاهر مستردين أموال الاتفاق التي اغتصبها الأحنبي.

ثم إن الملية الإسلامية التي نصبت خيمتها في وديان الماضي وصحارى الحاضر وشواهق المستقبل، واستظل بها أجدادكم من أمثال صلاح الدين الأيوبي وجلال الدين خوارزم شاه والسلطان سليم وخير الدين بارباروس ورستم زال، ومن شابههم من القواد الدهاة الذين تشرف كل بمنزلة الآخر فعاشوا معا كعائلة واحدة.. هذه الملية الإسلامية وهي مثال الحياة الرفيعة تأمركم أمرا جازما: على كل واحد منكم أن يكون مرآة عاكسة للاسلام وحامي ذماره ومثالا مشخصا للأمة الإسلامية، إذ الهمة تتعالى بعلو المقصد، والأخلاق تتسامى وتتكامل بغليان الحمية الإسلامية"[133].

---

[131] أعددت هذه المداخلة للمساهمة في ملتقى وجدة بالمغرب (حوار الشرق والغرب من خلال رسائل النور) بتاريخ أبريل 2000. ولم أتمكن من إلقائها يومذاك لعوائق خاصة.

[132] صيقل الإسلام 24

[133] صيقل 464

النورسي ودواعي التواصل وأوجهه بين الملية الإسلامية والعالم الغربي

لابد لنا، ونحن بصدد طرق موضوع "التواصل بين الملية الإسلامية والعالم الأوروبي الغربي" كما تمثلها النورسي، أن ندرك أن الظروف التي تم فيها تواصلنا مع الغرب، لا سيما في مطلع هذا القرن، كانت تختلف تمام الاختلاف ، وعلى جميع الأصعدة ، عن واقعنا الراهن ونحن نجتاز بسرعة مذهلة عتبة الألفية الثالثة.

لقد انفتحت يومذاك، وعلى أصداء المدافع والقذائف والالتحامات الضارية، صفحة في سجل البشرية ، لتخط عليها أقلام الاستعمار متونا من العار والمقترفات التي لن تنساها الإنسانية.

لقد كان القرن المنصرم قرن الاستعمار الغربي المباشر. وبالنسبة للأمم المستضعفة وفي طليعتها الأمة الإسلامية ، فقد كان ذلك القرن قرن المكابدة (السيزيفية) المريعة، والتحدي الخارق ، والإثابة إلى الوعي المسترجع . لقد كان من قدر الأمة الإسلامية ان تدفع فاتورة فظيعة من التضحيات من أجل أن تزيح عنها كلكل المحتل البغيض ، ولتلقي - بعد ذلك - النظرة على من حولها ، لتحدد موقعها بين الأمم ، ولتتأهب ، بكل ما يثقلها من إنهاك وخور ، لاستئناف الطريق. لكن مهمة النهوض تظل جسيمة ولها تكاليفها الباهظة .

فالعدو رابض بالباب، عينه على أي حركة تَنِدُّ ليخنقها في الحال، لكأنما قر في خلده أن حياة الآخرين تعني مواته، لذا استمات في رصد كل نأمة من حياة يلمسها تدب في كيان الآخر، ليعاجلها ويزهقها. لقد شاء الاستعمار الغربي البغيض أن يجعل من نفسه قضاء إعداميا كونيا لا يرحم. لقد زين له استبداده أن يبلور لنفسه في مخيال البشرية، صورة تضعه - بلا منازع - صنواً للموت، عدوا للحياة ، إذ توهم فناءه في انبعاث الآخرين، فراح يترصد كل مظهر ليقظة يتحقق للآخر، فيعاجله في المهد بكل قحة، وتلك هي الفصامية الحضارية التي لا رشد لها، وذلك هو الضلال المبين .

ولقد شاء القدر للنورسي - العالم المسلم - أن يكون - في تلك الظروف الكونية المتفجرة - محاوراً للآخر ومصاولاً له وداعية شموليا للسلام والاخوة الإنسانية بعيدا عن التعصب الاستعماري المقيت. فبرنامج الخطوات الست الذي رفعه للأمة على إثر الاحتلال الغربي للعثمانية ، قد باشر فيه النورسي محاورة الآخر وباللغة التي اقتضاها يومئذ انتهاك حمى الوطن وحرمة الدين. بل إن خطبته الشهيرة المعروفة بـ"الشامية" والتي حلل فيها للأمة - قبل ذلك العهد - واقعها الحضاري الانحطاطي وأسباب الاعتلال التي تقعد بها عن النهوض، إنما كانت موقف تحاور مع الآخر أيضا، إذ أن موازنة الحال القائمة وتحديد الموقع الإسلامي الذي آلت إليه مدنية

المسلمين في العصر الراهن ، إنما باشره النورسي في تلك الخطبة من منطلق علاقة " النحن " بالآخر الغربي.

ثم طفقت محاوراته لهذا الآخر تتواصل ولكن في صورة إنسانية متسامية، وذلك حين تخيرت رسائل النور لخطابها الترشيدي الأفق القرآني مجال تشخيص وتمحيص وتسديد للإحداث والمصائر، فحديث الرسائل هو حديث للإنسانية قاطبة، إذ هو دعوة إلى الحق من وجهة الحق، ما أحوج الأمة اليوم إلى تدبرها في عصر العولمة والاستعمار الثقافي والتهجين الروحي الرهيب. إن واقعنا الأعزل حيال ترتيبات العولمة تجعل من تدابير الوقاية والتحصين التي بلورتها رسائل النور إجرائية ملحة وحاجة ماسة ، على الأمة أن تأخذ بها في مساعيها من أجل التماسك والصمود في وجه الزوابع الهوجاء.

النورسي الداعية الألمعي

لقد تجاوز النورسي بألمعيته القرآنية، المصير المغلق الذي دأب يجرف إليه كثيرا من الشخصيات الإصلاحية والإيقاع بها في مطاويه ، وذلك حين تجافى عن أن يسلك سبيل المرجعية الفردية أو أن ينتصب شاهدا معرفيا مِلّيا معتمدا بقوة فرض الذات وتكثيف الحركة والحضور المادي أو البروز الأدبي الظرفي. فالنورسي من هذا الصدد يباين سائر الزعماء المصلحين المحدثين الذين عرفتهم البلاد الإسلامية بدءا بالداعية الكبير الأفغاني.

ترى هل يمكننا القول إنه فيما سعى الآخرون إلى إحداث اليقظة بقرع الأجراس ونشر الأصداء في كل اتجاه ، لبث هو - النورسي - يتحرك على رؤوس أصابعه يتناجى مع نفسه، يهمس إليها بما كان القرآن يلقي إليه من خواطر وإلهامات، الأمر الذي انتهى بالشرارة إلى أن تنقدح وتسري سريان الكهرباء من غير سوء في من حوله، الأقرب فالأقرب، إلى أن استنارت الدروب واسترسلت الطلائع تمضي بالحقيقة القرآنية نحو الآفاق..

فالتجرد الخالص هو أس قوة وهيمنة هذه الشخصية الفذة التي قل أن يسلم من تأثيرها كل من يفاعلها - كما شهد بذلك الخصوم أنفسهم - إذ أنه سخر عبقريته، ليس في التجريب النظري الذي لا كبير دور أو إضافة له في الواقع الإسلامي الفعلي إلا توسيع مساحة الهامش الاجتهادي الشخصي الذي دأبت العقلية المسلمة الأمية والمتخلفة تمر عليه ولا ترى فيه سوى رقم آخر يضاف إلى كتلة المدونات الصماء التي لن تجد من يباشرها.

لقد نفذ النورسي إلى مفاعلة الأمة من أكثر المناطات حميمية لديها، إذ جعل من القرآن مادة مدارسته، ودرج ـ راشدا ـ على طريقه القويم يتصفح الآيات البينات، ويستبين فيها العلامات والأمارات الدالة على هزائم وانكسارات الماضي والراهن، مستلهما من كتاب الله العزيز ما يصلح الواقع وما يوطد المآل، فعل ذلك باستقراء مبرإ من الغرضية إلا إصلاح الأمة وإعادتها إلى سواء السبيل الذي رسمه لها القرآن.

لقد راهن النورسي على المطلق، فكان عربون نجاحه في ما راهن عليه منوطا بمدى تجرده من الحسابات الخاصة، فلما أخلص النية تكشفت له الحقائق وفاضت بها الأودية والشعاب، وعجب هو للأمر أن يجد نفسه موضع إكبار وإشادة متصاعدة ممن حوله .

ففيما كان الناس يشهدون له بالعبقرية والكرامة على ضوء ما كانوا يرون ويلمسون فيه من أنوار فكرية وتفتيقات روحية، كان هو يقر لمن يريد أن يصدقه بأن النبوغ مصروف عنه، وأنه لا يملك من أمر ما يقرر وما يرى إلا الترجمة، فكل ما يصدر عنه إن هو إلا إلهام نابع من محبة القرآن ومن خلوص الصلة التي تجمعه بكتاب الله. وتلك هي حقيقة التجرد وذلك هو الحظ الذي يصيبه أهل الإخلاص والاستماتة.

ترى هل كان الشأن بالنسبة للنورسي ـ في هذا المجال ـ شأن بعض أرباب الطرق الصوفية ممن توسع نطاق روحيتهم باتساع رقعة الأتباع والمريدين ؟

لا مناص لنا من التعجيل بالقول إن الفارق بين المنهجين شاسع على مستوى الرؤية والمأثور الفكري والتسديد الحضاري، إذ أن النورسي تجاوز مفهوم الوردية والمريدية، إذ أعاد النصاب التلقيني إلى الحوض القرآني السلسبيل، الأمر الذي شرَّع الباب واسعا في وجه الجموع العطشى ومن سائر المشارب، حيث بات المتلقي يجد نفسه يتواصل مع الكتاب المبين والسنة الشريفة، وهو ما جعل المفاعلة تقوى على الدوام لارتباطها بالله عز وجل وبالسنة النبوية الكريمة، وذلك ما ولد هذا التجاوب القرآني الخلاق الذي يتملك المرء في حضرة الرسائل، إذ تزايله فصامية الوجود، وتتبدى له أهمية استثمار الحياة من أجل كسب رهان العزة في الدنيا والخلود في الآخرة. فيما جاءت النذر الطرقية الأخرى تكريسا لروح الاستقالة الدنيوية.

أو لنقل إنها في رؤيتها لم تكن تضع حساب الواقع في معادلتها إلا من زاوية سالبة، لكأنها تتعجل الفناء من أجل لقاء العالم البرزخي الفذ المنتظر، لأن تعاليم أهل الطريقة وإن قدمت الإطار التوحيدي قاعدة للانتماء الروحي والمرجعية الفكرية والاعتقادية ـ وهو نفس ما أرسى النورسي عليه منظومته البيداغوجية ـ إلا أن تعاليم

الطريقة قصُرَتْ عن أن تربط الأواصر بين الروح والمادة، بين الحياة الدنيا والآخرة، بين الواقع المصيري للمسلمين في دار دنياهم، وواقعهم المصيري في الآخرة، ومن ثمة حدث الانفصام في العلاقة بين المسلمين وبين التاريخ ، إذ اختاروا أن يكون مكانهم فيه شاغرا، بركونهم إلى أوهام تأويلية تزهيدية ما أنزل الله بها من سلطان.. الأمر الذي تفاداه النورسي ، إذ وازن النظر وجعل سعادة الدنيا من سعادة الآخرة ، اطرادا على ما قرره القرآن العظيم.

النورسي وخطاب النقمة ورد الفعل

كان طبيعيا أن ينظر النورسي إلى الغرب تلك النظرة الصارمة التي جاءت رد فعل لما ظل الغرب يرتكبه في حقنا منذ الحروب الصليبية من اقترافات.

لقد حملت تصريحات النورسي في مطلع هذا القرن، بل وقبله، روحا ناقمة على الغرب، لأنها أدركت المخاطر والشرور التي لبث الغرب يستهدف بها الأمة ويواصل بها محقها وإعاقتها عن الأخذ بأسباب الحياة والانبعاث.

على أننا من جهة أخرى وجدنا النورسي يُضَمِّنُ خطابه الناقم ذاك جانبا إنصافيا يلفت فيه الأذهان إلى تلك المكاسب الارتفاقية والمعرفية التي تحققت للغرب مقابل انعدام شبه مطلق في التجدد المدني والتطور المعرفي الذي ميز ساحتنا نحن المسلمين بفعل رسوخ ظاهرة الانحطاط بيننا.

فنقمة النورسي على الغرب بهذا الوجه الاعترافي كانت ردة فعل على عدائية ظل الغرب يناصبنا بها منذ أن رأى حضارتنا تستبحر وتتوسع مقابل تقهقر حضارة اللاتين وانطواء رايتهم عن التخوم الجنوبية للمتوسط.

بل لقد وجدنا النورسي - وهو يمعن في انتقاد مساوئ المدنية الغربية وفي التشهير بمظاهر تحللها وإفسادها للفطرة - لا يكف عن إبداء الأمل بانفتاح الروح الغربية في يوم ما على الشريعة الإسلامية، ذلك لأنه كان يجد لدى الغرب ضوابط واعتبارات في العمل والتعامل والمثابرة ما كان حريا أن يكون من صفات المسلمين، إذ أن روح الشريعة الإسلامية قد أمرت بالأخذ بذلك النمط العالي والجاد من النفاذ والشمائل الانجازية..

لقد كان النورسي يعي الشر المستطير الذي تحدثه المدنية الرأسمالية في المجتمعات الغربية، إذ كانت ماضية في التغيير من حال الإنسان ، لتزج به في مهالك الأنانية والابتزاز والجحود.

وقد كان يتهيأ للنورسي أن التوغل في دركات الفساد والانحراف من شأنه أن يدفع بالمجتمعات الغربية إلى تلمس العلاج في دساتير السماء، وفي مقدمتها القرآن.

لقد آمن النورسي بهذا المصير الرشيد الذي توقعه لأمم الغرب ولم يستبعد حدوثه. ومما لاشك فيه أن تفاقمات الإنسان الغربي اليوم لا تزال تحتد ، وتطلعاته إلى السماء بدأت تتجلى بشكل أوضح آية ذلك هذا الاستقطاب المفاجئ الذي تـأتّى للكنيسة في العشرية الراهنة ومارسته على فئات متكاثرة من الغرب، والذي لا يؤكد إلا أن دساتير الأرض قد آذنت بإفلاسها، وأن عودة البشرية إلى الله لا محالة حاصلة. ولن يضير المتأمل البصير بعد هذا، أن تكون الاستجابة الغربية الراهنة تطرق باب الكنيسة، إذ ليس يُسْتَغْرَبُ قابلا أن تيمم الوجوه شطر المسجد الحرام، وأن ترسو القاطرة في رحاب القرآن. فالوعي الإنساني متدرج إلى الرشد، سنة الله في الخلق.

النورسي يدعو إلى التغاضي عن عداوة الغرب لنا وتجاوز حال الكراهية إلى بذل الجهد في البناء والانتفاع من معطيات المدنية الغربية

مما لاشك فيه أن النورسي قد بنى نظرته إلى الغرب ، على مستجدات حدس فيها الإطار الذي ينبغي أن تأخذه العلاقة بين المسلمين وبين الغرب.

لقد رأى أن استمرارنا على حال النفور من أعدائنا نتيجة ما ألحقوه بنا من أذى أخذ صورته البشعة في الاستعمار المباشر لبلادنا، لم يعد له من جدوى ، ولن يفيد في ما ينبغي للأمة أن تتوق إليه من نهضة تتقوم بها أوضاع المسلمين وينهضوا من ترديهم. من هنا ألفيناه يصرح بوجوب التحول بالأنظار والعواطف إلى جهة المستقبل ، والتغاضي عن الجراحات.

"لقد انتهى عهد العداوة والخصام ، ولقد أظهرت الحربان العالميتان مدى ما في روح العداوة من ظلم فظيع ودمار مريع، وتبين أن لا فائدة منها البتة، وعليه فلا ينبغي أن تجلب سيئات أعدائنا - بشرط عدم التجاوز - عداوتنا، فحسبهم العذاب الإلهي نار جهنم " [134].

وليس خاف في هذا النداء الذي يتوجه به النورسي إلى الأمة، البعد الاستنفاعي المستقبلي الذي يرجو أن تحرص الأمة على إعطائه الأولوية ، إذ أنه يرى أن المهمة النهوضية تتطلب شبه تفرغ تخلص به جهود المسلمين للبناء، الأمر الذي لن يتأتى لهم إذا ما تبددت العزائم وراء العواطف والمشاعر بدل العمل والتطوير.

لابد من رؤية جديدة للذات من أجل إقامة تعامل إيجابي بين الحضارتين.

[134] صيقل 509

إن عملية التلاقي مع الغرب الأوروبي ـ كما يراها النورسي ـ ينبغي أن تتم ـ أولا ـ على مبدإ تصحيحي مزدوج ، يأتيه الجانبان معا، بتغيير الاختلال غير السوي الذي يجسده موقف كل من الطرفين حيال ذاته وحيال الآخر، ذلك الموقف الذي خرجت به الذات الحضارية عن جادة السنن الفطرية وعن القوانين الالهية في كل من العالمين المسلم والغربي.

إعادة الاعتبار للقطاع المعنوي من مقدراتنا الوجدانية.

وفي ما يخص الأمة المسلمة، فإن المهمة أمامها معقدة، أو هي لا تقل تعقيدا عن مهمة الطرف الآخر. لأنها مطالبة بأن تضاعف من الجهد وبصورة جذرية في إحداث التحوير الذاتي، رؤية وموقعا وعلاقة، إذا هي شاءت أن تنبعث من الموات وتستأنف دورها الريادي العالمي. وفي هذا الإطار فإن الجهد الدؤوب لابد وأن يتركز على قطاع تقويم النفس واستنهاض مكونات الذات ، ويقتضي هذا بطبيعة الحال من الأمة أن تولي العناية المستحقة للقطاع المعنوي الاعتباري والمتمثل في المرصود التاريخي والحضاري حيث تبلورت الهوية الملية للمسلمين وتشكلت ماهيتهم المدنية. فتنشيط المخزون النفيس من تراثنا الملي بمختلف فروعه وأنساقه ، من أهم الأصعدة التي تقتضي منا التجنيد الحق ، لما في ذلك من نجاعة وفاعلية في عملية النهوض والاستنهاض.

تحصيف التراث ودمجه في حياتنا توسيعا
لمساحة المرجعية في السلوك والفاعلية

من هنا يغدو ملحا الالتفات إلى التراث وإلى التأسيسات الفكرية والثقافية عامة، من أجل إعادة دمج المحصل التراثي في الحياة ، واستخلاص الطاقة المحركة منه، ضمانا ملحا لتساوق الحلقات ووحدة النسق التي تحمينا من الزلق ومن النكوص. فمن شأن هذا الجهد التحصيفي للتراث أن يمكننا من تصحيح رؤيتنا لذاتنا الجمعية وأن يقوي لدينا الوعي بالمكانة التي تحتلها حضارة الإسلام في مجرى التاريخ البشري، ويذلل أمامنا مهمة إعادة الاعتبار لمكاسبها. ويضمن لنا الكفاية الأخلاقية والإجرائية، من حيث أصالة الفكر والسلوك والرؤية ، بدل التعويل على الوارد والوافد من أخلاقيات ومعايير الغرب غير الملائمة في جل تمظهراتها لبنية أدبياتنا السلوكية.

عقدة الآخر مركبة، لأنها تختص بذاته أولا وبنظرته إلى الآخر ثانيا

أما فيما يخص الآخر ، فلا جرم أن العمل التعديلي المطالب بـه يبدو مـن الصعوبة بمكان ، إذ هو تعديل ذو طبيعة جوهرية أخلاقية في الأساس. إذ أن التراجح بين كفتـي الأمتين: المسلمة والغربية ـ أو إذا شئنا الفارق الحضاري بين العالم المتخلف والعالم الغربي المتطور ـ لم يعد كما يتوهم الغرب ـ ولو إضمارا ـ تراجحا نوعيا قائما علـى مزايا عرقية ثابتة تتباين في ظلها خصائل عرق على آخر .. إنما التراجح يرجع في أصله إلى تباعد كمي في مستوى الارتفاقات الحياتية والمكاسب العلمية والمنجزات المدنية ، مردّه الانطلاقة المبكرة للغرب، تلك الانطلاقة التي كان صعيد الارتكاز فيها، هو الناجز الحضاري الذي ورثه الغرب عن حضارات الأمم العريقة وفي مقدمتها الأمة الإسلامية ، إذ بسط الغرب نفوذه على الفضاءات الحيوية الفسيحة في العالم واستغل مقدرات الشعوب التي تمكن من الاستحواذ عليها بالعدوان واصطناع منطق المغالبة..

فالآخر مطالب بإعادة النظر في علاقته مع الغير من الأمم المستضعفة، وبإدخال تصحيح أكبر وأعمق يتأكد على صعيد ذاتيته هو بالذات .

الغرب مطالب بأن يتجاوز محوريته أو لوغوسانتريزميته المرجعية

إن التعديل المنتظر من الغرب ينصبُّ ـ حتما ـ على طبيعة العلاقة التي تربطه مع الغير، وعلى ضرورة تجاوز الجوهر الاستئثاري الاحتكاري الذي يطبع تلك الروابط ،الأمر الذي يتطلب التسوية لا على مستوى صلة الغرب مع الآخرين، ومنهم نحن المسلمين خاصة، ولكن من حيث وجوب تغيير نظرته إلى نفسه أيضا. ولن يكون ذلك إلا بالتخلي عن منزلة المرجعية الكونية التي خص بها نفسه، كعرق ومعرفة وحضارة متعالية.

إن صفة اللوغوسانتريزمية التي أضفاها الغرب على نفسه قد أضحت مع الزمن عقدة مستفحلة فيه. فالروحية المحورية التي يتصرف بها في تعاملاته مع الآخرين جنحت به إلى أن يلغي ـ فعلا ـ الغير من حسابه، فهو في سائر مخططاته وإجراءاته إنما يتحاور مع نفسه ليس إلا. تزيده ـ اعتدادا وغطرسة ـ سلبية مرحلية تطبع واقع الآخرين، الأمر الذي جعل عقدة الطغيان تستحكم فيه.. وغدت بذلك الدعوة إلى المحاورة والتحمس للتلاقي والتشارك ، لا تصدر إلا عن طرف واحد، أي الجهة المغلوبة على أمرها..

فالعلاقة مع الغرب كانت منذ البدء علاقة قهر وغلبة.. إذ الكشوف الاستعمارية تمت عن طريق القوة والعنف الغادرين ، وسرعت نتائج تلك الكشوف المادية

والمعنوية من دينامية تقدم شعوبه وتطوير مدنيته ، بما نهب وابتز وسرق من خيرات وطاقات وجهود الأمم التي يتجاهل اليوم كينونتها..

الأمم المقهورة وضرورة أن تعمل بكد على تجاوز هوانها المادي والروحي حيال طغيان الآخر

ومن جهة الأمم المغلوبة والمقهورة ، فإن الضرورة النهضوية الملحة تحتم عليها أن تراجع صفحات تاريخها بوعي نقدي بناء.. مسترشدة بالوقائع والتمرسات الماضية والحاضرة ، كي تتلافى أسباب القصور، تحقيقا للقفزة التي تحسم بها وبصورة نهائية صلتها مع الطغيان ، وتتجاوز موقع الدونية الذي ظل يعرضها عبر القرون للظلم والامتهان..

ذاك ما شخص به النورسي واقعنا المتردي كأمة أخطأت سبيلها الريادي في عالم أغوته القوة المادية فمضى يضرب بعرض الحائط روح الأخلاق لا يأبه إلا بما يوطد المصلحة لشعوبه، ليس إلا، الأمر الذي يحتم على الأمم المستضعفة، ومنها الأمة المسلمة أن تنخرط بعزيمة جارفة في معركة الانعتاق الحق الذي يعيد إليها كرامتها بين الأمم، إذ أن واقع الضعة والهوان الذي ترسف فيه الأمة المسلمة منذ قرون لم يفقدها فقط عزتها وكرامتها بين العالمين، ولكنه أعاقها حتى عن أن توفر للقطاعات العريضة من أبنائها الحد الأدنى من لوازم العيش والحياة المستورة..

علاقة الندية والكِفاء الحضاري شرط لوقوع التفاهم والتبادل المصلحي المشترك

فمن شأن الانعتاق من ربقة التخلف - في رأي النورسي- أن يخلق العلاقة الكريمة التي ستجمع البشرية على أساس ديمقراطي لا افتئات فيه ولا منة أو تعالي أحد على أحد.. فالندية شرط لا بديل عنه لخلق الروابط الكريمة بين بني البشر.

إذ تصالح الأطراف بعضها مع بعض إنما يرسي قاعدته الصلبة والبناءة إذا ما تم في جو من التفاعل الإيجابي الذي تنتفي معه مشاعر التفاوت والاحتواء التي تسود علاقاتنا الراهنة، حيث يستحوذ القوي على الضعيف ،ويبطش الكبير بالصغير ، ويبطر المتقدم بتفاقم أحوال المتخلف. فمتى ما تحركت ماكينة العطاء والتفاعل الإيجابي في كلا المعسكرين ، ازدادت فرص التلاقي والتبادل المصلحي، وزالت في المقابل أسباب البغي والتطاول ، وأضحى مفهوم الإنسانية مجسدا على نطاق شامل وفعلي ، وزايلته صورته التمويهية الماكرة والمتحايلة التي يصطنعها الغرب اليوم حيال الشعوب المستضعفة استبقاء لسيطرته على العالمين.

إن بنـاء المـصير التـصالحي المـشترك بـين الأمـم، ووعيهـا بالمـستقبل الإنـساني الداعي- وبشكل ملح - إلى التفاهم المتبادل وإلى التعامل الكريم ، لمن شأنه أن يخفف كثيرا من عناء الإنسانية ويكفل لها الانفراج المثمر..إذ البشرية مجتمعة تقل سفينة واحدة، فسلامة البعض تقتضي لزاما سلامة الآخرين ، ولا يفتأ مصير البشرية يتفاقم بعماية الطرف الغالب وضلاله وتجاهله للمخاطر التي تحملها مغامراته وقراراته الأنانية الانفرادية.. فبعد أن محا الغرب من حسابه كل اعتبار للبشرية إلا الاعتبار الكسبي، ها قد استطار شره ليس تجاه الإنسان فحسب، بل لقد طال إلى الطبيعة والإيكولوجيا نفسها ..

لا جرم أن الغرب يدرك أن غرق السفينة سوف يودي بالجميع ، لكنه لا يعتبر ولا يتحوط لذلك، غواية وضلالا.. لقد ارتكزت إدانة النورسي للغرب ومدنيته الدنية كما ينعتها، على سياسة الإهلاك التي يمارسها ضد العالمين ، بشرا ومقدرات طبيعة وإيكولوجيا ، بعيدا عن وازع العقل والشرع الذي لا مجال معه لتبذير أو إسراف أو مجانية..

وليس عجيبا أن نجد تلك الإدانة التي طفق النورسي يوجهها إلى الغرب، تتماس مع جوهر مطالب منظمات إنسانية عديدة تناضل اليوم وبشيء من البسالة في بعض الأحيان، وتشهر نفس القيم القائمة على الرأفة بالبسيطة ، وتدعو إلى التثمير العقلاني الكريم للكون ولخيراته التي كفل الله بها لمخلوقاته جميعا السعادة والكفاية، شريطة أن يستغلوها بالقسطاس. إن الأرض - كما يقرر النورسي - هي مائدة الله العامرة التي وضعها بين يدي مخلوقاته ، فلتنل هذه المخلوقات ، لا سيما الإنسان، من مائدة الله بكرم وعفاف..

"إذ قاعدة الإباحة والضيافة هي التصرف ضمن رضى المضيف. فينبغي التصرف في جميع النعم في الدنيا وفق شريعة المضيف الكريم" [135].

الصحوة وشروط النهوض

وفي ما يخص خطوات اليقظة والانبعاث، أو تحقيق الصحوة وشروط النهوض، فإن النورسي ، يرى أنه على الأمة أن تعمل على تجديد الوعي بالذات التاريخية وبالمرصود الحضاري المنجز، ذلك المرصود المردوم تحت رماد حضارتنا الغاربة وتاريخيتنا المشلولة..

---

[135] الملاحق 93

والأمر عنده ـ قطعا ـ ليس الوقوع في مطب التغني الأخرق بالذات كذلك الذي يلازمنا اليوم ، بعد أن اتخذنا أمجاد الماضي مداماً نثمل بها وننسى فجائعنا ولواعجنا كلما جابهنا الواقع المكفهر.. لقد غدا واقع تمجيد الماضي لوثة تزرع في ضمير المسلم المعاصر، ليس الوعي المقوي والباعث على الانطلاق ، ولكنها استحالت إلى مخدر يحجب تباريح الراهن ، ويضع بين العقل وحال التردي المرير الذي تعيشه الأمة سدا وعازلا تشل به إرادة التغيير ، بما تجد الجماهير في ذلك السلوان المجاني من أسباب التعويض ودغدغة الذات..

لقد ظل النورسي على وعي حاد بهذا الخطر الذي يتهدد الأمة بسبب سوء استغلالها لعبر تاريخها، ولأنه كان حريصا على أن يجنبها الوقوع في مزلق التمجيدية والانتصارية الخادعة، فقد رأيناه يجدد الرؤية الاستقرائية للتاريخ، إذ أنه كان على يقين من أن الاستنامة إلى تلك الخلفية الحضارية الرائعة التي طفقت تلابس مشاعر المسلمين والمتسمة بروح تنزيهية تمجيدية طفق المسلمون يضفونها على تاريخيتهم بكل أطوارها حتى الانحطاطي منها ، إنما كانت من أسباب مضيهم على طريق الحطة والتردي..

لكأنهم استشعروا نوعا من براءة الذمة إزاء التاريخ وإزاء مسؤولية الوجود التي لا يتحرر منها الكائن الحي إلا إذا وسد الثرى، ترى هل لأنهم رأوا في ما حقق أسلافهم الكفاية التي تعصمهم من تبعة الجهاد والكد والانبعاث؟

من هنا راح النورسي يستخدم منهجا نقديا ربما لم تألفه قابلية الأمة في ما سلف، فقد دأبت نظرة الأمة تصطنع صلة التباهي الأخرق والاعتزاز المجاني بتاريخها، بدل أن تكون وقائع ذلك التاريخ اعتبارية، باعثة على تصفية أسباب الحطة والهوان.

التاريخ خبرة حيوية إيقاظية فذة تتطلب إعادة الرسكلة المستمرة.

لقد جعل النورسي من قراءة التاريخ نشاطا ترشيديا لا يقف فقط عند الصحائف البيضاء يعشي بها الأعين عن أن ترى ترديها، ويشنف بها المسامع لتمضي في نشوتها السكرى، بل لقد حرص على أن يشهر سلاح النقد ، فيتمحص الأحداث ويسجل عليها أو لها من التقويمات ما تستحق.

لقد مضى يستقرئ التاريخ ويبسط صحائفه، لا سيما تلك الصحائف التي كانت الوقائع المخزية سودتها، وراح يصوغها في إطار اتعاظي، حتى لا يغدو التاريخ مجرد دغدغة تبعث ظلالا من النشوة يسترسل بها سباتنا ويستمر قعودنا في وقت تنهال أفؤس التدمير على الأمة من كل جانب. ولعل ما قرأ به النورسي وقائع من العهد الأموي مثلا، وما اشتجر في ذلك العهد من أخطاء جرت البلاء العظيم على

تاريخية المسلمين وعلى مسار حضارتهم، يعد نموذجا استقرائيا ايقاظيا اتبعته بيداغوجية التثوير والتوعية التي كان النورسي يمارسها في تعامله مع التاريخ والتراث.

فالقراءة التاريخية التي باشرها الأستاذ النورسي، هي قراءة واعية، ناقدة، منوطة بخلق التحسيس الكافي والتوعية المطلوبة التي تكفل للأمة اليقظة وتحرك فيها همة الانبعاث وإرادة الحياة الكريمة، إنها ـ قطعا ـ ليست قراءة غرضها استثارة عواطف الزهو الفصامي والتغني الإلهائي الذي لا طائل من ورائه سوى تمديد عمر الحطة وتطويل زمن الارتكاس .. لقد جعل النورسي من التاريخ وعيا يجب أن يستدعى إلى الضمير في كل حين ، وحالا شعورية لابد أن تظل حاضرة في الوجدان ، كدافعية معنوية تشحذ الهمم وتهون من وطأة التبعات وتخفف من مكابدة الجهاد وتدفع بالعمل النهضوي قدما.

فمن خلال القراءة التمحيصية للتاريخ كان النورسي أيضا يستنبط المُثُل والشعارات التي تصنع زهو الغرب واعتداده الديمقراطي والاجتماعي ، إذ كان يراها شعارات ومثلا مجسدة على أسمى درجات التجسيد في سيرة الصحابة ، وفي تجربة الخلافة السياسية والشرعية كما نهض بها السلف الصالح .فشعار " الحرية والعدالة والمساواة " مثلا وهي الأقانيم التي تقوم عليها مبادئ الثورة الفرنسية، يعاينه النورسي في سيرة الراشدين والسلف الصالح لا سيما منهم عمر وعلي وصلاح الدين الأيوبي ، وما أرسوه من نير الأعمال والأفكار في جهادهم وسيرهم.

لقد كانت قراءة التاريخ كما مارسها النورسي ، فاعلية تنويرية تندرج ضمن منظور تثويري غايته خلق الثقافة التمحيصية والحس النقدي والفكر المميز لدى الأمة، الأمر الذي يكفل لها أن تستفيد من ماضيها استفادتها من راهنها بما كان يروج على سطح ذلك الراهن من مستجدات معرفية واصطراعات سياسية ومطامع استعمارية لم تكن الظروف معها لتسعف الأمة بحظ من حظوظ الانعتاق.

لقد طفق النورسي يحض الأمة على وجوب تجييش الرأسمال الفكري وتثمير الامتياز العقدي الذي خصها به الله، والمتمثل في حيازتها للقرآن العظيم ، وفي ما تأثل لها من مآثر شكلت المرصود الوجداني الذي ينبغي أن تستند عليه في جهادها الانبعاثي الحاسم .

الدعوة إلى الاحتذاء بالأمم التي شقت طريق النهوض مثل اليابان

لقد ظل النورسي يقدر أن عملية التواصل مع الغرب التي كان يرى فيها بعض الساسة وبعض الطوائف من أبناء الأمة فرصة الانطلاق الحضاري ، إنما هي عملية محفوفة بمخاطر الامحاء وإهدار الذاتية، لذلك ألفيناه يحرض المسلمين على وجوب التحذر من آثار الاحتكاك بالغرب ومن تبعات قصر الجهد على تعاطي مظاهر مدنيته وشكلياتها دون النفاذ إلى لبها الانتفاعي وجوهرها التطبيقي.

لقد آمن أن ـ المفاعلة مع الآخر ـ الغرب ـ لا ينبغي أن تكون انغماسا وتحللا من المقومات ، ولكن علينا أن نجعلها جسرا يهيئ لنا فرص الاستيعاب والتمكن من أسس تلك الحضارة وأسبابها الخلاقة، وهذا بالوعي بالمقاصد التي ترتكز على شرط حاسم قوامه حسن التمثل والهضم لمعطيات الحضارة الأوروبية بما هي الحضارة الظاهرة في العصر الراهن، وليس بالتجرد أو الانسلاخ من الخصائص والمقومات.

فليس هناك أي مبرر للتفريط في الخصوصية الروحية للأمة المسلمة المنتمية إلى بلاد الشرق ذات النزعة الروحانية الثابتة ، والتي كانت ظاهرة انبعاث النبوءات على أديمها من أسس مرتكزاتها التاريخية والحضارية.

النورسي يشير باصطناع منطق مرشَّد نافذ وفعال في ضبط دينامية التواصل مع الغرب.

لم يوصد النورسي الباب في وجه التعامل والاستفادة من المدنية الغربية الراهنة رغم ما ظل يكيله لها من طعن وتجريح..

ولم يكن خافيا على النورسي روح العداوة المستحكمة في الغرب والتي تشرط علاقاته وموقفه منا ، ومع ذلك يصر النورسي على وجوب غنم ما في يد الغرب من معارف وتقنيات ومهارات ومعارف.

فمعاداة الغرب لنا لا ينبغي أن تقعد بنا عن السعي إلى الاستفادة من مدنيته والأخذ بالأسباب التي يمكن أن يفيد منها المسلمون في نهضتهم.

بل لقد رأينا النورسي ـ في تقويماته لمدنية الغرب ـ يلازم منطق القسطاسية، فحملات الإدانة والتجريم التي ظل يشنها على مدنية الغرب جراء تحللها الفظيع وعنصريتها المفضوحة ولا إنسانيتها السافرة ، إن تلك الحملات قد اقترنت لديه على الدوام بوقفات الاستدراك والتحفظ والإقرار بما لتلك الحضارة من فوائد جمة تخدم الإنسانية وتستحق أن تكون موضوع أخذ واقتباس من قبل المجتمعات المتأخرة ومنها المجتمعات المسلمة.. لقد ظلت الموضوعية التقويمية وازعا ثابتا في أحكام النورسي المدنية، لم يتجرد منها حتى في أشد المواقف احتداما.

من هنا قامت رؤيته الانتقادية على حصافة في التسديد المدني حتى مع العدو، وهي رؤية متصفة بالاتزان والنصفة وعدم الوقوع في مزلق التعميم والمراء.

ومن هنا أيضا رأيناه يستدرك دائما في أحكامه على حضارة الغرب ويقر لتلك الحضارة بما لها من جوانب بناءة تتواءم مع مطامح الإنسانية. يفعل ذلك حرصا منه على ترشيد رؤية الأمة ولفتها إلى ما هو مفيد ونافع وقابل لأن يسهم في تعزيز قابلية الانبعاث المعطلة في الأمة.

وفي هذا المجال لا مندوحة لنا أن نقرر أن النورسي كان في سبيله التوجيهي والتأصيلي ذاك، يندرج ضمن تلك الرؤية المنزهة عن الختل، والتي تضع في حسابها فقط خدمة الأمة الإسلامية المعدة لخدمة الإنسانية قاطبة، من هنا كان منهج النورسي هو إرساء ما أسماه (الفقه الأكبر). إذ أنه منهج منوط بسياسة الفكر وإرساء معالم الدينامية الفعالة والشمولية والتي تعود على المسلمين بما يرتفع بهم إلى مستوى المثل والمكانة التي بوأهم إياها القرآن..

" إننا منهمكون بأسس **الإيمان المسمى بالفقه الأكبر**، فلا يتوجه ذهني توجها جادا في الوقت الحاضر إلى نقل المسائل الفرعية ومراجعة مصادر المجتهدين ومداركهم " [136].

من هنا كان يترخص في الأخذ بما لابد من الأخذ به من الأسباب والاعتمادات.

لقد كان نبراسه الاجتهادي في هذا المجال أن " لا اضطرار لخلط دائرة الاعتقاد بدائرة المعاملات" [137].

الإفتاء بالانتفاع من معارف الغرب ومن فكرهم النظري

في ظل هذه الحصافة وقف النورسي نفس الموقف من معارف الغرب الفكرية أو النظرية.. لقد اعتبرها معارف مستنبتة في غير تربة الهداية، فمعارف الغرب وإن اشتجرت بتعاليم الإنجيل، إلا أن الإنجيل نفسه داخلته الأساطير والإسرائيليات والتحريفات الهلينية والهرمسية القديمة ومسخته وأفقدته سماويته الحق، الأمر الذي جعل شجرة المعارف في الغرب تنبت على أديم روحية تناهض الدين الحق وتتناقض مع جوهر التنزيه.

من هذا المنظور حكم النورسي على الفلسفة - أم العلوم عندهم - بالفساد، واعتبرها لونا معرفيا ضارا، إذ أن تمحلاتها وفذلكاتها التصورية لا تفلح إلا في إثارة

[136] الملاحق 92

[137] صيقل401

الإشكالات الميتافيزيقية ، دون أن تتوصل إلى استحصال الأجوبة الشافية والقاطعة والتي تتأبى عن المراجعة، عكس تعاليم الدين السماوي الذي هو شريعة حياة وإجابات قاطعة تحسم للإنسانية أمر مصيرها ومعادها..

على أننا وجدنا النورسي - وأخذا منه بمبدإ النزاهة الفكرية والاتزان الموضوعي - يقر أن الفلسفة المعاصرة - بخلاف القديمة - تنهض بدور مفيد ونافع في مضمار التفتيق العلمي والثراء المعرفي، وهو ما يعود بالنفع على الإنسانية ويذلل لها صعوبات الحياة والمعاش.. من هنا راح النورسي يخص الفلسفة الحديثة بالإشادة ، تقديرا منه لمردوديتها على صعيد الاستخدام العلمي والتطبيقي والمدني.. ومن هنا أيضا كان ترخيصه للنظر الفلسفي متى كانت غاية هذا النظر هي تحقيق النفع العام ، والاستجابة لمتطلبات الحياة العملية والارتفاقية..

فالفلسفة المدانة عند النورسي ، هي فلسفة الترف الفكري الميتافيزيقي التهويمي والافتراضي التي لا طائل وراءها إلا التشويش الروحي على الإنسان والزج به في متاهات الضلال والإلحاد ، وذاك ما يقعد به عن السعي والتفتح واعتناق مثل الخير واليقين ومحبة الإنسانية.

فالدين السماوي قد تكفل - في جملة ما تكفل به - بحسم أمر الميتافيزيق ، أو الماوراء ، وعلى الإنسانية ألا تضيع وقتها في وضع الفرضيات والفرضيات المضادة في هذا السبيل الذي لا قدرة لها على استشراف آفاقه ، بل عليها أن تأخذ بالمعطى الديني السماوي في ما يخص عالم الغيب والمصير، وأن تجند فكرها في مضمار الفتوح العلمية والتكنولوجية التي ترتقي بحياة الإنسان وتكفل له الكفاية وتجعل منه حقا خليفة لله في الكون..

أمراض هدامة ينبغي على المسلمين أن يتلافوها فلا يستوردوها من الآخر.

لم تضح عدوى التأثر - منذ مستهل مرحلة التفتح الأولى - تنقل إلينا من أوروبا مبتكراتها ووسائلها المادية والصناعية فحسب ، بل لقد طفقت الأفكار والقيم والمثل الأوروبية تتحول إلينا وتؤثر فينا وتقلب موازين واقعنا وتحور من قواعده وقيمه بما يعمق من الشرخ الذي كانت تلك النقول تحدثه في ضميرنا الجمعي وفي شخصيتنا ومليتنا..

مفهوم القومية العرقي عتبة عبرت منها إلينا أمراض الإلحاد والإذابة.

ولعل من أبرز التحويرات التي طرأت علينا في مضمار تمثلنا للشخصية الملية، النظر المستجد لمفهوم القومية. لقد تسرب إلينا هذا المفهوم ملتبسا بمعاييره العرقية الفجة كما استقرت في مدارك الغرب، فبعد أن كانت قوميتنا دينية مفتوحة على الإنسانية جميعا ، لا تفرق بين الأعراق ما دام رداء الدين السماوي قد جمعنا في كنفه، أضحى الإنسان المسلم ينظر إلى نفسه وإلى قبيله ، ضمن رؤية خصوصية أساسها الدم والعرق واللغة والمحلية.. لقد ارتكست نظرة الإنسان المسلم وتقهقرت على سلم الوعي، إذ صارت نظرة انعزالية، طائفية، عرقية، بل وأضحت نظرة قبائلية عشائرية، بفعل الفهم الطارئ الذي نفذ إلينا من فكر أوروبا، ذلك الفكر الذي قام في مستهل نهضته على أساس قيم وتبلورات بشرية بدائية محورها العرق والنسب الجنسي..

من هنا واجه النورسي إشكال القومية ودحضه ودلل على مخاطره الهدامة بالنسبة للأمة المسلمة.

ولأن النورسي كان يعيش مرحة عاصفة بالرياح المناهضة لقيم الأمة وأصالتها، لا سيما على مستوى الطرح التدميري الذي كانت الحركات الهدمية اليهودية تنشره، لذا رأيناه يتعمق مسألة القومية ويحلل أبعادها ويسدد الفهم حيالها بما من شأنه أن يستبقي الرابطة الحيوية بين المسلمين ، تجاوزا للمصائد التي كان الغرب يبنيها للأمة من خلال الترويج للفكر القومي.

لقد كان ذلك الترشيد للقيم والمفاهيم الوافدة الذي باشره النورسي وباستماتة لا تكل ، يندرج ضمن رؤية تحصينية غايتها أن تضع الأسس التعاملية للأمة وترسم المعالم التي على الفئات والأفراد أن تتحراها في تفاعلها مع الغرب ، حتى لا تهدر المقومات ويضيع الوجود الملي.

"..إن العصر السابق ربما كان يعد عصر القومية، أما هذا العصر فليس بعصر القومية، إذ أن مسائل البلشفية والاشتراكية تستحوذ على الأفكار ، وتحطم مفهوم العنصرية، فلقد ولى عصر العنصرية.

واعلموا أن ملية الإسلام الدائمة الأبدية لا ترتبط مع العنصرية المؤقتة المضطربة ، ولا تقلح بلقاحاتها.

نعم إن في التطعيم بلقاحات العنصرية ذوقا مؤقتا وقوة موقتة، مؤقتة جدا، وذات عاقبة وخيمة" [138].

---

[138] المكتوبات 566

" لقد انتشر الفكر القومي وترسخ في هذا العصر، ويثير ظالمو أوروبا الماكرة بخاصة، هذا الفكر بشكله السلبي في أوساط المسلمين ليمزقوهم ويسهل لهم ابتلاعهم ، ولما كان في الفكر القومي ذوق للنفس ولذة للعقل وقوة مشؤومة ، فلا يقال للمشتغلين بالحياة الاجتماعية في هذا الوقت : دعوا القومية. ولكن القومية نفسها على قسمين : قسم منها سلبي مضر ، يتربى وينمو بابتلاع الآخرين ويدوم بعداوة من سواه ، ويتصرف بحذر ، وهذا يولد المخاصمة والنزاع.

وأما القسم الإيجابي، فهو النابع من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهو سبب للتعاون والتساند وتحقيق قوة نافعة للمجتمع ويكون وسيلة لاستناد أكثر للأخوة الإسلامية. هذا الفكر الإيجابي القومي ينبغي أن يكون خادما للإسلام وأن يكون قلعة حصينة له وسورا منيعا حوله ، لا أن يحل محل الإسلام ولا بديلا عنه، لأن الأخوة التي يمنحها الإسلام تتضمن ألوف أنواع الأخوة ، وأنها تبقى خالدة في عالم البقاء وعالم البرزخ.." [139].

إن منافحة النورسي ضد الفكر القومي كانت تضع في حسابها المرامي الخطيرة التي يستهدف تسريب مثل هذا الفكر.. فتبني مقوم القومية بمعناها العرقي هو تبن للانعزال عن الأمة ، والانعزال رديف العزلة ، والعزلة باب للضعف والانكسار أمام المستعمر، فالغرب بواسطة الدعوة إلى القومية كان يرمي إلى جندلة الأمة الإسلامية من خلال قهرها أجزاء وأعراقا وكينونات مقزمة، وهو ما ييسر عليه في الناتج الأخير إذابتها ومسخها.

بل إن تمرير فكرة القومية هو تمرير للفكر الإلحادي مباشرة، إذ أن من يقبل بالتحلل من أخوة الدين لِتستغرقه أخوة العرق، يكون قد قبل بعقيدة الإلحاد، لأنه قبل التفريط في اللحمة والرباط الذي كان في ضوئه يُعَدُّ جزءا من كيان الأمة لا يتجزأ.

من هنا ألفينا النورسي يسد باب الحوار مع أصحاب الدعوة إلى الفكر القومي، لأنه أدرك ما كانت تلك الدعوة تتقصده من كيد للإسلام وضرب لعقيدته..

فلا غرو إذن أن تقترن لديه مواقف مناهضة الفكر القومي- بمعناه الانعزالي - مع مجاهدة الالحاد، إذ سبيلهما واحد، ومدخل أحدهما يستتبع مدخل الآخر بداهة.

لذا حذر النورسي من مغبة الاستهانة بتلك الدعاوى العرقية ، بل لقد ظل يصرح بأن الرسائل ترابط على جبهة مدافعة الملاحدة وسد الأبواب في وجوههم. وما ذلك إلا لأن المخاطر التي كانت تحدق بالأمة كانت تتهددها من ذلك السبيل.

---

[139] المكتوبات414

لقد وضعت الرسائل حدا لا سبيل إلى تجاوزه على صعيد التعامل مع الفكر الغربي والتفاعل مع نظرياته وإيديولوجياته..

أركان اجتماعية إسلامية تلوثت بقيم الغرب وخرجت عن نطاقها السوي

كما أن النورسي قد رفع صوته بالتحذير من آثار الاستيراد الأعمى لأخلاق الغرب ومناهجه لاسيما ما تعلق منها بالتربية وتنشئته الأجيال. ذلك لأنه أيقن أن مغبة الوطأة التي تتلبس القيم التربوية الأسروية كما يمارسها الغرب مع ناشئته، وطأة كبيرة وفادحة ومردية ، إذ أن تلك التربية تحمل في طبيعتها الفردية والتحررية نزعة الجحود والإعراض عن المثل والعقوق، وهو ما ينال كثيرا من مقوم الأسرة ، إذ تغدو عاطفة الارتباط بين الناشئة وذويها واهنة وماضية في تدرجها نحو الضعف والتفكك جيلا بعد جيل.

فالمثل التحررية التي يتغنى بها الغرب،والرابطة الاستقلالية الندية بين أركان الأسرة: الأم والأب ، والتباري في مضمار الأفضلية بين الجنسين النسوي والرجولي ، والوطأة الاقتصادية التي تحتم على كل عنصر في الأسرة أن يتكفل بحاجياته ونفقاته أو بجانب منها ، لا سيما وأن ميزان التكافل الحقوقي عندهم لم يضع في حسبانه نصابا قارا لأحقية الأفراد في الميراث والتركة وفروض الكفاية، يضاف إلى ذلك ما تلقنه المؤسسات التعليمية والنظريات الاقتصادية من مبادئ الفردية والربح والمنافسة في الكسب بكل وسيلة..

كل ذلك أفرز تربية تنشئوية هونت من عاطفة الخلف الأسروية ، وجعلت رابطة الانتساب إلى عش العائلة تتحلل أو تهون بمجرد أن يشب الابن عن الطوق. ليستقل بمستقبله ويدخل تجربة الصراع من أجل الوجود.

بل لقد انتهى مفهوم الأسرة إلى عتبة بئيسة فقدت معها كل سمة للقدسية وكل اعتبار حقوقي. وإنها لتُعَدُّ آلافا مؤلفة تلك المواليد التي تنتج سنويا عن زواج عابر لا أساس له من شرعية ولا اعتراف مدني يثبته .

فالأم العزبة - كما سموها - تحمل ممن علاقتها به لا تعدو علاقة عابر السبيل، ثم تتكفل بمفردها بتربية وليدها إلى حين ، كمن يربي داجن من الحيوانات المنزلية لا غير ، حتى إذا شب الطفل ، جابهته حقيقته اللقيطية ، فانخرط بمحصلة من العقد يُصَعِّدُ بدوره من الخطا على طريق الدمار الذاتي الذي تسير فيه أوروبا بسبب تحللها التربوي عن ضوابط القداسة. من هنا ألفينا النورسي يستريب من قيم الغرب وينذر من مغبة المآل إن نحن تابعناهم في طريقهم التفككي ذاك.. فلقد لفته - منذ ذلك الحين -

تفشي ظاهرة العقوق التي تميز الأوساط المتغربة والتي اتبعت السبيل الغربي واعتمدت قيمه بدل التربية الإسلامية في تنشئة أبنائها ، وهو ما جعله يصرح بأن :

"التربية الأوروبية التي حلت محل التربية الإسلامية جعلت واحدا ابنا بارا بوالدته من بين كثرة من الأبناء" [140].

إن هذا الحكم الثابت الذي يصدره النورسي في مجال الاستيلاب الأسروي لمن شأنه أن يلفت الأذهان إلى مسألة الاقتداء بالغرب ، لا سيما على مستوى حيوي مثل هذا المستوى المتعلق بالأسرة وبالمصير الإسلامي كلية. فتنبيهه من هذا الجانب يغدو من قِبَلِهِ استشرافا حصيفا تحوط به للمستقبل ، إذ لم تفته المخاطر التي تنجم عن تفكك الأسرة المسلمة إذا لابستها قيم غير قيم القرآن..

والملاحظ اليوم أن التصعيد الاستيلابي بات يستهدف ، وبتركيز لا غبار عليه، قوانين الأسرة في المجتمعات المسلمة التي ما تزال تنص دساتيرها على الطابع الشرعي لتلك القوانين.[141]

وإذا كان مجرد الأخذ بقيم التنشيئة قد جعل عُشْرَ الخلفة ينجو من مغبة النكران والعقوق - كما سجل النورسي رحمه الله - فكيف ستكون الحال يا ترى إذا ما اعتمدت صراحة القوانين الوضعية في البلاد المسلمة؟

سيكون الناتج - لا سمح الله - الانهيار المؤكد للكيان الإسلامي برمته ، ذلك لأن مجتمعاتنا لا تتوفر على أدنى آلية تماسك أمام الاختلالات الاجتماعية والروحية ، عكس الغرب الذي تجعله عراقته المدنية يحتفظ بضرب من التماسك الظرفي ، قبل أن يتردى حتما ، في طريقه الشاذ عن الفطرة ، سنة الله في الخلق، ولن تجد لسنته تبديلا.

يمكننا أن ننص فيما يلي ، على تقريرات ومرتكزات عامة رأينا النورسي قد أناط بها عملية التواصل مع الغرب .

1- التعاون مع الآخر لا يكون مفيدا إلا بشروط الجدوى وتحقيق مصلحة المسلمين .

إن التعاون الإيجابي ينبغي أن يكون قائما على أساس من الوعي بحقيقة الآخر، ليتسنى للمتعامل تجاوز المضار والاختلالات التي تحملها ثقافة هذا الآخر وتاريخيته.

---

[140] الملاحق 342

[141] الزوج وعلاقته بزوجته في ظل تمكن التربية الأوروبية من مجتمعنا .الملاحق341.

لقد آمن النورسي أن الخروج من التخلف وقهر الانحطاط لا يتم إلا بالعمل المرشَّد والتسلح بالعلم وخوض مضمار التصنيع . وتحقيقا لذلك راح النورسي يهيب بالأمة أن تشرع في الإنجاز ، ولذلك جعل شعاره في مواجهة الانحطاط: أهجموا على الجهل والفقر بالعلم والصنعة..[142]

2- مبدؤه تمكين الذات الملية من روح القوامة، وعدم الوقوع لقمة سائغة للاجنبي.

" إن الحاجة - التي هي أم المدنية وأم الاختراع والرقي - قد رفعت يدها لتنزلها عليكم صفعة فتأمركم: إما أن تعطوا.. حريتكم.. إلى الناهبين، أو عليكم أن تهرعوا إلى كعبة الكمالات بركوبكم منطاد العلم وقطار الصنعة في ميدان المدنية لاستقبال المستقبل الزاهر ، مستردين أموال الاتفاق التي اغتصبها الأجنبي " [143].

3- يقر أن الملية الإسلامية مطالبة أن تكتسب الاعتبار في مجال المدنية وتتفوق فيه على نحو ما تفوقت سابقا في مجال الحرب والفتوح السيفية. "مثلما ترقيتم في مضمار الشجاعة المادية بتعلمكم المعرفة من كتابات سيوفكم وفتحتم مجرى من الدماغ إلى القلب بالقوة، فافتحوا الآن منفذا من القلب إلى الفكر، وابعثوا مددا للعقل في ميدان المدنية ، اجعلوا سيوفكم من جواهر العلم والصنعة والتساند الذي يأمركم به القرآن الكريم **" [144].**

4- قطار **القانون الشرعي** سيقل الأمة إلى العدوة الأخرى، عدوة التقدم والرقي وتدارك التخلف " إن مائة ونيف من السنين التي تأخرنا فيها عن مضمار الرقي والتقدم سنتجاوزها بإذن الله تعالى بمعجزة نبوية مستقلين عملا - قطار القانون الأساسي الشرعي ، وممتطين- فكرا - بُراق الشورى الشرعية " [145].

إنه وعي **طليعي وإدراك متقدم لأهمية استثمار الزمن** في عملية النهضة والبناء، إذ لا يعقل أن نبدأ عجلة التطور من حيث بدأوها هم، بل علينا أن نقفز إلى قطار الحضارة العلمية وهو يجري، وأن نبادر إلى استغلال قابلياتنا وتطوير مقدراتنا، مستغلين الشروط والمعطيات المعرفية العالمية المتداولة في زمننا الراهن، وأن نطوعها من أجل المشاركة والاشتراك، وإذا كان النورسي قد تحدث عن ركوب

---

[142] صيقل463
[143] صيقل 463
[144] صيقل. 464
[145] صيقل 467

القطار والمنطاد، فلأنها وسائط ومنجزات كانت سقف التطور العلمي في عهده، إذ كانت علامات ميكانيكية وتقنية تؤشر إلى ما انتهى إليه سلم التطور في مضمار الإنجاز التطبيقي يومئذ ، وهو ما يجعلنا مطالبين اليوم باختراق حواجز القصور المعرفي ومباشرة دورنا التجريبي والاستخدامي والتطوري في مجال المعلوماتية والالكترون والفيزياء بفروعها النووية والفضائية والعضوية..

5- وجوب الاختيار والرشاد في الأخذ بما يتهيأ لنا من معارف الآخرين، وضرورة الانتقاء المعرفي تقتضي منا " أن نجعل القاعدة التالية دستور عمل لنا وهي: **خذ ما صفا دع ما كدر**. وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب - مشكورين - كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات ، أما العادات والأخلاق السيئة فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبن قبحها كثيرا لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة [146].
إن هذا الشعار التجنيدي الرشيد الذي أوجزته عبارة "خذ ما صفا دع ما كدر " ليترجم الروح البراغماتية السامية والتي تصدر عن سجايا إيمانية تجد سندها التوجيهي في قوله (صلى الله عليه وسلم) الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها..
فالمدنية الغربية تمارس تمويها خبيثا ودسا ماكرا في ما تروج له من نفايات ضارة ، وفي ما تسوقه من سموم قصد الربح ولو بإضرار الغير، وهذا من خلال دمج البضاعة الفاسدة ضمن البضاعة السليمة. لذا توجب الحذر والتحوط مما يسوق لنا أو يُصَدَّرُ، وهذا في مجال الماديات وفي مجال المعنويات على حد سواء. بل علينا أن نتحوط للمضار المعنوية بصورة أكبر ، لما يترتب عن التسميم المعنوي من أذى قد لا يشفى.

6- يعترف النورسي أن مسألة الأخذ بأسباب المدنية عملية تنطوي على مخاطر الاستسهال المغري الذي كثيرا ما يجعلنا نقف منها موقف الأطفال من خلابتها ، وذلك حينما تتجه إرادتنا إلى استجلاب البهرج وحده[147].. عكس ما يكون عليه الأمر عندما تكون المهمة بنائية قائمة على الوعي بما يفيد: "فنحن لو أخذنا منهم المدنية - بسوء حظنا وسوء اختيارنا - بما يوافق الهوى والشهوات -كالأطفال - تاركين محاسنها التي تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها ، نكون موضع سخرية كالمخانيث

---

[146] صيقل 468
[147] يتعرض المرحوم مالك بن نبي ، ويتوافق مع النورسي في النظرة لهذه الحال غير الرشيدة التي تجعل من الإنسان المسلم (لا سيما النفطي) مجرد جامع للأشياء والمستهلكات التي يسوقها الغرب. انظر مثلا كتابه مشكلات الحضارة.

أو كالمترجلات ، ألا لا ينبغي أن نتجمل بمساحيق التجميل .."[148]. فالفيصل من وجهة نظره في مسألة تحويل لوازم المدنية وجعل عملية استيراد الحضارة الغربية أمرا بناء وقابلا لتوطينها واتزراعها في المحيط الإسلامي هو تحكيم سيف الشريعة في موادها ، فما وافق الشرع استجلب ومورس تعلما واستحصالا وما خالف الشرع أضرب عنه وسد الباب في وجهه ، وهذا يسري على الأفكار سريانه على الأشياء . [149]

7- كان مثاله وقدوته في تثمير أسباب التمدن والتطور العصري الأمة اليابانية..[150] وكان تنويه النورسي باليابان يتجدد بسبب فذاذة تجربتها الانبعاثية، إذ هي تنتمي للمدار الشرقي من جهة، وهي إلى ذلك أمة تنحدر من العرق الأسيوي الأصفر ، وفي ذلك إثبات يبطل مقولة الغرب التي تربط الرقي والمدنية بالعرق، وتحصر التفوق في الإنسان الغربي. ومن جهة أخرى كان النورسي - رحمه الله - حريصا على أن يضع المثال الشرقي الناجح والمتوازن ، والذي استطاع أن يغادر محطة التخلف الحضاري من دون أن يكون ذلك على حساب قيمه ،وهو ما حققته أمة اليابانية. من هنا استحق النموذج النهضوي الياباني أن يكون مرجوعية تدليلية يكرر النورسي الاستشهاد به ، إيقاظا للأمة المسلمة ووضعا لها على محجة النهوض السوي الذي لا يفرط في المبادئ والمقومات.

8- يدرك النورسي أن الإنسان المعاصر بات يتوفر على قابليات عقلية تكفل له أن يراهن على مزيد من الفتوح في مضمار التمدن والانتفاع الحضاري. من هنا توجب على الأمة المسلمة أن تشمر على ساعد الجد وأن تنخرط في مضمار التجريب واستثمار ما هيأته المدنية المعاصرة للبشرية من أسباب الإبداع والرقي والكفاية.

"الإنسان في السابق كانت أفكاره متدنية لكونه عاش في دائرة محدودة ، أما في ظل الحرية الدستورية ، فإنه يجد نفسه في كامل قواه واستعداده للرقي، إذ ستتكامل أخلاقه وتتسع آماله ولا يعود هناك شيء يتعسر على مطمحه وتوقه، وهو ما سيرشح الشرق لإشراقة جديدة تشع على الغرب " [151].

فالتطور التاريخي للإنسانية مكن الإنسان من أن يتطور على صعيد الفكر والنظر والتحكم في كثير من الأسباب الحياتية. فعلى قدر ما انفسح الإنسان في سيرورته التاريخية، وبقدر ابتعاده عن عصوره البدائية الأولى، امتدت أمامه الرؤية واتسع

[148] صيقل 468
[149] صيقل 468
[150] صيقل.468
[151] صيقل 470

نطاق تفكيره ، وتبلورت منظوماته العقلية والذهنية ، وبالتالي أحكامه وقوانينه التي بات يدير بها الكون..

بل إن الأهم من كل هذا هو اكتسابه لتلك الصفة الذهنية التحصيفة والمتمثلة في قابلية النقد الذاتي التي أضحت راسخة في سلوك الإنسان المتمدن اليوم، والتي يترجمها هذا الوازع التصحيحي الحي في أعماقه على الدوام، والذي يجعله يستشعر باستمرار أنه لم يبلغ بعد مستوى الكمال، وأن عليه أن يجهد من أجل أن يرقى سلم المدنية بمختلف مرتكزاته التشريعية والمعرفية والاجتماعية عامة، وأن يمضي على الطريق قدما. على عكس قناعة إنسان الحضارات السابقة، حيث أن تلك الحضارات كانت ترى في منجزاتها المادية والفكرية سقفا قارا ، وحدا نهائيا لا مجال لتجاوزه ، بل لقد كانت تحيل نزعة التجاوز - إذا ما بدت - على روح التمرد والكفر ومناهضة خيار الآلهة في مضمار المعيش والحياة وسعادة الحياة والمآل. لذا توجب على الإنسان المسلم أن يتقمص روح العصر وأن يتدثر بلوازم الكفاح المعرفي والانجازي ليكون له حضوره وتأثيره في حضارة هذا العصر وفي القابل البعيد أيضا.

9- العقيدة الإسلامية ذاتها عقيدة متطورة

لقد آمن النورسي أن العقيدة ذاتها متطورة ، وأن سريان سلطان الزمن الوطيد والمطرد بلا هوادة ، والذي جاءت الديانات لتحد من جنوحه وانفلاته نحو الوحشية والإطلاق ، يترك بدوره الأثر من خلال ما يحدثه من تطورات على الحياة والمعايير نفسها ، الأمر الذي يجعل الأحكام القدسية ذاتها تبدو على حال من المرونة الأصيلة والمنسجمة مع قابليات الإنسان في التجدد ، فطرة الله التي فطر عليها عباده : "..الشريعة متطورة لكونها منوطة بالأزل، **فهي تتوسع وتنمو بنمو الكائن الحي،** أي بنسبة نمو استعداد الإنسان وتشربه من نتائج تلاحق الأفكار وتغذيه عليها، ذلك الاستعداد الذي يمثل ميل الرقي الذي هو غصن من أغصان شجرة استكمال العلم "[152].

ولقد عبر عن يقينه من قابلية الإسلام للتطور منذ وقت مبكر ، ففي الخطبة الشامية أكد هذا الاعتقاد ، وآمن به ، وأوصله إلى الأمة لتتسلح به كوعي ينبغي أن تباشر بها كافة اجتهاداتها المعززة لذاتيتها.

فحقائق الإسلام تمتاز باستعدادها الكامل للدفع بأهلها إلى مراقي التقدم المادي والمعنوي على السواء.

---

[152] صيقل471

ذلك لأن في التمسك بحقائق الإسلام سر تقدم المسلمين في القديم، كما أن انفكاكهم عن تلك الحقائق سبب هذا الموات الذي يعيشونه منذ قرون وإلى الآن"[153].

10- أسباب تأخرنا عن الرقي والتطور الحضاريين

يرجع النورسي أسباب تأخرنا الحضاري والمدني إلى عوامل من بينها : عدم مراعاتنا لأحكام الشريعة الإسلامية والشريعة الفطرية (الكونية) في نظم حياتنا وفي تسيير شؤوننا المدنية.[154]

11- كما يعيد من جهة أخرى أسباب قعودنا عن الانبعاث السوي ، إلى وقوعنا في خطإ التقليد الأعمى للغرب ، الأمر الذي حال دون أن نختار ما هو أساسي في إحداث النقلة والنهوض ، وفي ما يكرس الحطة ويقوي من الاستيلاب.

- تقليد مساوئ المدنية الأوروبية تقليدا ببغائيا ، مما ولد تركنا لمحاسن المدنية التي تستحصل بجهد وبعناء ومشقة وصعوبة لا تنكر..[155]

12- التباين الفكري والروحي والتربوي من عوامل الفرقة والخلاف وتبدد الجهد.

تجاوزت رؤية النورسي إلى المذاهب الدينية النطاق الاختلافي الذي ظل وما زال يقيم الحواجز الصماء بين أتباع المذاهب والطوائف، لا سيما بين السنة والشيعة.. لقد قرأ الواقع التمايزي بين الشيعة والسنة بفكر تقويمي انتهى بمسألة الفرقة المذهبية إلى جوهرها العضوي الواحدي. إذ في رأيه أنه لا مسوغ بأي حال من الأحوال أن يعادى من تشيع لآل رسول الله وجعل من محبته ديدنه ، كما أنه لا مبرر للنفور ممن يشمل بمحبته صحابة رسول الله ومن ضمنهم آله الكرام ، إذ الجميع في حقيقة الأمر يشتركون في محبة العترة الزكية، ولا يضير بعد هذا أن تختلف حجوم وتفاصيل المحبة وكيفياتها..

ونجده في موطن آخر يرجع أسباب تأخرنا المدني إلى حال التفكك والخلاف الفكري والمعتقدي، والذي يترجم على أرض الواقع في صورة اختلاف رؤيوي وتشتت في النظرة إلى الحياة، وانعدام المشروع المدني والاجتماعي الذي يناط بالجهات الفاعلة في المجتمع من أجل أن تصوغه وتنفذه .إن غياب النموذج الاجتماعي الموحد وانعدام الإطار المدني المشترك الذي يستقطب الجهد الملي - وإن

---

[153] صيقل493
[154] الكلمات 871
[155] صيقل471

اختلفت بعد ذلك تفاصيل ذلك النموذج المدني بين الفئات من حيث الكيفيات والأساليب المفضية إلى خير الأمة وصلاحها - يجعل من الأفكار أحوالا انفعالية مرتهنة بالحماس الظرفي الذي تذكيه المناسبات ، ويجعل التصورات الحالية والمستقبلية مجرد أحلام حبيسة الذهنيات والضمائر والنوايا ولا شيء غير ذلك، وقد تتحول الرؤى ووجهات النظر إلى برامج، إلا أنها ونتيجة التضارب الذي يعاجلها من قِبَلِ المخالفين والمعارضين ، لا تلبث أن تجهض أو تموت في الرحم تحت ضغط الخلاف غير المدني .

ثم إن طبيعة الاختلاف المستفحلة لدى الفئات والقطاعات المدنية وحال تباين الأفكار واختلاف المشارب والتوجهات، تنعكس- حتما - على صعيد واقعنا الاجتماعي والتربوي، إذ هي تتبلور في مفاعلتها للمجتمع على شكل مناهج متنافية متباينة، لما يحكمها من مصادر وقناعات ومرجعيات ديدنها تحقيق مساحة النفوذ وبسط قبضة التبعية على مزيد من القطاعات من الفئات. (حمية التكاثر)، الأمر الذي يجعل من الناتج البشري والاجتماعي المتشكل في ظل ذلك الواقع التوجيهي والتنشيئي الخلافي ، صعيدا انعزاليا تتهدد به لحمة الأمة وتتحلل أواصر وحدتها بدل أن تتعزز وتنهض وتواجه تبعات التخلف والاندحار.

لقد أحال النورسي علة هذه الحال التفككية التي عليها واقع المسلمين ، إلى تعدد مصادر التوجيه والتعليم وتباين البرامج التكوينية التي ظلت تعتمدها - وما زالت - كثير من مرافقنا العمومية : المدارس والكتاتيب والتكايا.

" إن من أهم أسباب تأخرنا في مضمار المدنية بعد الاستبداد ، هو تباين الأفكار واختلاف المشارب لدى منتسبي ثلاث شعب كبيرة ، يعدون مرشدين عموميين للجميع ، وهم منتسبو المدارس الحديثة والمدارس الدينية والتكايا .. إن تباين الأفكار قد هز أساس الأخلاق الإسلامية وفرق اتحاد الأمة ، وأخرنا عن ركب الحضارة ، لأن أحدهم يكفر الآخر ويضلله ، بينما الآخر يعد الأول جاهلا لا يوثق به ، وهكذا ساد الإفراط والتفريط ، وعلاج هذا الداء هو الصلح النابع من توحيد الأفكار ، وربط العلاقات ووصلها حتى يوصل إلى نقطة الاعتدال، فيتصافح الجميع ويتفقوا جميعا ، لئلا يخلوا بنظام الرقي" [156].

هكذا تتحدد رؤية النورسي للاختلاف المشربي ، لا سيما إذا كان ناتجا عن مناهج تعليمية منوط بها أمر تنشئة الأجيال ، فلن يكون الحاصل في الحقيقة إلا صداما مفجعا

---

[156] صيقل 473

تتعمق به حال الحسرة الملية ، لأن تباين البرامج والمناهج التعليمية واختلاف الأسس والغايات التي تؤسس لها ، إنما يكون له صنيع بالغ السلبية وناتج مشؤوم المردودية على الأمة والأجيال ..

لأن الفئات ستجد نفسها مسوقة في غير اتجاه ، بل متضاربة في وجهتها ورواها وتوجهاتها ، الأمر الذي يتولد عنه حتما الصدام ، والعنف ن والتشتت.. من هنا نظر النورسي إلى الواقع التعليمي والتوجيهي كما كان متبعا في البلاد الإسلامية ، نظرة سالبة ، إذ اعتبره فعل يهيئ الأمة لمصير من الحرب والتقاتل الفيئوي ، الأمر الذي جعله يطالب بوجوب وضع حد لذلك التوجه المريع ، وأن تعقد الأمة بدله موثق مصالحة ، تعود في كنفها إلى الجادة ، فتتكفل بوضع البرنامج التعليمي النابع من حاجاتها الحيوية ، والمنسجم مع أصالتها ، والمساير لمقاصدها الاستراتيجية القريبة وبعيدة المدى ، والمؤكد لوجودها ، والمقوي لبنيانها.

13- دواعي يقظتنا وتطورنا.

يؤمن النورسي إيمانا جازما بأن الأمة ستستفيق وستسري في عروقها إرادة الحياة الكريمة ، وهو ينيط أسباب هذه الاستفاقة أو عواملها بالحاجة التي تدفع الإنسان إلى أن يخترع ويتعلم ، كما ينيطها من جهة أخرى بواقع الخصاصة والفقر الذي يسحق الأمة ، إذ من شأن الخصاصة أن تلهب الرغبة في تحقيق الكفاء، وهو ما سيدفع بالأمة والمجتمعات إلى تغيير واقعها وتحقيق كفايتها بكل السبل..

فهناك شهامة فطرية في وجدان الأمة تجعلها في المحصلة النهائية تنتصر لنفسها وتعيد لذاتها العزة والشرف وهذا بتجاوز حال الانخذال والاستخذاء. "إن الميل نحو الكمال قانون فطري في الإنسانية وفي الأشياء والطبيعة..ولذا لا بدع أن تنزع الملية الإسلامية إلى استعادة دورها القرآني ، ولا بدع كذلك أن تشرئب إليها يوما البشرية ، باعتبارها أمة الإسلام والعقيدة المجسدة للكمال.

"المسلمون هم أفضل البشر وأشرفهم، وهم أهل الحق والحقيقة كما ثبت بشهادة التاريخ والوقائع والاستقراء التام " [157].

14-خدمة الإسلام والحرص على إبقاء صورته على ألقها الرباني هي واجب الجميع

ومسؤولية الفرد المسلم لا تحد بنطاق فرديته، وإنما هي مسؤولية ملية..

---

[157] صيقل 503

إن الإساءة الفردية التي يتسبب فيها الفرد المسلم حتى لنفسه ستكون ضارة بالأمة كلها." إن في زماننا هذا ، ولا سيما بعد أربعين أو خمسين سنة ، ليس المسيء هو وحده المسؤول عن سيئته ، بل تتضرر الأمة الإسلامية بملايينها، بتلك السيئة "[158]. وكذلك الحسنة الواحدة ، ستتحول إلى ألوف ولا تقتصر على فاعلها.. من هنا توجب العمل والسعي والحرص على توطيد صورة الإسلام ومكانته ..

15-الفرد المسلم ممثل للأمة وسفير باسمها.

وأن مسؤولية الفرد المسلم ثابتة ولا مندوحة عنها، من أجل الإيفاء بالموثق، إذ المسلم ينتمي إلى أمة أناط الله بها، أفرادا وجماعات، مهمة التبليغ وتوصيل خطاب الله إلى العالمين. من هنا كانت مسؤوليته : كل مؤمن مكلف بإعلاء كلمة الله.

16-عملية الاقتباس المدني ، إذا ما ترشدت فلن تكون إلا عملية استرداد لما أخذ منا من سبقيات..

فالاقتباس المدني والاسترفاد الحضاري المرشد عندما تمارسه الأمة ، هو من بعض وجوهه ضرب من استعادة ملكيتنا الخاصة والمتمثلة في القيم والمزايا والأخلاقيات التي فقدناها بتأثير الانحطاط، واستولى عليها الغرب وعمل بحسن استثمارها على أن يتجاوز من ظلامية القرون الوسطى التعسة التي ظل يتخبط فيها آمادا عندما كانت شمس حضارة الإسلام ترود العالمين. فالأمة حين تستلهم لنهضتها مناهج وروحية مدنية انجازية ، فإنها في الواقع تجدد اللقاء بمثل ومعايير فاعلة كانت تتوفر لها في عهود عزها ومجدها ، وقد افتقدتها بعد أن فقدت همة الحياة والريادة ، فالاقتباس المدني المرشَّد الذي تمارسه الأمة المسلمة وهي تتبنى مناهج مدنية وعلمية وتطبيقية ما هو إلا استرداد للحق وإعادة لتوطين قيمنا ومثلنا الانجازية في تربتها الملية الإسلامية الأصل.

وفي هذا الصدد يرى النورسي أن الأمة قد استهدفت طويلا من قبل أعدائها المستعمرين، من خلال نهب تراثها المادي (أوطان - ومال) وبالاستيلاء على مرصودها المعنوي (الشمائل التي تخلينا عنها ، ثم شروعنا بعد سبات طويل في تقمص ما يصدرونه لنا من سيئات)، ذلك لأنهم حازوا " قسما من أخلاقنا وسجايانا

[158] صيقل 511

الحميدة والتي بها يترابط مجتمعنا"[159] وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقيهم وتقدمهم ، ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم.[160]

17-الإسلام سلام ، ووحدته تتجاوز الطرح العنصري ، لأنها خطوة على طريق الأخوة الإنسانية قاطبة.

لقد أدرك النورسي مدى الحذر الذي يميز علاقة الغرب بنا ، وأدرك أن كل مسعى بنائي يتحقق لنا إنما يثير مخاوفه ويكدر طمأنينته، لأن الغرب لا يرى في تقدم المسلمين ورقيهم إلا تهديدا لوجوده هو وغلبته.. من هنا راح النورسي يضع هذا الحقيقة في حسابه ويوعز للمسلمين بضرورة التحوط لها حتى لا تفضي بنا الغفلة إلى مزيد من إهدار الجهود ، أو حتى لا يضعنا سوء التقدير تحت طائلة الإجهاضات التي سيمارسها الغرب علينا ، إذ سيقضي على كل خطوة نخطوها في طريق الصحيح.. وبكل تأكيد فإن سوء التصرف في هذا الميدان قد كلفنا وما زال يكلفنا الفداحات ، بسبب عدم تنبهنا للترصد اليقظ الذي يسلطه الغرب علينا والذي يقوم به خطواتنا في مضمار البناء.

18- في تلويحه براية السلم وتأكيده لسلمية الإسلام دعوة للمسلمين كي يتجنبوا كل ما من شأنه أن يتثر ضدهم القوى المتربصة..

لقد طفق النورسي يلوح بالراية البيضاء مطمئنا الآخرين ومؤكدا الطبيعة السلمية للاسلام. ولقد تنبه إلى ما تثيره فكرة الوحدة الملية من مخاوف الغرب ، لذا رأيناه يكرر الحديث عن طابعها السلمي ، الخالي من أي أغراض تعصبية أو عدوانية ..

ذلك لأن النورسي كان حريصا على أن يتحلى المسلمون بصفة المسالمة تجاوزا لحال الرقابة والترصد التي يستهدفهم بها الغرب.. ثم إن النورسي كان من جهة ثانية يركز الأسس الأخلاقية التي قامت عليها العقيدة الإسلامية ، والقاضية بالسلم وبمحبة الإنسانية وعدم ممارسة أي مظهر من مظاهر البغي والعدوان..

لقد شدد النورسي على وحدة المسلمين وأنهم متحدين بالقوة وبالفعل، لأن رابطة التوحيد تجمعهم، " فالتوحيد هو جهة الوحدة والاتحاد فيما بيننا ، وقسَمنا وعهدنا هو الإيمان " [161]..

---

[159] نفسه 513
[160] نفسه 513
[161] صيقل 530

لقد كان بذلك التأكيد يستنهض مشاعر التماسك بين أبناء الملة الواحدة، ذلك لأن هذه الوحدة - كما يقرر - إنما هي وحدة فطرية، لحمتها العضوية يؤسسها الدين الإسلامي بلطائفه الربانية ومقوماته الرحمانية، فاتحاد المسلمين إنما يقوم في كنف العقيدة، وهو اتحاد يرتكز على التلاحم التلقائي الخالي من أي وازع تعصبي مذموم، إن اتحاد المسلمين قد استند في محصلته الوحدوية على تداعيات روحية وفكرية سليمة، مبرأة من الإفتئات ومن كل ما يضر بالإنسان، إذ أنه اتحاد مفتوح للبشرية جمعاء، ولا يشترط الانتساب إليه ترجيح جانب أية جهة أو عرق أو مذهب، فلا تراجحية قومية في الإسلام، إنما تترجح وحدها كفة الخالق، وهذا بخلوص المعبودية له سبحانه الفرد الصمد المنزه عن المثيل والندية والقرين، وبالإيمان بكافة أنبيائه وتمجيدهم وتفديتهم على سواء، ومن غير ما تمييز ولا إقصاء..

وإن ما ييسر الطريق ويفتح الباب في وجه المتداعين إلى الإسلام من الشعوب والأمم التي ظلت مُزَوِّيَةً بنظرها عنه، هو الارتفاع المسلمين الأوكد إلى مستوى الإسلام، إذ المطلوب منا معاشر المسلمين أن نجسد النموذجية المحمدية على أقرب ما تكون من كمالها ونصاعتها، ولن يتأتى هذا إلا من خلال احتذاء المسلك النموذجي والسيرة المثالية التي تتحقق للمسلم في ضمير الأمم، ولا يعني هذا الاقتصار على المسلكية المظهرية أو الشكلية التي لا تترجم في الغالب إلا عن إرادة تنصلية سهلة من المسؤولية الملقاة على عاتق المسلمين.. بل إن الأمر ليمتد إلى مجالات الشد والاستقطاب كافة ، بما تقتضيه من ابراز دائم ومتواصل للفاعلية على صعيد المنجزات .. فالتحلي بشرط الفاعلية الحضارية والنفاذ العلمي لمن شأنه أن يكفل للمسلم أحقية الوجاهة والصدارة بين العالمين ، وفي ذلك ما فيه من أسباب الاستقطاب والاستلحاق ، الأمر الذي يفتح الباب واسعا في وجه الأمم وينشط دافعيتها وتدافعها إلى حظيرة الإسلام..

هذا هو السبيل إلى صون الذات وامتلاكها لأسباب رد الاعتبار والكرامة الممتهنة بين الأمم، وليس سبيل التحلل والتطابق المظهري الأخرق بالأجنبي وبخلقيته العرفية التي لا تليق إلا به هو لأنها تعبير عن تاريخيته وحضارته.

"وليطمئن غير المسلمين بأن اتحادنا هو الهجوم على هذه الصفات الثلاث (الجهل والحاجة والنفاق) ليس إلا، وبالنسبة إليهم فسبيلنا الإقناع ، لأننا نعتقدهم مدنيين، وأننا مكلفون بأن نظهر الإسلام بمظهر الجمال والحسن المحبوب، لأننا نظن فيهم

الإنصاف. ألا فليعلم المهملون غير المكترثين أنهم لا يحببون أنفسهم بالانسلاخ من الدين لأي أجنبي كان، وإنما يظهرون أنهم على غير هدى ليس إلا"[162].

19-التعليم حقل حيوي لا بد أن تراعى في مواده ومناهجه شروط الحصانة والتطوير.

وفي المجال العلمي والتعليمي كان النورسي يحرص على ضرورة معاينة ومراقبة ما يلقن وما يعطى من علوم حديثة للناشئة، على أنه يرى أن الطريقة الأفيد في توطيد تلك الرقابة، هو المزاوجة بين العلوم الشرعية والعلوم المستوردة، إذ أن المعارف الشرعية إذا ما تعمقت وأعطيت على النحو الأكمل ، فإنها ستغدو بمثابة اللقاح الناجع في التصدي لأي عدوى أو أي اختراق فيروسي ضار.. .لابد من مصفى ومن عازل يتصدى" لنهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الخارج كما هو الظاهر..فينبغي أن يكون أحد مجاريه قسماً من أهل الشريعة كي يتصفى من شوائب الحيل ورواسب الغش والخداع. لان الأفكار التي نمت في مستنقع العطالة، وتنفست سموم الاستبداد، وانسحقت تحت وطأة الظلم، يُحدث فيها هذا الماء الآسن العفن خلاف المقصود.، فلا بد من تصفيته بمصفاة الشريعة، وهذا الأمر تقع مسؤوليته على عاتق أهل المدرسة الشرعية " [163]..

20-التمكن المادي سبيل إلى الدعوة إلى الإسلام.

على أن أجدى سبيل للدعوة واستقطاب العالمين لرحاب الإسلام ، هو التمكن المادي والنفاذ العلمي والانجازي والإنساني الذي على أمة الإسلام أن تحققه كي تحوز مكانة المثال المحتذى والنموذج الذي يُتَأَسَّى به ويقتدى..

"وأعظم وسيلة لإعلاء كلمة الله في زماننا هذا هو الرقي المادي"[164].

وفي هذا الصدد فإن النورسي يرى الجهاد نوعين، جهاد داخلي ويتمثل في الرهان على العلم والتمكن من الصناعة والرقي المادي، لقد قهرنا الغرب بسلاح العلوم والصناعة ، ولا مناص لنا من الجهاد " بسلاح العلم والتقنية والجهل والفقر والخلاف الذي هو ألد أعداء إعلاء كلمة الله" [165]. هذا هو الجهاد الداخلي، وهناك الجهاد الخارجي ، وهو منوط بـ: السيوف الألماسية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء لأن

---

[162] صيقل530
[163] صيقل530
[164] صيقل527
[165] صيقل527

الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه، كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئا. [166].

21-القوة المادية المؤسسة على التوحيد الخالص هي مفتاح المستقبل وشرط مركزي لمحاورة الآخر والتفتح عليه بإيجابية.

فالقوة ينبغي أن تقر في ضمير الأمة ووجدانها أنها لله وحده وإلا استولى الاستبداد وتعطلت طاقة الانبعاث "لابد أن يكون المهيمن والآمر الوجداني قوله تعالى : إن الله القوي العزيز ، وهذا يكون بالمعرفة التامة والمدنية الكاملة - أو بتعبير آخر- بالإسلام ، وإلا سيكون الاستبداد هو المستولي دائما " [167]..

"إن الإسلام وشريعته الغراء " يظهر ثباتا وكمالا ويحقق وجودنا أمام الأجانب"[168].

إنه العاصم لنا من شرور الاختراق والعدوى والمفاسد " ويحول دون دخول مفاسد المدنية إلى حدود حريتنا ومدنيتنا ، ويجنبنا من ذل التسول من أوروبا .

إن "..الإسلام يؤلف قلوب غير المسلمين ، ويخلصنا من السفاهة التي تهدم المدنية ومن الحاجيات غير الضرورية ، ويعلمنا الأخلاق المحمودة التي هي حياة المدنية ، ويفهمنا قواعد المشاعر النبيلة"[169].

لقد كان النورسي يستخذي مرير الاستخذاء أن يرى الساسة وئات التغريب تتجاوز الإسلام بأفكار وإلزامات قانونية وتنظيمية يستوردونها من الغرب، تاركين معين الشريعة التي هيأت الأصول وأوجدت القيم وقاستها على منوال الفطرة والسلامة لتكون للناس المرجع والفيصل، لذا رأيناه يتألم لرؤيته الجهات المتنفذة تسعى إلى استيراد الأحكام من أوروبا " أليس من الجناية على الإسلام أن نستجدي الأحكام من أوروبا ولنا شريعة غراء تأسست قبل ثلاثة عشر قرنا ؟

"إن هذا الاستجداء شبيه بالتوجه إلى غير القبلة في الصلاة " [170]..

كان النورسي يؤمن أن طبيعة الشرق واستعداده الفطري يهيئانه لأن ينقاد بالدين. أما الغرب فإنه ينصاع للفلسفة ، فـ "ظهور أكثر الأنبياء في آسيا والشرق، وظهور أكثر الحكماء والفلاسفة في الغرب، يدل على أن الذي يدفع آسيا إلى الرقي

---

[166] صيقل527
[167] صيقل527
[168] صيقل 525
[169] صيقل526
[170] صيقل 527

الحقيقي هو الشعور الديني أكثر من دفع العلوم والفلسفة لها ، فإن لم تأخذوا بهذا القانون الفطري وأهملتم الأعراف الإسلامية بحجة التغرب ، وأسستم الدولة على الإلحاد ، فأنتم مضطرون أيضا إلى الانحياز إلى الإسلام - لصالح الوطن والأمة - إقرارا للسلام في الولايات الشرقية الواقعة بين أربع دول كبرى " [171].

لقد جنحت المدنية الغربية المستبدة إلى سوء استعمال نعم الله عليها من ثروات ومعرفة وكشوف علمية، وإلى الدفع بمجتمعاتها ومجتمعات البسيطة كلها إلى الاسراف بغية تنمية وازع الاستهلاك غير المرَشَّد من أجل تحقيق الأرباح ومفاقمة الخصاصة وتهييج الشهوات ، مع ما ترتب عن ذلك من تفكك أصاب صلب الأخلاق والروابط بين الجماعات والأمم ، بل وبين فئات الأمة الواحدة ، إذ ".. شجعت طبقات العوام على الصراع مع الخواص ، وإلى جانب ذلك فقد انجزت من الخوارق في ساحة العلم ما يعد من النعم الربانية .. لكن تلك النعم استنقذت في ما لا يفيد ، بل في الضار .. من ذلك الراديو .."[172]

خنقت المدنية الغربية الراهنة في روح الإنسان الرغبة في العمل، فأفقرته. وأمرضته وأزاغته عن الهدى، وجعلته يتحول إلى إنسان عدمي ، حين جعلت الموت مصيرا لا أفق بعده.. إلا أن قوانين القرآن ستهيء المناخ الذي تسير فيه الحضارة في ركاب التقوى..[173]

22-الإعلام سلطان مدمر إذا لم يترشد بقيم نافعة تخدم الإنسانية..

يشخص النورسي بموضوعية بصيرة أضرار الإعلام وما يسببه من توالد خطير على صعيد الآثام والمقترفات ، فوسائط البث الأثيري السمعي في زمنه -أول هذا القرن - قد باتت تعمل على تكبير آثام البشر، إذ أن اللفظة الواحدة أو السيئة الواحدة التي تصدر عن الفرد ستضاعف منها الوسائل البثية بما لا حصر له من المرات، مما سيتلقفه العدد الذي لا يحصى من المتلقين ، فتلك الوسائط البثية كانت - من ثمة - بمثابة آلاف الآلاف من الألسنة ، وليست لسانا واحدا، اعتبارا للنطاق الواسع من الجمهور الذي كانت المادة المذاعة تنتهي إليه وتفاعله بمحمولها الإعلامي السلبي . فوسيط مثل جهاز الراديو - وقد كان رأس الوسائل الإعلامية عندما قوم النورسي خطورة الإعلام في مطلع هذا القرن - مهيأ لأن يتميز بدوره التنويري المفيد، لولا

---

[171] الملاحق 418
[172] الملاحق 379
[173] الملاحق 380

أن استخدام الإنسان لـه قد جنح بـه فـي طريق الإذايـة والضرر، عندما اتخذه وسيلة تلهية ماجنة وتسفيه خلقي وتحلل من القيم..

لقد تمثل النورسي للراديو - وهو بتلك الحال التخريبية التي انحرفت به عن طبيعته البناءة - صورة الكائن الشائه ذي الألسن التي لا حد لها ولا عد ، والتي تنبري في ذات الموقف إلى نشر أذاها على الأسماع من غير ما سبيل لإلجامها أو كبحها، لأنها منوطة بإرادة تدميرية عاتية وغير محاسبة ولا سبيل إلى إلجامها، إرادة الإنسان المادي المنجرف وراء الأطماع والنزوات.

لقد تحدث النورسي عن ظاهرة استشراء الشر بواسطة الوسائل الاعلامية المعاصرة ، وذلك في معرض تأويله لبعض ما جاء في الأثر من أنه في آخر الزمان ستعم ظاهرة تضخم ذنوب الفرد . لقد هداه تفكيره في هذا المسألة - ذات الوجه الظاهري المحال - إلى أن الخطيئة الواحدة الصادرة عن الفرد ، عندما تتوسل إلى مرماها الخبيث بالوسيط الإعلامي المعاصر ، فإنها تسلك - فعلا - سبيل التضخم والاستشراء والذيوع . يقول النورسي :

"..هناك روايات حول التضخم الرهيب لذنوب المرء في آخر الزمان ، فكنت أفكر هل يمكن أن يرتكب إنسان أضعاف ما يرتكبه شخص واحد من الخطايا والذنوب بألوف المرات؟ ترى أي ذنوب هذه - المجهولة لدينا - حتى تتعرض للموجودات وتمس الكون فتثير غضبه وتزيد حدته ، بل تسبب قيام الساعة ودمار العالم عليهم؟ وها قد رأيت أسبابها المتعددة في الوقت الحاضر . فمثلا لقد فهم من وجوهها المتعددة بجهاز الراديو الموجود لدي ، حيث أن شخصا واحدا يرتكب مليونا من الكبائر دفعة واحدة بكلمة واحدة ، يتفوه بها في الراديو ، فيقحم ملايين المستمعين له في الذنوب.

"نعم إن جهاز الراديو ينطق بلسان واحد ، إلا أنه يدفع مئات الألوف من الكلمات في الهواء دفعة واحدة ، فبينما ينبغي أن يملأ هذا الجهاز - الذي هو نعمة غالية عظمى - ذرات الهواء قاطبة بالحمد والثناء والشكر لله سبحانه وتعالى ، إلا أن سفاهة البشر المتولدة من الضلالة تستعمل هذا الجهاز بما يخالف الشكر والحمد لله ، فلا جرم أنه سيعاقب.

"نعم أن المدنية الدنية الظالمة قد عوقبت بكفرانها بالنعمة الإلهية وعدم إيفائها الشكر لله ، تجاه ما أنعم عليها سبحانه من الخوارق الحضارية ، لصرفها تلك الخوارق إلى الدمار حتى سلبت سعادة الحياة كليا ، وأردت الناس الذين يعدون في

ذروة الحضارة والمدنية إلى أدنى من دركات الوحوش الضالة ، وأذاقتهم عذاب جهنم قبل الذهاب إليها.

"نعم إن كون جهاز الراديو نعمة إلهية كلية يقتضي شكرا كليا ، ولا يكون ذلك الشكر الكلي إلا بتلاوة القرآن الكريم باستمرار ، كي يوصل إلى مخاطبيه الحاليين دفعة واحدة ذلك الكلام الأزلي الصادر من خالق السموات والأرض ، فيصبح كمقرئ سماوي حافظ للقرآن الكريم يملك ألوف الألوف من الألسنة ، وبهذا يكون قد أدى ما عليه من مهمة الشكر والحمد لله ، فيديم في الوقت نفسه تلك النعمة المهداة.." [174].

ومن غير شك أن حكم النورسي لهذا الوسيط الإعلامي ، لينسحب على سائر المبتكرات التوصيلية والتثقيفية التي لا تفتأ المدنية الغربية تؤثلها ، إذ أن النورسي لا ينتقص المبتكرات إلا من حيث طبيعة الوظيفة التي تناط بها ، والنتائج الاجتماعية والأخلاقية والروحية التي تتولد عنها.. من هنا يتبين موقف النورسي المرحب بالمبتكرات ، والمنوه بالعقل الذي ابتدعها .. دون أن ينسه ذلك أن منجزات العقل إنما هي توفيقات إلهية يجب على العباد أن يديموا الشكر عليها، بتسخيرها في الوجهة التي تشمل البشر فوائدها ، لا أن تتحول إلى خطر يتهدد المصير الإنساني ويدفع به نحو الهلاك..

لقد رأينا النورسي يتبنى جديد المبتدعات المحققة سواء في عالم التوصيل والصناعة والعلوم ، ويعتمدها في خطابه اعتماد إعجاب وامتنان للخالق ، فقد جعل من خراقة السينما مثلا شاهدا ملازما ظل يستدعيه في أحاديثه بصورة لا تكشف إلا عن روح متفتحة ومؤمنة بأن الله قد أودع في الإنسان من القدرات والطاقات ما يجعله ينجز الخراقات فعلا.

بل لقد ألفينا النورسي يربط بين ظاهرة المعجزات التي تحققت للأنبياء والرسل وبين كمائن العقل الإنساني وما هيأه الله له من إمكانات الإبداع ، هذا الإبداع الذي يجدر به أن يجد في طبيعة تلك المعجزات المحققة للمصطفين حافزا وباعثا يجب أن يمضي به كل مضاء شريطة أن يكون المقصد من وراء ما ينجز الإنسان من بدائع، مقصدا إنسانيا، نبيلا، متوافقا مع تعاليم الله، غير ضار بالبشر ولا بروحية الفطرة فيهم.

---

[174] الملاحق 122

23- إن النورسي قد أناط جهده بمطمح تحوير وجهة الفكر الإسلامي في راهنه المتخلف ، وبالعمل على أن يسوسه بسياسة القرآن العظيم ويقتحم به طريق الانبعاث ، ولم يكن مجرد مروج لبضاعة فكرية مستجلبة من سوق الجملة.

"..أما رسائل النور فلكونها معجزة معنوية للقرآن **فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود ، وإنما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة** ، حتى حكم كل من ينعم النظر فيها بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والماء.. "[175]

[175] الملاحق105

فهرست

190